من نور القرآن

تفسير موضوعي يقتبس من القرآن الكريم والسنة الشريفة
ما يلقي ضوءاً على قضايا عقائدية أو أخلاقية
أو فكرية أو اجتماعية

الجزء الثاني

سماحة المرجع الديني

الشيخ محمد اليعقوبي

دار الصادقين
للطباعة والنشر والتوزيع
النجف الاشرف / شارع الرسول صلى الله عليه وآله
٠٧٨٠٨٢٨٩٣٦٤
الطبعة الأولى
١٤٣٨ هـ - ٢٠١٦ م

بسم الله الرحمن الرحيم

القبس القرآني

٤٩

(قُلْ هَـٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي)[1]

[يوسف/١٠٨]

البصيرة بوصلة السلوك الإنساني

تبّين الآية واحدة من وظائف الأنبياء والرسل والأئمة (صلوات الله عليهم أجمعين) ومن تبعهم وحمل رسالتهم من العلماء العاملين الرساليين، وهي الدعوة الى الله تبارك وتعالى قولاً وفعلاً وعرض المشروع الإلهي على الناس واقناعهم به وهدايتهم.

وتبّين الآية ايضاً واحدة من مميزات هؤلاء القادة وخصائصهم التي تميزّهم عن غيرهم من الزعامات وتُعرِّف الأمة كيف يفرزون قياداتهم الحقة عن طلاب الدنيا ولو بأسم الدين.

وهذه الخصوصية هي الصراحة والشفافية مع الأمة (هَـٰذِهِ سَبِيلِي) وامتلاك الرؤية الثاقبة والنظر الدقيق ووضوح الأهداف وآليات العمل لديه المعبّر عنها في الآية بـ(البصيرة) وهي البوصلة التي ترسم المسار الصحيح للإنسان في كل حركاته وسكناته، وهذه البصيرة من الله تعالى والى الله تعالى، وما دام على بصيرة من ربّه فلا تخبّط في مسيرته ولا تناقض في أهدافه ولا تحرّكه الشهوات والانفعالات ولا تؤثر عليه هتافات الناس ولا تزويق المتزلفين ولا تخدعه المكائد

(١) كلمة ألقاها سماحة المرجع اليعقوبي (دام ظله) يوم الاحد ١٤ شعبان /١٤٣٧ المصادف ٢٠١٦/٥/٢٢ بمناسبة الزيارة الشعبانية وذكرى ميلاد الامام المهدي (عليه السلام)..

والحيل وهذا لا يُدرك إلا بلطف الله تعالى.

والبصر والبصيرة أصلهما واحد وهي النظر والرؤية المدركة المنتجة للعلم والمعرفة وليست كل رؤية ونظر قال تعالى (وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ) (الأعراف/١٩٨) فهم كالحيوانات لها عيون تنظر بها لكنها لا تفيدها علماً ولا معرفة، عن النبي (صلى الله عليه وآله) قال (ليس الاعمى من يعمى بصره، إنما الاعمى من تعمى بصيرته)[١].

وكم من حالة او موقف ينظر اليه كثيرون لكن القليل ممن ينظر اليه بفكر واعتبار وتأمل (وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا) (الأعراف/١٧٩) وإن كانت مفتوحة وينظرون بها الى الأشياء، وإنما يستفيد مما حوله في الحياة من كان له بصرٌ وبصيرة (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي الأَبْصَارِ) (آل عمران/١٣) وليس لكل من لديه عين ينظر بها، وعن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال (بالاستبصار يحصُلُ الاعتبار)[٢].

والفرق بين البصر والبصيرة ان الأول بالعين والثانية بالقلب والعقل فقوله تعالى (عَلَى بَصِيرَةٍ) أي على حجة بينةٍ واضحةٍ من ربي (وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُواْ لَوْلاَ اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يوحَى إِلَيَّ مِن رَّبِّي هَـذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) (الأعراف/٢٠٣).

واضافة (وَمَنِ اتَّبَعَنِي) اليه (صلى الله عليه وآله) تشريف لهم بالحاق دعوتهم بدعوته المباركة، وأعلى مراتب البصيرة التامة ما عند المعصومين (عليهم السلام) لذا فأنهم القدر

(١) كنز العمال: ١٢٢٠.

(٢) غرر الحكم/٤٣٥١.

المتيقن من قوله تعالى (وَمَن اتَّبَعَنِي) وفي أصول الكافي بسنده عن أبي جعفر (عليه السلام) في تفسير هذه الآية قال: (ذاك رسول الله (صلى الله عليه وآله) وأمير المؤمنين (عليه السلام) والاوصياء (عليهم السلام) من بعدهما)[1].

فهؤلاء القمم من أهل البصائر هم من يجب اتباعهم والأخذ عنهم (أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّيَ إِلاَّ أَن يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ) (يونس/٣٥).

ثم تتفاوت مراتب البصيرة عند اتباعهم (صلوات الله عليهم أجمعين) في حمل الرسالة المباركة والدعوة الى الله تعالى بحسب درجة تقواهم وقربهم من الله تعالى وبحسب نقاوة فطرتهم وسلامة عقولهم وتفكيرهم وطهارة نفوسهم وقلوبهم (بَلِ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ) (القيامة/١٤)، فهذه باختصار المقتضيات الذاتية أي من نفس الانسان لتحصيل البصيرة وتهيئة الانسان نفسه لها وهي (التقوى، طاعة الله تعالى، نقاء الفطرة، سلامة العقل والفكر، طهارة النفس والقلب).

وخير وسيلة لتحصيل البصيرة التدبر في القرآن الكريم ومعرفة آياته، وقد وصف الله تعالى كتابه الكريم بهذا، قال تعالى (قَدْ جَاءكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ) (الأنعام/١٠٤) وقال تعالى (هَـذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) (الأعراف/٢٠٣) وقال تعالى (هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ) (الجاثية/٢٠) وقال تعالى (بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) (القصص/٤٣)،وروي عن أمير المؤمنين

(١) البرهان في تفسير القرآن: ١٧٨/٥.

(عليه السلام) قوله (بالهدى يكثُرُ الاستبصار)[١].

ومن أهم وسائل تنوير البصيرة مراقبة النفس وإصلاح عيوبها وأخطائها، عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال (أبصر الناس من أبصر عيوبه وأقلع عن ذنوبه)[٢]، وعنه (عليه السلام) قال (ألا و إنّ أبصر الأبصار ما نفذ في الخير في طرفُه، ألا إنّ أسمع الأسماع ما وعى التّذكير و قَبِلَه)[٣].

ومن موجبات البصيرة الاستفادة من المواعظ والعبر وتذكّر أيام الله تعالى ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص : ٤٣].

لذا لا نستغرب ممن فقد هذه الأدوات لتحصيل البصيرة وتنويرها أن يضلَّ بنفس القرآن الكريم الذي هو زادُ المستبصرين، ويستعمل القرآن نفسه لإضلال الناس وصرفهم عن اهل البصيرة، روي في الدر المنثور في تفسير قوله تعالى (وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لاَ يُقْصِرُونَ) (الأعراف/٢٠٢) بسنده عن عمر بن الخطاب قال: كنا عند رسول الله (صلى الله عليه وآله) مجتمعين وأنا أعرف الحزن في وجهه فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون! قلت: يا رسول الله! إنا لله وإنا إليه راجعون، ماذا قال ربنا؟ قال: أتاني جبريل آنفاً فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، قلت: أجل، إنا لله وإنا إليه راجعون، فمم ذاك يا جبريل؟ قال: إن أمتك مفتنة بعدك بقليل من الدهر غير

(١) غرر الحكم: ٤٨١٦.

(٢) غرر الحكم: ٣٠٦١.

(٣) نهج البلاغة: الخطبة/١٠٥.

كثير، فقلت: فتنة كفر أو فتنة ضلالة؟ قال: كل ذلك سيكون، قلت: ومن أين يأتيهم ذلك وأنا تارك فيهم كتاب الله؟ قال: بكتاب الله يضلون، وأول ذلك من قبل قرائهم وأمرائهم، يمنع الأمراء الناس حقوقهم فلا يعطونها فيقتتلون ويتبع القراء أهواء الأمراء فيمدون في الغي ثم لا يقصرون، قلت: يا جبريل؟ فبم سلم من سلم منهم؟ قال: بالكف والصبر، إن أعطوا الذي لهم أخذوه وإن منعوه تركوه)[1].

لقد عانى النبي (صلى الله عليه وآله) والأئمة عليهم السلام من فقدان البصيرة لدى أكثر الناس (وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ) (يوسف/١٠٣) وابتلي أمير المؤمنين (عليه السلام) بحرب أناس يحوطون بالجمل ويتبركون بخروجه ويشمونه ويقولون ما أطيب ريح روث جمل أمّنا أم المؤمنين، وابتلي (عليه السلام) بقتال اناس في صفين لا يفرقّون بين الناقة والجمل ويصدّقون كل شيء يقال لهم وان علياً لا يصلي، ومثل هؤلاء الاقوام من فاقدي البصيرة موجودون في كل زمان ومكان يُبتلى بهم القادة المصلحون ويكونون عقبة كؤود في طريقهم.

ولذا كان الأئمة عليهم السلام يشكون من ندرة أهل البصيرة في اتباعهم، ففي الحديث المعروف لأمير المؤمنين (عليه السلام) مع كميل (يَا كُمَيْلَ بْنَ زِيَادٍ إِنَّ هَذِهِ الْقُلُوبَ أَوْعِيَةٌ فَخَيْرُهَا أَوْعَاهَا) الى أن قال (عليه السلام) (إن ههنا لعلماً جماً - وأشار إلى صدره - لم أصب له خزنة[2] بلى أصيب لقنا غير مأمون، مستعملا آلة الدين في

(١) الدر المنثور للسيوطي: ٦٣٣/٣.

(٢) من هنا يصنّف عليه السلام أنواع الناس الى أربعة أصناف غير جديرين بحمل علمه عليه السلام.

طلب الدنيا، يستظهر بحجج الله على أوليائه وبنعم الله على معاصيه أو منقادا لحملة الحق لا بصيرة له في أحنائه، ينقدح الشك في قلبه بأول عارض من شبهة، اللهم لا ذا ولا ذاك، أو منهوما باللذة سلس القياد للشهوة، أو مغرما بالجمع والادخار ليسا من رعاة الدين ولا من ذوي البصائر واليقين)[١].

إن أوضح ما يميّز الاتباع الحقيقيين للنبي (صلى الله عليه وآله) وآله الكرام عليهم السلام أنهم على بصيرة من امرهم ومنهم أبو الفضل العباس بن أمير المؤمنين (عليه السلام) فمما خاطبه به الامام الصادق (عليه السلام) في زيارة وارث المعروفة قوله (وأنك مضيت على بصيرة من امرك مقتدياً بالصالحين ومتبعاً للنبيين) وهكذا كان أصحاب ابي عبد الله (عليه السلام) المستشهدين بين يديه يشهد بذلك العدو قبل الصديق، فقد روى أصحاب التواريخ والمقاتل انه لما كثرت المبارزة بين أصحاب الامام الحسين (عليه السلام) وجيش يزيد وكان النصر لأصحاب ابي عبد الله، صاح عمرو بن الحجاج الزبيدي (يا حمقى أتدرون من تقاتلون؟ فرسان المصر وأهل البصائر وقوماً مستميتين لا يبرزَّن لهم منكم أحدٌ، والله لو لم ترموهم إلا بالحجارة لقتلتموهم)[٢].

وهكذا إذا كنّا صادقين في موالاتنا للإمام الحسين (عليه السلام) ونصرتنا له (ونصرتي لكم معدّة) (يا ليتنا كنا معكم) وصادقين في انتظار امامنا المهدي الموعود (عليه السلام) والمشاركة في بناء دولته المباركة فعلينا أن نستزيد من البصيرة في علاقتنا مع ربنا، وهذا ما ورد في أدعية الغيبة وتعجيل الظهور، وفي احدها

(١) نهج البلاغة (من كلامه عليه السلام لكميل بن زياد).

(٢) مقتل الحسين (عليه السلام) للخوارزمي: ١٥/٢.

(وارزقنا مرافقة اوليائك ووليك الهادي المهدي الى الهدى وتحت لوائه وفي زمرته شهداء صادقين على بصيرة من دينك إنك على كل شيء قدير)[1].

(١) البحار :٣٠٢/٩٨ عن اقبال الاعمال والبلد الأمين والتهذيب.

تطبيق للآية:
ربيبة القرآن العقيلة زينب (عليها السلام) تعيد للأمة بصيرتها

فقدان البصير سمة المجتمع غير الإيماني:

يستفاد من القرآن الكريم أن من سمات المجتمع البعيد عن التربية الإيمانية هو فقدان البصيرة والقدرة على تمييز الحق من الباطل، وانقلاب موازين النظر عنده في الأمور كلها.

ولنأخذ مثالاً على ذلك حيث نجد المجتمع الجاهلي البعيد عن النظرة الإلهية يعيش لدنياه ويراها غاية أمله فيصارع من أجل الاستزادة منها (وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ) (الجاثية/٢٤).

لكن المجتمع الرباني يعتقد بوجود الآخرة ويعمل لها لأنها الحياة الباقية، ويرى الحياة الدنيا مزرعة، قال تعالى (وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) (العنكبوت/٦٤).

والمورد الآخر اغترارهم بما عندهم من قوة وإمكانيات ماديّة هائلة فيظنون أنهم الرب الأعلى المدبّر لأمور الناس (وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ) (الشعراء/٤٤).

أما المنطق الرباني فيؤكد حقيقة (وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ) (المنافقون/٨) و (إِنَّ الْقُوَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً) (البقرة/١٦٥) ويصف أولئك المغرورين بأنّهم (مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاء كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) (العنكبوت/٤١).

التحذير من فقدان البصيرة:

وقد حذّر رسول الله (صلى الله عليه وآله) أمته من الرجوع إلى هذه الحالة بعد أن أنقذهم الله تعالى بالإسلام، ووقوعهم مرة ثانية في فتنة فقدان البصيرة وإنقلاب موازين النظر في الأمور واعتبرها (صلى الله عليه وآله) الحالة الأشد خطورة من وقوع المنكر والفساد نفسه، ففي الحديث عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (قال النبي (صلى الله عليه وآله): كيف بكم إذا فسدت نساءكم وفسق شبابكم ولم تأمروا بالمعروف ولم تنهوا عن المنكر؟ فقيل له: ويكون ذلك يا رسول الله (صلى الله عليه وآله)؟ فقال: نعم وشرٌّ من ذلك كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف؟ فقيل له يا رسول الله ويكون ذلك؟ قال: نعم وشرٌّ من ذلك، كيف بكم إذا رأيتم المعروف منكراً والمنكر معروفاً).[1]

تصحيح المفاهيم المقلوبة:

وقد وقعت الأمة في هذه الفتنة بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله) وبلغت ذروتها في عهد يزيد بن معاوية، ولهذا كان من الأدوار المهمّة التي أدّتها ربيبة القرآن والنبوّة والإمامة العقيلة زينب (عليها السلام) هي إعادة الأمة إلى وعيها وبصريتها، وتصحيح موازين النظر عندها، ولنأخذ مثالاً على ذلك جانباً من خطابها، فقد كان يزيد وابن زياد وأزلامهم يعتقدون أنّهم هم المنتصرون فأخذتهم سكرة الغلبة ونشوتها كما وصفتهم العقيلة زينب (فشمخت بأنفك ونظرت في عطفك جذلان مسروراً، حين رأيت الدنيا لك مستوسقة والأمور متّسقة، وحين صفا لك ملكنا وسلطاننا)[2].

وتصبح مشكلة المفاهيم المقلوبة أخطر حينما تُستغل لخداع الناس وتُجعل

(١) وسائل الشيعة، كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أبواب الأمر والنهي، باب١ ح١٢.

(٢) الاحتجاج: ج٢ ص١٢٣، والبحار: ج٤٥ ص١٥٧.

دليلاً على شرعية حكم أولئك الطواغيت وسلطتهم، وهذا ما نبّهت إليه العقيلة زينب (صلوات الله عليها) (أظننت يا يزيد حيث أخذت علينا أقطار الأرض وآفاق السماء فأصبحنا نُساق كما تُساق الإماء أنّ بنا على الله هوناً وبك عليه كرامة!! وأنّ ذلك لعظيم خطرك عنده، فمهلاً مهلاً، أنسيت قول الله عز وجل (وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْماً وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ) (آل عمران/١٧٨))[1].

السيدة زينب عليها السلام تبين من هو المنتصر الحقيقي:

فهي (سلام الله عليها) لم تكتفِ بالإدلاء بحقيقة أنّ هذا ملكنا وسلطاننا خاصة ونحن أحقّ بالأمر من هذا الظالم المدّعي، ولكن فضحت هذه الأساليب لخداع الناس وأيقظتهم بأنّ هؤلاء المتسلّطين ليسوا هم أصحاب الحق، ولا يزال إلى اليوم من يموّه على الناس ويكتسب شرعيته من كثرة الأتباع وشهرة العنوان وإغداق الأموال لفرض الأمر الواقع وإقناعهم بأنّ سلطته شرعية وإبعاد الحق عن أهله.

فتواجه العقيلة زينب الطاغية يزيد بالحقيقة الدامغة وبيان المنتصر الحقيقي (فكد كيدك، واسع سعيك، وناصب جهدك، فوالله لا تمحونَّ ذكرنا، ولا تميت وحينا، ولا تدرك أمدنا، ولا ترخص عنك عارها. وهل رأيُك إلاّ فند، وجمعك إلاّ بدد، يوم ينادي المنادي: ألا لعنة الله على الظالمين فالحمد لله الذي ختم لأوّلنا

(١) الاحتجاج: ج٢ ص١٢٣، والبحار: ج٤٥ ص١٥٧.

بالسعادة والمغفرة ولآخرنا بالشهادة)[١].

ووقفت نفس الموقف في الكوفة أمام الطاغية عبيد الله بن زياد حينما قال شامتاً: (الحمدُ لله الذي فضحكم وقتلكم وأبطل أحدوثتكم).

فتصدت له بشجاعة وبلاغة أخذتهما من أبيها أمير المؤمنين (عليه السلام) قائلة: (الحمدُ لله الذي أكرمنا بنبيّه، وطهّرنا من الرجس تطهيرا، إنما يُفتضح الفاسق ويكذب الفاجر، وهو غيرنا يا بن مرجانة).

وحاول أن يغطي فشله وهزيمته بمزيد من الشماتة قائلاً: (كيف رأيتِ صنع الله بأخيكِ) فأجابت (سلام الله عليها): (ما رأيتُ إلاّ جميلاً، هؤلاء قومٌ كتب الله عليهم القتل، فبرزوا إلى مضاجعهم وسيجمع الله بينك وبينهم فتُحاجَّ وتخاصم، فانظر لمن الفلح يومئذٍ، ثكلتك أمّك يا بن مرجانة)[٢].

هكذا أعادت العقيلة زينب الأمور إلى نصابها وبيّنت من هو المنتصر الحقيقي وهزمت هؤلاء الطواغيت وجيوشهم الجرّارة التي غلبت بالسيف لكنّها هُزمت بالبيان والحجة الدامغة فقلبت أفراحهم أحزاناً.

علينا أن نستفيد من الدرس الزينبي:

وعلينا نحن أن نستفيد من هذا الدرس الزينبي ونُصحِّح جملة من المفاهيم والرؤى والنظريات التي أُريد بها خداع الناس وتسييرهم بالاتجاه الذي يريده أصحاب تلك الأجندات الهدّامة، ولنأخذ على ذلك مثالاً من عالم المرأة ممّا

(١) انظر: الاحتجاج: ج٢ ص١٢٣، والبحار: ج٤٥ ص١٥٧.

(٢) المصدر السابق.

حاولوا به خداعها ودفعوها إلى ما يريدون من الانحلال والفساد ومزاحمة الرجال وترك وظيفتها الأساسية في بناء الأسرة الصالحة وتنشئة الجيل الصالح وهو شعار (المساواة).

أبواق المساواة بين الرجل والمرأة:

فهل المساواة مطلب عقلائي؟ وتعبير آخر هل إن المساواة حق دائماً؟ والجواب هو النفي، نعم إذا كان المطلوب مساواة الرجل والمرأة بالاستحقاق والجزاء فهذا حق وقد كفله الشارع المقدّس (أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ) (آل عمران/١٩٥) (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) (الحجرات/١٣) سواء كان ذكراً أو أنثى.

فلسفة التمايز بين الرجل والمرأة:

أما إذا أرادوا بالمساواة مماثلة المرأة للرجل في الوظائف والأعمال التي يؤديانها فهذا مطلبٌ غير عقلائي، بل فيه ظلمٌ للمرأة، لأن طبيعة خلقها وفسيولوجيتها وسايكولوجيتها تنسجم مع وظائف غير ما كُلّف به الرجل، فالمساواة هنا من الظلم وليس من العدالة، ومثله كمثل الطبيب الذي يعطي نوعاً واحداً من الدواء إلى مرضى متنوعين، وكالمدرّس الذي يعطي درجة واحدة لكل طلبته في الامتحان مع تفاوت إجاباتهم، وهذا هو الظلم بعينه والمطلوب تحقيق العدالة وهي قد تقتضي المساواة وقد لا تقتضي المساواة بحسب الموارد وهذا ما كفلته الشريعة المقدسة، فلو أعطينا للولد ميراثاً بقدر البنت لكان ظلماً، لأن الرجل هو الذي يصرف على المرأة ويكفل لها كل احتياجاتها فهي تشاركه

في حصته، ولا يشاركها في حصتها فكيف يتساويان في الاستحقاق.

فهذه المراعاة لتكوين كل من الرجل والمرأة وطبيعة وظائفهما مما تقتضيه الفطرة، وجرت عليه سيرة العقلاء، ويشهد به الواقع وخذ نماذج عشوائية من تركيبة مجتمعات الغرب المدعيّة للتحضّر وانظر هذه المراعاة، كتشكيلة الحكومة أو عدد الطيارين أو عدد قادة الوحدات العسكرية وقيادات الجيش وانظر نسبة النساء إلى الرجال ستجدها ضئيلة فأين المساواة التي يريدون تسويقها إلينا؟

مصطلح سن اليأس:

وبهذه المناسبة نشير إلى مصطلح متداول يخصّ المرأة وهو ((سنّ اليأس)) الذي يراد به عمر الخمسين للمرأة وتُسمى المرأة باليائس، وهو قد يكون له منشأ صحيح حيث يحصل فيه اليأس من الإنجاب لانقطاع الدورة الشهرية، إلاّ أنّ هذا العنوان أُخذ على إطلاقه وكأنّه سن اليأس من الحياة، مما ولّد شعوراً عندها بالإحباط وفقدان الأمل وأنّها أصبحت لا قيمة لها وانتهى دورها في الحياة وأحيلت على التقاعد كما يُقال، فتعتريها أعراض نفسية وعصبية قد تفاقم المشكلة عليها، وهذه الأعراض ليس لها أصلٌ فسيولوجي أو عضوي كما يشهد به الأطباء، أي أن بلوغ المرأة هذا العمر لا يصاحبه أي تغيير في جسمها يقتضي هذه الأعراض، وإنما هي نتائج صنعتها المرأة بنفسها بسبب ذلك الشعور الذي غذاهُ المصطلح البائس.

فالأليق أن يُسمى هذا العمر للمرأة (سن الكمال والنضج وتمام الرشد) لاكتمال تجربة المرأة في الحياة بعد أن تكون قد ربّت جيلاً كاملاً وتعلّمت

الكثير، وهو سن التفرغ لنفسها ولآخرتها ولزوجها بعد أن انتهت من وظائف الحمل والإنجاب والتربية، وشبّ أبناؤها وبناتها فهم يعينونها على قضاء حوائجها فهذا العمر فرصة مثمرة لكي يجتمع الزوجان من جديد على حياة زوجية يتفرغان لبعضهما ويلتفتان لآخرتهما وينشغلان لما يقرّبهما إلى الله تعالى من الطاعات والقربات مما لم تكن مشاغلهما السابقة تسمح لهما بها، كالسفر لأداء الحج والعمرة وزيارة المعصومين (صلوات الله عليهم) والصلاة المستحبة والصوم وقضاء ما فات ومطالعة الكتب، والمساهمة في الأعمال الخيرية والتبليغ الديني والوعظ والإرشاد وغيرها من فرص الكمال.

القبس القرآني

٥٠

(وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ)[١]

[آل عمران : ١٣٣]

(وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ) (آل عمران/١٣٣) سارعوا تعني المبالغة والاشتداد في السرعة أي ليس فقط أسرعوا وبادروا وإنما تسابقوا في هذا الإسراع وهذه المبادرة، لذا ورد التعبير في آيات أخرى مشابهة لفظ (سَابِقُوا) كقوله تعالى (سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاء وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) (الحديد/٢١) ولا يخفى ما في استعمال هذا التعبير من تحفيز على العمل لأن المنافسة والتسابق يفجّر الطاقات.

وهذه المسارعة والمسابقة لابد ان تستمر ما دمتم في الحياة الدنيا لان الدنيا مزرعة الآخرة وبها تكتسب الجنان او النيران والعياذ بالله وكل لحظة من لحظاتها تمثل فرصة لاكتساب المزيد من الطاعة فالتواني والكسل وترك المسارعة يعني إضاعة هذه الفرصة وفي الحديث الشريف (إضاعة الفرصة غصّة)[٢] لأنها تورث الحسرة والندامة والشعور بالغبن يوم التغابن، وإن عدم المبادرة الى الاستغفار يؤدي الى تراكم الذنوب وكثرة الرين على القلب حتى يسوّد ويفقد قابلية العودة

---

(١) كلمة سماحة الشيخ المرجع (دام ظله) في اخر جمعة من شعبان يوم ٢٦ شعبان١٤٣٧ الموافق ٢٠١٦/٦/٣ لاستقبال شهر رمضان المبارك.

(٢) نهج البلاغة: الحكمة ١١٨.

الى الطهارة والعياذ بالله، في الحديث (ان المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه منه، وان ازداد زادت، فذلك (الران) الذي ذكره الله تعالى في كتابه: (كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ)(المطففين/١٤))[١].

وان التأخير وعدم المبالاة بالاستغفار قد يوجب رفع الستر والغطاء عن المذنب فتفضحه ذنوبه برائحتها النتنة التي لا تخفى على الاخرين لولا ستر الله تعالى، لكن العبد اذا تحوَّل الى قاذورة من الذنوب ورفع الله تعالى عنه الحجاب الساتر للعيوب والذنوب فانه يصبح مثيرا للتقزز والاشمئزاز والحيوان قبل الإنسان يكتشف ذلك وأصبح اليوم من الأدلة المهمة لاكتشاف الجرائم والمجرمين هو حاسة الشم لدى الحيوانات كالكلاب مثلاً. وفي الحديث الشريف عن امير المؤمنين (عليه السلام)(تعطرّوا بالاستغفار لا تفضحكم روائح الذنوب)[٢].

ولما كانت المغفرة من فعل الله تعالى (مِّن رَّبِّكُمْ) ومن أسمائه الحسنى (الغفار) و(الغفور) و(غافر الذنب) فما معنى المسارعة اليها؟ انها المسارعة الى أسبابها وموجباتها كالذي قلناه[٣] في شرح الحديث الشريف (ان لربكم في أيام دهركم نفحات فتعرّضوا لها لعله أن يصيبكم نفحة منها فلا تشقُونَّ بعدها أبداً)[٤] وسنتعرض الى جملة من هذه الأسباب ان شاء الله تعالى.

---

(١) تفسير نور الثقلين / ج٥ ص ٥٣٢.

(٢) بحار الانوار: ٢٧٨/٩٣/ ح٧.

(٣) انظره في الملحق الآتي بعنوان: (تعرضوا لنفحات ربكم).

(٤) بحار الانوار: ج ٦٨، ص ٢٢١.

والمغفرة لها حالات لابد ان تطلب جميعاً فلا يقتصر في طلب المغفرة لما مضى من ذنوبه التي الّم بها بل يستغفر مما يأتي بأن يعصمه الله تعالى منها او ليكتبه ممن يغفر له مقدماً فيما لو اوقعته غفلته في ذنب في الأيام الاتية لذا تضمنت الادعية طلب المغفرة لما تقدّم من الذنوب وما تأخّر وهو الاتي.

وكذلك للمغفرة مراتب فلا يختص طلب المغفرة بالذنوب والمعاصي بالمعنى المعروف والتي فيها مخالفة للأحكام الشرعية بل تطلب ايضاً لما هو أدق من ذلك كترك المستحبات او فعل المكروهات او ترك الأولى – كما لو خُيِّر بين طاعتين فلم يختر الأهم منهما – او من عروض خاطر المعصية، وقد لا يكون لهذا او لا لذاك وانما لطلب الرفعة في الدرجات او الاستغفار من القصور الذاتي الذي تقتضيه الطبيعة البشرية في أداء وظائف العبودية لله تعالى او الاستغفار من الانشغال بما يتطلبه الوجود في هذه الدنيا وإداء المسؤوليات الاجتماعية التي كلفه الله تعالى كالذي يصدر من المعصومين عليهم السلام وفي الحديث النبوي الشريف انه (ليغان على قلبي، وإنّي لأستغفر الله في كلّ يوم سبعين مرّة)[1] وفي الكافي عن زيد الشحام عن ابي عبد الله (عليه السلام) قال (كان رسول الله (صلى الله عليه وآله) يتوب الى الله عز وجل في كل يوم سبعين مرة فقلت: أكان يقول استغفر الله واتوب اليه؟ قال: لا ولكن كان يقول: اتوب الى الله)[2].

وقد تضمّن القرآن الكريم آيات كثيرة تحث على الاستغفار وتذكر آثاره

(١) بحار الأنوار: ج٢٥، ص٢٠٤.

(٢) الكافي: ٤٣٨/٢ ح٤.

وبركاته من استجلاب نعم ودفع نقم في الدنيا والآخرة كقوله تعالى (وَأَنِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعاً حَسَناً إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ) (هود/٣) وقوله تعالى (وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ) (هود/٥٢) وفي الحديث الشريف عن النبي (صلى الله عليه وآله) (من كثرت همومه فعليه بالاستغفار)[١] وعن الامام الصادق (عليه السلام) (أدفعوا أبواب البلاء بالاستغفار)[٢].

فالاستغفار سبب لزيادة الرزق وتحصيل الذرية والتنعمّ في الحياة الدنيا والاخرة.

ولذا تجد القرآن الكريم يقرن في هذه الآية وغيرها – كآية سورة الحديد المتقدمة – بين المغفرة والجنة، فالاستغفار يؤدي الى الجنة ويزيل العوائق عن الفوز بها لأن الجنة دار طهارة وسعادة ونقاء فلا يمكن للإنسان ان يدخلها ويتنعم فيها وهو حامل للقذارات المعنوية وادران الذنوب والمعاصي إلا بعد ان يتطهر منها بالعفو والمغفرة ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ) (الأعراف/٤٣).

والملفت للنظر وقوع هذه الآية وآيات تربوية أخرى في سياق الحديث عن معركة أحد وملابساتها وتحقق النصر أولاً ثم الهزيمة المهينة ثانياً (مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ) (آل عمران/١٥٢)

(١) الكافي: ٦٥/٩٣/٨.

(٢) ميزان الحكمة: ٤٣٢/٦.

للتنبيه – كما هو ديدن القرآن دائماً – على محورية العقيدة والارتباط بالله تعالى في كل شؤون الحياة وان الميدان الاوسع والاهم للعمل هو ميدان النفس، والخير يتحقق بقهر أهوائها والغلبة على شهواتها، فميدان النفس ساحة الجهاد الأكبر وما سواها في الخارج هو الجهاد الأصغر، وان كل شيء يكتسب قيمته بمقدار ارتباطه بالله تعالى سواءاً اكان نصراً عسكرياً او انجازاً سياسياً او تقدماً اقتصادياً او رفاهاً اجتماعياً ، فالهدف دائماً إعلاء كلمة الله تعالى طلباً لرضا الله تعالى.

وينبغي الالتفات الى ان الاستغفار المنتج لهذه الاثار المباركة ليس مجرد تحريك اللسان به وإنما له حقيقة بيّنها امير المؤمنين (عليه السلام) في نهج البلاغة ـــ (وَ قَالَ (عليه السلام) لِقَائِلٍ قَالَ بِحَضْرَتِهِ أَسْتَغْفِرُ اَللَّهَ ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ أَ تَدْرِي مَا اَلِاسْتِغْفَارُ إِنَّ اَلِاسْتِغْفَارَ دَرَجَةُ اَلْعِلِّيِّينَ وَ هُوَ اِسْمٌ وَاقِعٌ عَلَى سِتَّةِ مَعَانٍ:

أَوَّلُهَا اَلنَّدَمُ عَلَى مَا مَضَى

وَاَلثَّانِي اَلْعَزْمُ عَلَى تَرْكِ اَلْعَوْدِ إِلَيْهِ أَبَداً

وَاَلثَّالِثُ أَنْ تُؤَدِّيَ إِلَى اَلْمَخْلُوقِينَ حُقُوقَهُمْ حَتَّى تَلْقَى اَللَّهَ عَزَّ وَ جَلَّ أَمْلَسَ لَيْسَ عَلَيْكَ تَبِعَةٌ

وَاَلرَّابِعُ أَنْ تَعْمِدَ إِلَى كُلِّ فَرِيضَةٍ عَلَيْكَ ضَيَّعْتَهَا فَتُؤَدِّيَ حَقَّهَا

وَاَلْخَامِسُ أَنْ تَعْمِدَ إِلَى اَللَّحْمِ اَلَّذِي نَبَتَ عَلَى اَلسُّحْتِ فَتُذِيبَهُ بِالْأَحْزَانِ حَتَّى تُلْصِقَ اَلْجِلْدَ بِالْعَظْمِ وَ يَنْشَأَ بَيْنَهُمَا لَحْمٌ جَدِيدٌ

وَاَلسَّادِسُ أَنْ تُذِيقَ اَلْجِسْمَ أَلَمَ اَلطَّاعَةِ كَمَا أَذَقْتَهُ حَلاَوَةَ اَلْمَعْصِيَةِ فَعِنْدَ ذَلِكَ

تَقُولُ أَسْتَغْفِرُ اَللَّهَ)[١].

اما الاسباب الموجبة للمغفرة فهي كثيرة منها:-

١- الدعاء وطلب المغفرة ، وقد ورد طلب المغفرة في ما لا يحصى من الادعية وكرّست بعض الادعية للاستغفار وطلب التوبة كما في الصحيفة السجادية ، في الحديث عن رسول الله (صلى الله عليه وآله)(خير الدعاء الاستغفار) وعنه (صلى الله عليه وآله)(خير العبادة الاستغفار) وعنه (صلى الله عليه وآله)(الاستغفار في الصحيفة يتلالأ نوراً) وعنه (صلى الله عليه وآله)(من احبَّ أن تسرَّه صحيفتهُ فليكثر فيها من الاستغفار)[٢].

٢- الاستزادة من الطاعات والحسنات عموماً قال الله تعالى (إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ) هود : ١١٤) خصوصاً الصلاة المفروضة في اوقاتها، في الحديث الشريف (لَوْ أَنَّ نَهَرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسًا مَا تَقُولُ ذَلِكَ يُبْقِي مِنْ دَرَنِهِ قَالُوا لَا يُبْقِي مِنْ دَرَنِهِ شَيْئًا قَالَ فَذَلِكَ مِثْلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الْخَطَايَا)[٣].

٣- ومن الطاعات المخصوصة ايضاً (الصدقة) ففي الحديث عن رسول الله (صلى الله عليه وآله): (ان الصدقة لتطفيء غضب الرب) وعن أمير المؤمنين (عليه السلام) (الصدقة جُنة من النار)[٤] ومنها ايضاً صلاة الليل وقد ورد فيها عن النبي (صلى الله عليه وآله) قال: (ان العبد إذا تخلّى لسيده في جوف الليل المظلم وناجاه اثبت الله النور في

---

(١) نهج البلاغة ٤٢٥.

(٢) ميزان الحكمة ج٣ ص ٢٢٧٤.

(٣) صحيح البخاري باب الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ كَفَّارَةٌ

(٤) منتخب ميزان الحكمة: ٣٦٤.

قلبه... ثم يقول جلَّ جلاله لملائكته: يا ملائكتي: انظروا الى عبدي، فقد تخلّى بيّ في جوف اللّيل المظلم والبطالون لاهون، والغافلون نيام، اشهدوا أني قد غفرت له)[١].

٤- الصوم خصوصاً شهر رمضان فأنه شهر المغفرة والعتق من النار والفوز بالجنة وافضل ميادين هذا السباق والمسارعة، وفي خطبة النبي (صلى الله عليه وآله) في أخر جمعة من شعبان التي رواها الامام الرضا (عليه السلام) عن أبائه عن أمير المؤمنين عن رسول الله (صلوات الله عليهم أجمعين) قال (فأن الشقي من حُرم غفران الله في هذا الشهر العظيم) وفيها (يا أيها الناس ان انفسكم مرهونة باعمالكم ففكّوها باستغفاركم، وظهوركم ثقيلة من أوزاركم فخففوا عنها بطول سجودكم)[٢] في الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله (شهر رمضان شهر فرض الله عليكم صيامه فمن صامه إيماناً واحتساباً خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه)[٣] وفي رواية عن الامام الباقر (عليه السلام) قال (إن لله تعالى ملائكة موكلين بالصائمين يستغفرون لهم في كل يوم من شهر رمضان إلى آخره، وينادون الصائمين كل ليلة عند إفطارهم: أبشروا عباد الله فقد جعتم قليلا وستشبعون كثيرا بوركتم وبورك فيكم ، حتى إذا كان آخر ليلة من شهر رمضان نادى : أبشروا عباد الله غفر لكم ذنوبكم وقبل توبتكم فانظروا كيف تكونون فيما تستأنفون)[٤].

---

(١) أمالي الصدوق: ٣٥٤ ح ٤٣٢.

(٢) رواها الشيخ الصدوق في الأمالي وعيون اخبار الرضا.

(٣) وسائل الشيعة : ٢٤٥/١٠،٢٤٧،ح ١٠ ، ١٤.

(٤) كتاب فضائل شهر رمضان للشيخ الصدوق.

وفي الاقبال عن الصادق (عليه السلام) قال: (من لم يُغفر له في شهر رمضان لم يغفر له الى قابل الى أن يشهد عرفة).

أما الصوم المستحب فقد ورد فيه عن الامام الصادق عن آبائه (صلوات الله عليهم جميعاً) قال :(قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): من صام يوماً تطوعاً أبتغاء ثواب الله وجبت له المغفرة)[١] وعن الامام الصادق عليه السلام قال(قال ابي: إن الرجل ليصوم يوماً تطوعاً يريد ما عند الله فيدخله الله به الجنة)[٢].

٥- الحج وخصوص الوقوف بعرفة، روى الامام الصادق (عليه السلام) عن ابيه الباقر (عليه السلام) قال (ما وقف بهذا الموقف أحد إلا غفر الله له) ثم قال (عليه السلام) (ألا انهم في مغفرتهم على ثلاث منازل)[٣] الى آخر الحديث.

٦- زيارة المعصومين عليهم السلام وأولهم النبي الاكرم (صلى الله عليه وآله) وقد ورد في زيارته

الشريفة (اللهم انك قلت (ولو انهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيما)(النساء/٦٤) وإني اتيت نبيك مستغفراً تائباً من ذنوبي واني اتوجه الى الله ربّي وربُك ليغفر لي ذنوبي) .

وهكذا سائر المعصومين (عليهم السلام) وخصوصاً زيارة الامام الحسين (عليه السلام) ، عن الامام الصادق وولده موسى بن جعفر (عليهم السلام) قال(من زار قبر أبي عبد الله

---

(١) وسائل الشيعة : ٤٠٢/١٠ ح ٢١.

(٢) وسائل الشيعة : ١٠٣٩٩ ح ١١.

(٣) وسائل الشيعة:- ٥٤٦/١٣ ح١.

عارفاً بحقه غفر له الله ما تقدم من ذنبه وما تأخر)[١].

أقول قد اختصرنا الكلام بما يناسب المقام[٢] وألا فالأسباب التي جعلها الله تعالى لعباده كرما منه وفضلاً كثيرة غير ما يعفو عنه ابتداءاً بلا سبب سوى ان من صفاته الكريمة الفضل والمن، قال الله تعالى (وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ) (الشورى/٣٠).

(١) وسائل الشيعة ٤١٩/١٤ ح ٢٢، ٣.

(٢) اخترت ذكر شهر رمضان والحج وزيارة الحسين (عليه السلام) لتصلح المحاضرة مادة لتعميق معارف القرآن في المجالس الرمضانية والحسينية ولمرشدي قوافل الحجاج.

ملحق: تعرضوا لنفحات ربكم[١]

النفحات الخاصة:

ورد حديث عن رسول الله (صلى الله عليه وآله): (إن لربكم في أيام دهركم نفحات فتعرّضوا لها لعله أن يصيبكم نفحة منها فلا تشقُّوُنَّ بعدها أبداً)[٢] وفي حديث مماثل (اطلبوا الخير دهركم كله، وتعرضوا لنفحات الله، فإن لله نفحات من رحمته يصيب بها من يشاء من عباده)[٣].

والحديث يشير إلى نوع خاص من الألطاف الإلهية وليست الألطاف العامة الشاملة لكل الناس، والدليل عليه وجهان:

١- التعبير بالنفحات، والنفحة هي القطعة من الشيء أو هي الدفعة منه وليس كله ولا معظمه، كما في قوله تعالى [وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ] (الأنبياء:٤٦) وهذا القول منهم إذا كان رجوعاً وتوبة في وقت قبولها فهو موقف حسن وإلا فإن الأغلب يكون موقفهم التمادي والاستكبار، قال تعالى [وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلاَ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ]

---

(١) تقرير لحديث سماحة الشيخ اليعقوبي في حشد من الإخوة والأخوات الذين تعوّدوا منذ سنتين أن ينطلقوا مشياً من الكوفة إلى كربلاء لإحياء ذكرى وفاة العقيلة زينب وزيارة النصف من رجب وتأسياً بالعقيلة التي قطعت هذه المسافة، وكان اللقاء يوم ١١ رجب ١٤٣٠ المصادف ٢٠٠٩/٧/٤.

(٢) كنز العمال : ٢١٣٢٤ ، ٢١٣٢٥.

(٣) كنز العمال : ج٢ ص٧٤ ح٣١٨٩

(هود:٨).

٢- الأثر العظيم المترتب على التعرض لها والتوفيق للشمول بها بحيث أن من تناله تلك النفحات لا يحتاج إلى ابتلاء ويحسم آمره في الصالحين والسعداء بحيث لا يشقى بعدها أبداً ولتوضيحه بمثال نقول أنه يصبح كالطالب الذي يحرز درجات عالية في السعي السنوي فيُعفى من الامتحانات النهائية ولا يحتاج إلى اختبارات أخرى كأقرانه.

على أي حال فالمراد من النفحات ألطاف إلهية خاصة بدلالة التعبير عنها بالنفحات إذ أن الألطاف الإلهية العامة متواصلة على طول الدهر ولولاها لما خلق الإنسان والكون ولا استمر وجودهما.

لنتعرض لكل سبل الطاعة:

وفي ضوء هذا فقد حث رسول الله (صلى الله عليه وآله) على التعرض لتلك النفحات، ويكون ذلك بالتعرض لأسبابها واقتناص فرصها وهي غير معروفة بالتحديد لأن الله تبارك وتعالى أخفى رضاه في طاعته كما أخفى سخطه في معصيته لذا فحريٌّ بطالب الكمال والسعادة أن يتعرض لكل ما يتيسر له من سبل الطاعة وفرص الخير عسى أن تكون إحداها سببا لنيل تلك الألطاف الخاصة، ولذا جاء في الحديث عنه (صلى الله عليه وآله): (تعرضوا لرحمة الله بما أمركم به من طاعته)[1] وفي الكافي عن الإمام الصادق (عليه السلام): (إذا همّ أحدكم بخير فلا يؤخره فإن العبد ربما صلى

(١) تنبيه الخواطر ونزهة الناظر (مجموعة ورام): ص٤٣٩.

الصلاة أو صام اليوم فيقال له: اعمل ما شئت بعدها فقد غفر الله لك)[١] وعن الإمام الصادق (عليه السلام): (إذا هممت بشيء من الخير فلا تؤخّره فإن الله عز وجل ربما اطلع على العبد وهو على شيء من الطاعة فيقول: وعزّتي وجلالي لا أعذبك بعدها أبداً، وإذا هممت بسيئة فلا تعملها، فإنه ربما اطلع على العبد وهو على شيء من المعصية فيقول: وعزّتي وجلالي لا أغفر لك بعدها أبداً) كالطالب الذي يفشل خلال السنة الدراسية فيحرم من فرصة المشاركة في الامتحانات العامة فكأن تقصيره ذلك أوجب نهايته مبكراً ولم يسمح له باستمرار فرصة الامتحان والسعي لنيل النجاح.

وعنه (عليه السلام) (إذا أردت شيئاً من الخير فلا تؤخره، فإن العبد يصوم اليوم الحار يريد ما عند الله فيُعتقهُ الله به من النار، ولا تستقلّ ما يُتَقرّبُ به إلى الله عز وجل ولو شقَّ تمرة)[٢].

المسارعة الى الخير:

وهذه المسارعة إلى فعل الخير لها ما يبررها من أكثر من جهة:

١- إن الفرص تمرُّ مرّ السحاب وقد لا تتكرر بل هي فعلاً لا تتكرر لأن الفرصة الثانية هي غير الأولى وإضاعة الفرصة غصة وإن عمر الإنسان هو رأس ماله في المتاجرة مع الله تبارك وتعالى وكل ثانية من عمره يمكن أن ترفعه

---

(١) الكافي: ج٢ ص١٤٢.

(٢) هذا الحديث واللذان سبقاه في أصول الكافي، ج٢، كتاب الإيمان والكفر، باب تعجيل فعل الخير.

درجة عند الله تبارك وتعالى.

٢- إن التأخير يعطي فرصة للشيطان والنفس الأمارة بالسوء للوسوسة والتثبيط وإضعاف الهمّة، عن أبي جعفر الباقر(عليه السلام): (من همَّ بشيء من الخير فليعجّله، فإن كل شيء فيه تأخير فإن للشيطان فيه نظرة)[١].

٣- إن القلوب لها أحوال متغيرة فتارة تكون في إقبال على الطاعة وأخرى في إدبار فإذا لم يستغل الحال الأول - أي حال إقبال القلب- فقد يقع في الثاني - أي حال إدبار القلب - فلا يجد في نفسه إقبالا على الطاعة، سأل حمران بن أعين الإمام الباقر (عليه السلام): (أخبرك -أطال الله بقاءك لنا وأمتعنا بك- أنّا نأتيك فما نخرج من عندك حتى ترقَّ قلوبنا وتسلوَ أنفسنا عن الدنيا ويهون علينا ما في أيدي الناس من هذه الأموال، ثم نخرُجُ من عندك فإذا صرنا مع الناس والتجار أحببنا الدنيا؟ فقال أبو جعفر (عليه السلام): إنما هي القلوب مرة تصعُبُ ومرةً تسهُل)[٢].

٤- إن الطاعة مهما تبدوا شاقة فإنما هي جهد اللحظة التي أنت فيها، ومهما تبدو المعصية لذيذة فإنما هي لذة اللحظة التي هو فيها وهذا ييّسر المضي على الطاعة واجتناب المعصية ففي موثقة سماعة عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (سمعته يقول اصبروا على طاعة الله، وتصبّروا عن معصية الله فإنما الدنيا ساعة فما مضى فليس تجد له سروراً ولا حزناً وما لم يأت فليس تعرفه فاصبر على تلك الساعة

(١) نفس المصدر.

(٢) المصدر، باب: في تنقل أحوال القلب.

التي أنت فيها، فكأنك قد اغتبطت)[١].

أشكال النفحات:

وسببية التعرض للنفحات للحصول عليها وشمولها أمر طبيعي، كما أن البائع الذي يتعرض للناس ببضاعته فينوّعها ويتفنن في عرضها ويحاكي أذواق الناس بها يكون الإقبال عليه أكثر من التاجر الساكن الجامد الخامل، مع أن الله تبارك وتعالى قد تكفّل للجميع بالرزق، ولكن ألطافاً خاصة تعطى للمتعرض لها دون غيره.

ومع أن الطاعات كلها شكل من أشكال التعرض للنفحات الإلهية إلا أن لبعض الموارد مزيد عناية ومظنّة لتلك النفحات، وبعض هذه الموارد (مكانية) كالمساجد والعتبات المقدسة وفي حلقات العلم ومجالس الموعظة والإرشاد، وبعضها (زمانية) كليلة الجمعة ويومها والأشهر الشريفة رجب وشعبان ورمضان، و بعضها (حالية) كاجتماع المؤمنين والدعاء للغير وحال التوجّه والاضطرار وانكسار القلب خصوصا إذا امتزج الحزن بالبكاء وعند مجالسة العلماء وبعد الصلوات المفروضة وفي حال السجود.

لطف الله تعالى للجميع:

ولا شك أن لطف الله تبارك وتعالى وكرمه متاح لكل أحد كما في أدعية شهر رجب (يا من يعطي من سأله، يا من يعطي من لم يسأله ومن لم يعرفه تحنناً منه ورحمة) (بابك مفتوح للراغبين، وخيرك مبذول للطالبين، وفضلك مباح

(١) المصدر، باب: محاسبة العمل.

للسائلين، ونيلك متاح للآملين، ورزقك مبسوط لمن عصاك، وحلمك معترض لمن ناوآك)[١] لكن بعض النفحات تتطلب تعرضاً لها وصعوداً إليها.

أتذكر أنني عندما كنت أحضر بحث الأصول للسيد الشهيد الصدر الثاني (قُدِّسَ سِرُّهُ) في مباحث المشتق وكان يفسر آية [وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ] (البقرة:١٢٤) فقال (قُدِّسَ سِرُّهُ): ((إن الآية عبّرت [لا ينال] ولعل في ذلك إشارة إلى هذه المراتب وغيرها من مراتب الكمال إنما تنال بالتكامل والتصاعد في عالم الملكوت الأعلى فكلما تكامل الفرد إلى درجة معينة استحق فيضاً مناسباً لتلك الدرجة ومنها الإمامة فهم يصعدون إليها لاهي تنزل إليهم))[٢] فقلت له بعد الدرس على هذا لا بد من أن يكون ذيل الآية (الظالمون) ليكون فاعلاً وساعياً لنيل العهد وعهدي مفعول به وليس العكس كما في الآية، فأيّد الاعتراض لكنه – لإيمانه بصحة فكرته– عرض حلاً وسطاً يجمع بين الفكرة والإشكال وهو أن الألطاف تنزل من الله تعالى إلى مرتبة معينة ويصعد إليها الفرد إلى تلك المرتبة.

وإذا تهيّب الفرد أو تردّد ولم يقتنص الفرصة ويبادر إليها فإنه سيحرم بركتها ففي الحديث عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: (قرنت الهيبة بالخيبة، والحياء بالحرمان، والفرصة تمر مر السحاب فانتهزوا فرص الخير)[٣].

---

(١) مفاتيح الجنان: ص٢٢٩.

(٢) المشتق عند الأصوليين: ٣٤٣.

(٣) الوسائل: ج١٦ ص٨٤.

طلبات جامعة:

وليكن تعرّضك وطلبك مناسباً لكرم الله تعالى، وتوجد في بعض الأدعية طلبات جامعة لخصال الخير كله كما في أدعية رجب (أعطني بِمَسْأَلَتي إيّاكَ جَميعَ خَيْرِ الدُّنْيا وَجَميعَ خَيْرِ الآخرة، وَاصْرِفْ عَنّي بِمَسْأَلَتي إيّاكَ جَميعَ شَرِّ الدُّنْيا وَشَرِّ الآخرة، فَإِنَّهُ غَيْرُ مَنْقُوص ما أعطيت، وَزِدْني مِنْ فَضْلِكَ يا كَريمُ)[1] وفي دعاء آخر (اللهم إني أسألك أن تدخلني في كل خير أدخلت فيه محمد وآل محمد (صلى الله عليه وآله) وان تخرجني من كل سوء أخرجت منه محمد وآل محمد صلى الله عليه وآله)[2]، وعن أبي جعفر (عليه السلام) قال: (إن رسول الله (صلى الله عليه وآله) كان نزل على رجل بالطائف قبل الاسلام فأكرمه فلما أن بعث الله محمدا (صلى الله عليه وآله) إلى الناس قيل للرجل: أتدري من الذي أرسله الله عز وجل إلى الناس؟ قال: لا، قالوا له: هو محمد بن عبد الله يتيم أبي طالب وهو الذي كان نزل بك بالطائف يوم كذا وكذا فأكرمته، قال: فقدم الرجل على رسول الله (صلى الله عليه وآله) فسلم عليه وأسلم، ثم قال له: أتعرفني يا رسول الله؟ قال: ومن أنت؟ قال: أنا رب المنزل الذي نزلت به بالطائف في الجاهلية يوم كذا وكذا فأكرمتك فقال له رسول الله (صلى الله عليه وآله): مرحباً بك سل حاجتك، فقال: أسألك مأتي شاة برعاتها، فأمر له رسول الله (صلى الله عليه وآله) بما سأل، ثم قال لأصحابه: ما كان على هذا الرجل أن يسألني سؤال عجوز بني إسرائيل لموسى (عليه السلام) بما سأل، فقالوا: وما سألت عجوز بني إسرائيل موسى؟ فقال: إن الله عز ذكره أوحى إلى موسى أن أحمل عظام يوسف من مصر قبل أن تخرج

(١) مفاتيح الجنان: ص ١٧٠.

(٢) مفاتيح الجنان: ص ٢٨٥.

منها إلى الأرض المقدسة بالشام فسأل موسى عن قبر يوسف (عليه السلام) فجاءه شيخ فقال: إن كان أحد يعرف قبره ففلانة، فأرسل موسى (عليه السلام) إليها فلما جاءته قال:تعلمين موضع قبر يوسف (عليه السلام)؟ قالت: نعم، قال: فدليني عليه ولك ما سألت: قال: لا أدلك عليه إلا بحكمي، قال: فلك الجنة، قالت: لا إلا بحكمي عليك، فأوحى الله عز وجل إلى موسى لا يكبر عليك أن تجعل لها حكمها فقال: لها موسى فلك حكمك، قالت: فإن حكمي أن أكون معك في درجتك التي تكون فيها يوم القيامة في الجنة فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): ما كان على هذا لو سألني ما سألت عجوز بني إسرائيل)[1].

وأنتم أيها الإخوة والأخوات بزيارتكم لأمير المؤمنين (عليه السلام) والمساجد المعظمة في الكوفة والسهلة والانطلاق منها سيراً على الأقدام إلى كربلاء لزيارة الإمام الحسين (عليه السلام) في النصف من رجب التي تسمى (الغفيلة) لغفلة الناس عن ثوابها وقطعكم هذه المسافة التي قطعتها عقيلة الهاشميين زينب بنت علي (عليها السلام) لإحياء ذكرى وفاتها، تكونون قد تعرضتم لكثير من نفحات الله تبارك وتعالى وأتيتم بأسبابها في هذا الشهر الشريف فأرجوا أن يشملكم الله تبارك وتعالى بألطافه ونفحاته الخاصة. ويشرك معكم كل من أحبَّ عملكم وأيّده وقدّم الخدمة لكم فإن من أحب عمل قوم شاركهم في أجورهم.

(١) الكافي: ج٨ ص١٥٥.

القبس القرآني

٥١

(وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ)[١]

[الحج: ٣٢]

نحاول فهم الآية ودلالتها وما نستفيده من دروس من خلال نقاط :

١- (شعائر) جمع (شعيرة) وقال ابن فارس في معجم مقاييس اللغة: يُقال للواحدة (شَعارة) وهو أحسن من (شعيرة) وهي العلامة الدالة التي تُدرك ولكن بلطف ودقة، فشعائر الله كل ما دلّ على الله تعالى وكان علماً لطاعته والاشعار: الاعلام من طريق الحس، و(المشاعر) المعالم جمع (مشعر) وهي المواضع التي اشعرت بعلامات.

وتتضمن معنى الدقة واللطافة لذا سمي (الشَعَر) لدقته[٢]، والشعور دقة الادراك، والشاعر لأنه يشعر بفطنته بما لا يفطن له غيره.

فهذه المناسك والشعائر والمشاعر رموز تعبّر عن التوجه الى الله تعالى وطاعته وتوصل الى التقوى التي هي الغاية من الشعائر فهذه الشعائر وسائر الاعمال

---

(١) كلمة سماحة المرجع الديني الشيخ محمد اليعقوبي (دام ظله) في حشود الزائرين المشاركين في الشعائر الزينبية يوم الثلاثاء ١١/رجب/١٤٣٧ المصادف ٢٠١٦/٤/١٩ وتبدأ المراسيم بالتجمع في النجف الاشرف ثم السير على الاقدام من حرم امير المؤمنين (عليه السلام) الى حرم الامام الحسين (عليه السلام) لإحياء ذكرى وفاة العقيلة زينب في النصف من رجب.

(٢) والشعار: هو الثوب الرقيق الذي يلي الجسد ويلامس الشعر ويقال في لغة العرب للقريب الملاصق للمودّة (أنت الشعار دون الدثار) أي اللباس الملاصق وليس الخارجي.

لها قوالب شكلية وإنما تكتسب أهميتها من تحصيل حقائقها، لذا جعل تعظيم الشعائر من حركة القلوب وتكاملها وليست مقتصرة على حركات الجسد وأعضاء الجسم، فلينتبه الى هذه الحقيقة من يريد تعظيم الشعائر بصدق فالمنافقون والفاسقون قد يؤدون الشعائر الشكلية كما كانوا في زمان رسول الله (صلى الله عليه وآله) يحضرون الصلاة في المسجد ويخرجون في الغزوات لكنها لا قيمة لها لأنها خالية من التقوى.

وقد أمرنا الله تعالى باحترامها وتقديسها وحفظ حدودها، قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحِلُّواْ شَعَآئِرَ اللّهِ وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ) (المائدة/٢) أي لا تنتقصوها ولا تنتهكوا حرمتها ولا تضيعوها، وما دام تعظيم الشعائر من تقوى القلوب، فأن من لم يعظم شعائر الله فانه من اهل القلوب القاسية التي لم تذق حلاوة التقوى.

٢- وقد ورد تعظيم الشعائر مطلقاً في الآية ولم يُحدَّد بشكل معين فتشمل التعظيم بالمشاركة فيها والدعوة اليها والتعريف بحقيقتها أو المساهمة بالمال او التشجيع والدفاع عنها ضد من يشوهها ويخذَل الناس عن المشاركة فيها وينتقصها ونحو ذلك.

والتعظيم ليس له صيغة خاصة وانما هو لكل شعيرة بحسبها فقد يكون بالاهتمام بها واعطائها الأولوية في حياة الانسان، (قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) (التوبة/٢٤)، وقد يكون بانتقاء افضل

افرادها كما في قوله تعالى (لن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ) (ال عمران /٩٢).

٣- ولأن الشعيرة ما يدرك بدقة ولطافة فأن حقائق هذه الشعائر ومعانيها تخفى على غير الفطن الواعي الذي يهديه الله بلطفه فالحج الذي كله شعائر ومشاعر قال تعالى (وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ) (الحج/٣٦) وقال تعالى (ان الصفا والمروة من شعائر الله) (البقرة/١٨٥) والآية محل البحث وردت في سياق مناسك الحج وقال تعالى (فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُواْ اللّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ) (البقرة /١٩٨).

تعرّض للتشكيك والاستهزاء والسخرية وكان بعض الزنادقة الملحدين يحضر موسم الحج ويقول: الى متى تطوفون بهذه الأحجار لأنهم لم يدركوا المعاني الروحية فيها وحقائق هذه الأفعال التي تدعو الى التوحيد الخالص ونبذ الشركاء، وأنى لأحد أن يدركها إلا ان يكون من أصحاب القلوب التقية العارفة بحقائق هذه الأفعال، وهكذا الشعائر الحسينية تتعرض للتشكيك والانتقاص والازدراء لنفس السبب وغيره.

٤- الضمير في قوله تعالى (فأنها) يمكن أن يعود الى الشعائر نفسها فأنها من التقوى، ويمكن أن يعود الى التعظيم وقد جمع ليكون مناسباً للشعائر أي فأن هذه التعظيمات من تقوى القلوب.

٥- ومن أهم الشعائر التي أمرنا بتعظيمها الاحكام الشرعية والقوانين الإلهية في كل شؤون الحياة ومفاصل المجتمع فان الالتزام بهذه القوانين واقامتها بين

الناس ودعوتهم اليها والدفاع عنها هو من تعظيم شعائر الله الذي هو من تقوى القلوب، وان من يقف في طريق إقرار هذه القوانين وأخذ الدين دوره في حياة الانسان والمجتمع تحت خديعة (الدولة المدنية) وامثالها هو ناقص الورع والتقوى.

٦- وتعظيم الشعائر الإلهية واجب على الجميع بالمقدار الذي يتحقق فيه المطلوب، الى درجة انه إذا تقاعس الجميع وجب على ولي الامر إجبارهم عليه ففي رواية صحيحة عن الامام الصادق (عليه السلام) قال (لو أن الناس تركوا الحج لكان على الوالي ان يجبرهم على ذلك وعلى المقام عنده، ولو تركوا زيارة النبي (صلى الله عليه وآله) لكان على الوالي ان يجبرهم على ذلك وعلى المقام عنده، فإن لم يكن لهم أموال انفق عليهم من بيت مال المسلمين)[1].

ومن زيارة النبي (صلى الله عليه وآله) نتوسع الى زيارة الائمة المعصومين (عليهم السلام) وتعظيم مشاهدهم المشرّفة لانها سبب لتحصيل الألطاف

الإلهيّة مما لا يمكن تحصيله في أي موضع آخر.

وانقل لكم هذه الرواية التي تدل على مدى اهتمام الأئمة (عليهم السلام) بالشعائر والمشاعر الإلهية، وموضوع الرواية الحرم الحسيني المطهر ففي كتاب الكافي لثقة الإسلام الشيخ الكليني عن أبي هاشم الجعفري – وهو من أصحاب الائمة المخلصين ومن ذرية جعفر الطيار – قال : بعث ألَيَّ أبو الحسن الامام الهادي (عليه السلام) في مرضه فما زال يقول ابعثوا الى الحير- أي الحائر الحسيني – فقلت له:

(١) وسائل الشيعة، كتاب الحج، أبواب وجوبه وشرائطه، باب ٥ح٢.

جعلت فداك أنا اذهب الى الحير فقال: أنظروا في ذاك – أي تدبروا الأمر جيداً واختاروا رجلاً مناسباً لأن المتوكل العباسي كان ينزل أشد العقوبات بزائري قبر الحسين (عليه السلام)- ، قال أبو هاشم فذكرت ذلك لعلي بن بلال فقال : ما كان يصنع في الحير وهو الحير – أي ان الامام الهادي (عليه السلام) هو الامام المعصوم الحجة من الله تعالى فما حاجته الى التوسل بقبر جده الحسين (عليه السلام) - ، فقدمت العسكر- أي سامراء والامام فيها – فدخلت عليه فقال لي أجلس حين أردت القيام فلما رأيته أنس بي ذكرت له قول علي بن بلال فقال لي ألا قلت له – ان رسول الله (صلى الله عليه وآله) كان يطوف بالبيت ويقبّل الحجر، وحرمة النبي (صلى الله عليه وآله) والمؤمن أعظم من حرمة البيت وأمرهُ الله عز وجل أن يقف بعرفة، وإنما هي مواطن يحب الله أن يذكر (وفي رواية: يتعبد) فيها فأنا أحبُ أن يُدعى لي حيث يحب الله أن يُدعى فيها)[1].

ومن هذا الوجوب نستنتج انه علينا ان نراقب واقعنا بدقة فإذا وجدنا فريضة وشعيرة الهية معّطلة او تقاعس المجتمع في أدائها كصلاة الجمعة او الامر بالمعروف والنهي عن المنكر، او إقامة القوانين الإلهية فعلينا المبادرة لإحيائها، وكذا اذا وجدنا احد المشاعر المقدسة مهجوراً فعلينا اعماره بالزيارة والدعاء والذكر كالتقصير الذي حصل في زيارة الامامين العسكريين بعد التفجير الاجرامي والفتنة الطائفية عام ٢٠٠٦ او الشعائر الفاطمية التي نهضتم لإحيائها منذ عام ٢٠٠٦/١٤٢٧ وكذا الشعائر الزينبية التي وفقتم للمشاركة فيها.

(١) بحار الانوار: ٢٢٥/٥٠ عن الكافي: ٥٦٧/٤-٥٦٨ ح٣.

٧- ورد في الرواية أعلاه أن (حرمة المؤمن أعظم من حرمة البيت) فأذن من تعظيم الشعائر احترام المؤمنين وإكرامهم والتواضع لهم وقضاء حوائجهم خصوصاً إذا كانت له مزية اضافية ككونه احد الوالدين او من الارحام او الجيران او من وأهل العلم و الفضل ونحو ذلك فلا تغفلوا عن هذا المعنى، ولا تخسروا هذه الفضيلة وتتنازعون بينكم من اجل المال او كلمة قيلت او أي سبب آخر للنزاع والتباغض والتباعد.

٨- ان الشعائر أضيفت الى الله تعالى (شعائر الله)، فالشعائر والمشاعر لا تكون مقدسة وموصلة الى تقوى القلوب الا اذا كانت بحجة شرعية من الله تعالى وتقع ضمن الاطار الإلهي العام الذي رسمه المعصومون (سلام الله عليهم)، اما بعض الطقوس المبتدعة فقد تكون جائزة اذا لم تحرم بعنوان ثانوي كالأضرار بالبدن او تشويه سمعة المذهب، لكنها ليست مقدسة ولا راجحة لانها ليست من الله تعالى .

وكذا ظاهرة انتشار الكثير من القبور المنسوبة الى أولاد وبنات الائمة الطاهرين من دون وجود دليل يثبت صحة هذه النسبة فهي وهمية لا مستند لها وقد توضع اساطير وقصص خرافية او تحكى منامات لبعض العجائز كدليل على قدسية هذه القبور، وهي في الحقيقة ليست مشاعر مقدسة ولا يجوز زيارتها لأنها ليست من شعائر الله تعالى .

القبس القرآني

٥٢

(ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض)[1] [الحج : ٤٠]

سنة التدافع

من السنن الإلهية:

قال تعالى (وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ) (البقرة : ٢٥١)

وقال تعالى (وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ) (الحج : ٤٠).

تكشف هاتان الآيتان عن سنة إلهية عظيمة وفريضة واجبة على المسلمين وهي سنة التدافع أي دفع الكفر بالإيمان، والشر بالخير، والفساد بالصلاح، والباطل بالحق، والمنكر بالمعروف، وتظهر عظمة هذه السنّة من اندراج فريضتين عظيمتين تحت عنوانها وهما الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مضافاً الى الطاعات الاخرى كالدعوة الى الخير والنصيحة والارشاد والموعظة.

من وحي القرآن:

وهنا نلتفت إلى عدة أمور نستوحيها من الآيتين الكريمتين:

١- جعل هذه السنة الإلهية من منن الله تعالى وأفضاله على العالمين

---

(١) كلمة القاها سماحة المرجع اليعقوبي (دام ظله) في مجلس بحثه الشريف يوم المولد النبوي الشريف ١٧-ع١-١٤٣٥هـ المصادف ١٩-١-٢٠١٤

في الآية الاولى، رغم أن هذا التدافع يقتضي حصول تضحيات بالأرواح و الأموال ومفارقة الأهل والأوطان وبذل الجهود الكبيرة لأنها حرب مستمرة ضارية، وتفسير ذلك بوجوه يأتي احدها ونذكر هنا وجهاً ذكرت الآية حاصله انه لولا هذا الدفع لامتلأت الأرض بالشر و الفساد و الظلم و الكفر ولم تستقم فيها حياة إنسانية كريمة، ولأزيلت كل مظاهر الخير و الصلاح التي أشير إليها في الآية الثانية بأسماء دور العبادة و الذكر في الديانات التوحيدية.

٢- **مادام هذا التدافع سنة إلهية فهي ثابتة وحتمية** (وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً) (الأحزاب/٦٢) (وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً) (فاطر/٤٣) ولا يمكن التخلص من هذه المواجهة بالهروب من الواقع أو الانزواء أو غض الطرف ودفن الرأس في التراب، لأن النتيجة حينئذ ما ذكرته الآية الشريفة.

وإن هذه المواجهة مستمرة ولا تقتصر على زمان ومكان محدودين، لأنّها مرتبطة بوجود الناس على هذه الأرض وانقسامهم إلى فريق في الجنة وفريق في السعير.

٣- **يظهر من الآيتين أن الغرض من التدافع ومنه الجهاد بل العمل الإسلامي عموماً هو تثبيت كلمة التوحيد وحفظ شعائره ومشاعره، وإخراج الناس من عبادة العبيد وتحريرهم ليكونوا عباداً لله تبارك وتعالى** ولم يُشرّع القتال والتدافع بأي نحو كان -ومنه التدافع والتنافس السياسي- طلبا لدنُيا أو مال أو توسيع سلطة و نفوذ أو أي مغانم أخرى غير رضا الله تبارك وتعالى وإعلاء كلمته خلافاً لأهداف غير الربانيين فإنها لتلك الأهداف الدنيوية وهذا يجيب عن

الإشكالات عن تشريع الجهاد في شريعة الإسلام .

ما قلناه آنفاً يدعونا إلى تصحيح مقاييس النصر و الربح و النجاح في ثقافتنا:

ظنّوا بأن قتلَ الحسينَ يزيدُهم كذبوا فقد قتلَ الحسينُ يزيدا

وان نرتب أولوياتنا بشكل صحيح ونعرف بماذا نضحي ومن اجل ماذا نضحي بعد معرفة الأهم و المهم، إذ يظهر من الآية أنّ الهدف الأسمى هو إعلاء ذكر الله تعالى وإقامة شريعته ويهون دون ذلك القتل والقتال والتدافع بكل أشكاله وبذل كل شيء، وليس العكس بأنّ يُجعل الدين وسيلة لكسب الدنيا.

٤- وان الدفع يعني عدم إمكانية اجتماع الطرفين المتدافعين معاً كالمعروف والمنكر أو الحق والباطل بل إن كلاً منهما يسعى لإزالة الآخر واجتثاثه، فلا مجال للمداهنة ولا لأنصاف الحلول لتصادم الأحكام والتشريعات الإلهية مع القوانين الوضعية التي تخضع للأهواء والنزوات، لأنّهم لا يرضون إلاّ بمحو الدين وإلغاء هوية أهله التي عبّرت عنها الآيتان بالهدم، وقال تعالى عنهم (وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ) (البقرة/١٢٠)

٥- إن الله تعالى قادر على إعزاز دينه ونصرهِ بقدرته اللامحدودة فيقول للشيء كن فيكون ويقطع دابر الفساد والكفر و الشر، إلا انه تعالى أبى الا ان تسير الأمور وفق أسبابها الطبيعية ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾ [محمد : ٤]، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ [المائدة

: ٤٨]، ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال : ٤٢]، فجعل تعالى دفع الأشرار بعمل الأخيار وحركتهم المباركة مع تأييد الله تعالى وإمداده ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال : ٦٢]، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحج : ٣٨] ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ [الحج : ٤٠]، فلابد إذن وفق هذه السنة الإلهية من عمل دؤوب متواصل.

وحذّرت الآيتان من التقاعس عن العمل و المرابطة في مواجهة قوى الشر والانحراف و الفساد لان النتيجة تسلّط الطواغيت و الفسقة وخلوّ الساحة لهم وهو ينطبق على الحديث النبوي الشريف (لتأمرنّ بالمعروف ولتنهنّ عن المنكر، أو ليستعملنّ عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم)[1] ويقوم هؤلاء الأشرار باستعباد الناس ومحو كل شعائر الدين ومشاعره وشعاراته، ورمزها ومجمعها الذي اشارت اليه الآية الشريفة المساجد فيعملون على هدمها وتخريبها.

٦- إن هدم المساجد لا يقتصر على المعنى المادي أي إزالتها من وجه الأرض إذ قد يكون التخريب معنوياً - وهذا هو الأخطر- وذلك بحرمان الناس من بركاتها وتعطيل دورها الذي ذكرته الآية الشريفة بأنّه يُذكر فيها الله كثيراً وتُتلى فيها آياته ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، والمساجد هي مراكز تجمع المسلمين وتعارفهم وتحشيد قواهم ونشر الوعي بينهم وتهذيب أخلاقهم وتعليمهم الدين.

وهذا التخريب المعنوي هو ما يلجأ إليه الطواغيت والمنافقون المتستّرون

(١) وسائل الشيعة: ١١٨/١٦ ح ١١.

بالدين فهم يعمّرون المساجد مادياً إلاّ أنّهم يفرغونها من محتواها وتأثيرها في حياة الأمة كالذي شهدناه ايام الرئيس المقبور صدام وامثاله.

وقد يكون تأثير مساجد المنافقين معادياً للدين القويم ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [التوبة : ١٠٧] وهذا شاهد على ما قلناه من كون التخريب المعنوي اخطر.

٧- وبناءاً على ما قلناه من ان التخريب المعنوي هو الاخطر وانه قد يكون من المتسترين بالدين من نفس المسلمين فان سنة التدافع تجري داخل المجتمع المسلم ايضاً وليس فقط مع الاعداء الخارجيين وتكون حينئذٍ مع من يحرّف الدين ويداهن فيه ويعرقل مسيرته ويحارب المصلحين ويقف حجر عثرة في طريق الإصلاح مكتفياً بشكليات الدين ومظاهره الخارجية، كالذين واجههم أمير المؤمنين (عليه السلام) بعد وفاة رسول الله (صلى الله عليه وآله) وكانوا من العناوين الكبيرة في المجتمع المسلم، خصوصاً بعد الالتفات إلى الوصف الذي أعطته الآية للمساجد، والذي لاينطبق على اولئك المتسترين بالدين .

٨- لا بدّ ان يلاحظ في آليات التدافع مناسبتها لما يستعمله العدو، لأنّه إذا لم يكن مناسباً ومكافئاً للعدو فلا يعتبر دفعاً ولا تدافعاً، فإذا كان عمل العدو وهدمه فكرياً فلابد من دحضه بفكر مثله وان كان إفساده أخلاقياً فلابد من مواجهته بحملة مثلها، وهكذا إن كان سياسياً أو إعلامياً أو اقتصادياً أو اجتماعياً أو عسكرياً ونحو ذلك فانه يقابل بمثله.

٩- إن الله تبارك و تعالى لطيف بعباده ولا يتركهم سدى فريسةً بأيدي شياطين الانس و الجن بل يقيّض من عباده من ينهض بهذا الحمل الثقيل لذا نسب تعالى الدفع إليه فهو الذي يدفع الناس بالناس، وهذا المعنى من قبيل ما ورد في الحديث الشريف عن الإمام الصادق (عليه السلام) أنه قال: (يحمل هذا الدين في كل قرن عُدول ينفون عنه تأويل المبطلين وتحريف الغالين وانتحال الجاهلين)[1] واذا تقاعس قوم عن اداء واجباتهم فان الله تعالى يوفّق غيرهم لهذه الطاعة قال تعالى ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد : ٣٨].

١٠- الوعد الإلهي لعباده العاملين المخلصين بالنصر وتأكيد ذلك بعدة مؤكدات في الآية، كاللام ونون التوكيد في قوله تعالى ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ﴾، نعم قد يتأخر النصر لحكمة إلهية كحماية المؤمنين من العجب او لتعريضهم لمزيد من البلاء لإنضاجهم وتأهيلهم، أو لكي يستشعروا أهمية وقيمة النصر، وقد يحقق الله تعالى النصر للمؤمنين لكن على نحو لا يفهمه الناس لاختلال القيم والمقاييس عندهم، وعلى اي حال فان هذا النصر مشروط بإخلاصهم لله تعالى وصدقهم في ما عاهدوا الله عليه، فقد وضحت الآية التالية للآية الثانية التي فيها الوعد بالنصر من ينصرهم الله تعالى بقوله سبحانه ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا

(١) رجال الكشي: ٢، وروى البرقي في المحاسن مثله وفيه (فانظروا علمكم هذا عمّن تأخذونه فإن فينا أهل البيت في كل خلف عدولاً ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين) (بحار الأنوار: ٩٢/٢ عن بصائر الدرجات ١/٣٠ :، باب ٦، ح ٧.

الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج : ٤١].

١١- ورد في الروايات معنى آخر للدفع يناسب قوله تعالى ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة : ٢٥١] لأنّ فيه منّة من الله تعالى، ففي رواية عن الامام الصادق (عليه السلام) قَالَ: (إن الله يدفع بمن يصلي من شيعتنا عمن لا يصلي من شيعتنا، ولو اجتمعوا على ترك الصلاة لهلكوا، وإن الله ليدفع بمن يصوم منهم عمن لا يصوم من شيعتنا، ولو اجتمعوا على ترك الصيام لهلكوا، وإن الله يدفع بمن يزكي من شيعتنا عمن لا يزكي، ولو اجتمعوا على ترك الزكاة لهلكوا، وإن الله يدفع بمن يحج من شيعتنا عمن لا يحج منهم، ولو اجتمعوا على ترك الحج لهلكوا وهو قول الله تعالى(وَلَوْ لا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعالَمِينَ)[1].

١٢- إنّ الدفع وإن كان في المصطلح يعني مقاومة الشيء بعد وقوعه، إلا أن معناه هنا أوسع فيشمل ما يعرف بالرفع أي منع وقوع الفساد والظلم والانحراف أصلاً، بل أن العمل عل النحو الثاني هو الذي يجب أن نفكر فيه ونضع خططنا له على طريقة الحكمة القائلة (الوقاية خير من العلاج) فتهيئة أسباب الصلاح والبيئة المساعدة لانتشاره وإقناع الناس به مقدَّم على انتظار وقوع المنكر ثم التفكير في كيفية إزالته ومعالجته.

وهذا مبدأ مهم سار عليه قادة الإسلام العظيم فمن قصار كلمات امير

(١) البرهان : ٢/ ١٤٥ نقلا عن تفسير العيّاشي١. ١٣٥/٤٤٦.

المؤمنين (عليه السلام) (ازجر المسيء بثواب المحسن)[١] وروي عن الامام الحسن المجتبى (عليه السلام) قوله (السداد دفع المنكر بالمعروف)[٢] فالأولى أن تكافئ المحسن وتشجّع العامل الصالح لتحفّز غيره على الإحسان وإتقان العمل ولا يبقى مجال ليفكّر بالعمل السيء وتعريض نفسه للعقوبة.

١٣- ولابد ان نلتفت الى ساحة اخرى للتدافع وهو الذي سماه النبي (صلى الله عليه وآله) الجهاد الاكبر وهي ساحة النفس التي يتصارع فيها جنود الرحمن مع جنود الشيطان لتحسم المعركة بانتصار ارادة الخير او ارادة الشر، و الاولى مؤيدة بالألطاف الالهية والبصيرة والعقل و المعرفة و العزم و الحكمة، والثانية مزودة بالشهوات و الاهواء والميول النفسية.

روي في الكافي انه كان عند الامام الصادق (عليه السلام) جماعة من مواليه فجرى ذكر العقل و الجهل، فقال الامام: (عليه السلام) (اعرفوا العقل وجنده والجهل وجنده تهتدوا) قال الراوي جعلت فداك لا نعرف الا ما عرفتنا، فذكر الامام (عليه السلام) ان الله تعالى اعطى لكل منهما خمسة وسبعين جنداً وقال (عليه السلام) الخير وهو وزير العقل وجعل ضدّه الشر وهو وزير الجهل، والايمان وضده الكفر)[٣] الى اخر الحديث.

---

(١) نهج البلاغة، ح ٤، قصار الكلمات رقم ١٧٧ عن روض الاخيار/ ٤١.

(٢) مستدرك الوسائل: ٤٣٨:١٢: ح:١٤٥٦٢حلية الاولياء لابي نعيم: حديث ١٤٦٢.

(٣) اصول الكافي : كِتَابُ الْعَقْل وَالْجَهْل ج ١/ح ١٤.

الدعوة النبوية وسنة التدافع الخارجي:

لقد جسد النبي (ﷺ) في رسالته الإسلامية هذه السنّة –أي سنّة التدافع– بأوضح مصاديقها وبأشكال متنوّعة فكانت دعوته (ﷺ) من أول أمره تستند إلى عقيدتين متلازمتين هما إثبات الإلوهية لله تعالى ونفيها عمّا سواه، وكان شعار دعوته المباركة (قولوا لا إله إلا الله تُفلحوا) فلم يقتصر على القضية الأولى –أي إثبات الإلوهية لله تعالى– ما لم تنضم إليها الثانية وهي رفض الوهية غيره لتكتمل عقيدة التوحيد، وإلاّ فإنّ المشركين كانوا يقولون بوجود الله تعالى وخالقيته ورازقيته (وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ) (العنكبوت/٦١) (وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ) (العنكبوت/٦٣) وغيرها. فالمشركون لم يعترضوا على هذا المقدار وكان بين ظهرانيهم أحناف موحّدون وأتباع الديانات السماوية لكنّهم أعلنوا العداء بضراوة والحرب على النبي (ﷺ) لأنّه دفع عقيدتهم وألغاها.

وقد بدأ النبي (ﷺ) التدافع بالجهر برفض تلك العقيدة الباطلة وقداستها المزيّفة التي صنعها المنتفعون بها وتلاه الإجراء الآخر وهو مباينة أهلها (قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ) (الكافرون/١-٣)، ثمّ بالاستدلال على بطلانها وردّ دعاؤهم والإجابة على إشكالاتهم.

وهكذا تدرّجت وتنوّعت آليات التدافع والمواجهة حتّى أُذن له (ﷺ) بالقتال بعد أن مكّنه الله تعالى من زمام الأمور في المدينة المنّورة ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج : ٣٩] حتى فتح الله تعالى عليه الفتوح المبينة وعمّت رسالته المباركة شرق وغربها.

التدافع الداخلي:

هذا على صعيد التدافع الخارجي أما على مستوى التدافع الداخلي فإجراءاته مع المنافقين معلومة وهدمه وإحراقه لمسجدهم الذي اتّخذوه ضراراً وتفريقاً بين المؤمنين في الرواية الموجودة في سبب نزول الآية المذكورة.

وسار على نهجه سبطه الشهيد الإمام الحسين (عليه السلام) فأقام بخروجه المبارك هذه السنة الإلهية إذ انه لم يتقاعس ولم يذعن ولم يستسلم لبطش بني أمية وطغيانهم، ونهض بمسؤوليته وقام (عليه السلام) ليدفع المنكر والباطل، ولولا قيامه المبارك لنقض بنو أمية الإسلام عروة عروة ولتحقق المحذور الذي اشارت اليه آيتا التدافع حتى لا يبقى من الإسلام إلا اسمه ومن القران إلا رسمه، وقد قطعوا شوطاً واسعاً في هذا المجال لولا ان الإمام الحسين (عليه السلام) قلب الأمور عليهم وأعاد للإسلام وجوده ومضمونه ونقاءه وحيويته:

إن كان دين محمدٍ لم يستقم إلا بقتليَ يا سيوفُ خذيني

وقد حقق الله له (عليه السلام) وعده بالنصر فها هو ذكره المبارك يملأ الخافقين ويهدي الناس إلى الحق ويحفظ دين الإسلام عزيزاً كريماً و المسلمين مرفوعي الرأس، وأصبحت قضية الحسين (عليه السلام) من أعظم الحوادث التاريخية على الإطلاق وأعظمها انتشاراً، وها هي المسيرة المليونية في زيارة الأربعين شاهد على الكرامة و العزة و الحرية والرفعة.

ايها الاحبة:

إنّ من أفضل أشكال التأسي برسول الله (صلى الله عليه وآله) وبالإمام الحسين (عليه السلام) إحياء هذا القانون الإلهي العظيم في كل ساحاته سواء داخل كيان المجتمع

المسلم أو خارجه وبالآليات المناسبة لكل مواجهة، ولا يسعنا القعود عن هذه الوظيفة المباركة وإلاّ ضاع الدين واضمحل كيان الإسلام كما نبّأت به الآية الشريفة، ومن تخلف عن هذه المواجهة لم يبلغ الفتح، كما قال الإمام الحسين (عليه السلام) في رسالته، قال تعالى ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد : ٣٨].

القبس القرآني

٥٣

﴿قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين﴾[1]

[الملك : ٣٠]

من النعم الإلهية:

الماء من النعم الإلهية العظيمة التي يغفل عنها الإنسان لاعتياده لها وتوفرها حوله، فالماء قوام الوجود في هذه الدنيا وبه تقوم الحياة ولا يمكن للمخلوقات (بشراً و حيوانات ونباتات) أن تحيا إلاّ بالماء، قال تعالى (وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ) (الأنبياء/٣٠) وقال تعالى (وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِن مَّاء) (النور/٤٥).

وقد ذكر الله تعالى الماء في القرآن الكريم في عشرات المواضع ليذكّر الناس بهذه النعمة لعلهم يتعظون ويعودون إلى ربهم قال تعالى (أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاء الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ * لَوْ نَشَاء جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ) (الواقعة/٦٨-٧٠) (أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاء مَاء فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ) (النمل/٦٠) (وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاء مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) (العنكبوت/٦٣) (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاء إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً

(١) كلمة ألقيت في شهر محرم ١٤٣٥ الموافق شهر ١١/ ٢٠١٣.

تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ) (السجدة/٢٧).

تأثير الماء في الناس:

وتأثير الماء في حياة الإنسان واسع جداً فبه يتطهّرون ومنه يشربون وبه يهيئون طعامهم ويحمل أثقالهم إلى بلد لم يكونوا بالغيه إلاّ بشقّ الأنفس ويستخرجون منه لحماً طريّاً وحليّة يلبسونها، ويضفي جمالاً وسعادة على الحياة:

ثلاثة للناس ينفين الحزن الماء والخضراء والوجه الحسن

فلابد أن نستذكر عظيم نعمة الله تعالى عند تناول الماء أو استعماله ونتلذّذ بذكر الله وعظيم نعمته، في ثواب الأعمال عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (من تلذّذ بالماء في الدنيا لذّذه الله (تعالى) من أشربة الجنّة)[1].

التأويل المعنوي للماء:

ولا ينبغي أن نغفل عن التأويل المعنوي للماء في الآيات الكريمة والروايات الشريفة حيث يراد به العلم والمعرفة التي تُحيي قلب الإنسان وتُسعده في حياته المعنوية، ووجه المقاربة أنّ الماء قوام الحياة الطبيعية، والمعرفة قوام الحياة المعنوية فيتشابهان من جهة كونهما قوام الحياة في عالمهما المناسب لهما.

وكثيراً ما يعتمد القرآن الكريم أسلوب ضرب الأمثلة لتقريب الفكرة، والاحتجاج بالمثال للنقض على المنكرين والمشكّكين، كمن ينكر البعث يوم القيامة فيمثّل له بالأرض الميّتة التي نزل عليها الماء وإذا هي اهتزّت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج وهكذا، ومن ثمرات ضرب الأمثلة فتح الذهن أمام طلاب

(١) سفينة البحار: ١٤٣/٨.

الكمالات للتأمّل في المعارف الإلهية كقوله تعالى (وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا) (البقرة/١٦٤) فتأويلها أن لا ييأس المذنبون الذين جفّت أرض نفوسهم من حياة الإيمان والحبّ الإلهي من أن تشملهم الرحمة واللطف الإلهي فينزل عليهم ماء المعرفة فينبت فيها الإيمان والحب ويزدهر القلب.

وفي تفسير قوله تعالى (أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَّابِياً) (الرعد/١٧) قال علي بن إبراهيم (أنزل الحق من السماء فاحتملته القلوب بأهوائها، ذو اليقين على قدر يقينه، وذو الشك على قدر شكّه، فاحتمل الهوى باطلاً كثيراً وجفاءا، فالماء هو الحق، والأودية هي القلوب، والسيل هو الهواء، والزبد هو الباطل)[١].

وفي قوله تعالى (وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاء غَدَقاً) (الجن/١٦) ورد تفسير[٢] الطريقة بولاية أمير المؤمنين والمعصومين من بنيه (صلوات الله عليهم أجمعين) والماء بالإيمان والعلم الذي يتلقونه من الأئمة (عليهم السلام).

وكالآية محل البحث فإن ظاهرها الامتنان على العباد والاحتجاج عليهم وتذكيرهم بهذه النعمة العظيمة التي تعرف قيمتها فيما لو تصوّروا فقدانها بأن يصبح الماء غائراً في الأرض فلا يستطيعون تحصيله قال تعالى (أَوْ يُصْبِحَ

(١) المصدر: ٢٠٠/٥.

(٢) المصدر: ٤٨/١٠.

مَاؤُهَا غَوْراً فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً) (الكهف/٤١) فلو لم تكن في الأرض خاصية عدم النفاذ لما بقي الماء على سطحها لتتناولوه لأنه سيغور في أعماق الأرض، ولو لم تكن فيه خاصية النفاذ لبقي جميع الماء على سطحها وغرقت اليابسة كلها، أما تأويلها فقد وردت فيه الرواية عن علي بن جعفر عن أخيه موسى بن جعفر (عليهما السلام) قال: (قُلت: ما تأويل قول الله عز وجل (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْراً فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاء مَّعِينٍ)؟ فقال: إذا فقدتم إمامكم فلم تروه فماذا تصنعون) وفي رواية عن الإمام الرضا (عليه السلام) في قوله تعالى (فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاء مَّعِينٍ) قال (عليه السلام) (يعني بعلم الإمام)[1].

الماء والأحكام الصحية والاجتماعية:

ولارتباط الماء بتفاصيل الشؤون الحياتية للإنسان فقد ورد الكثير من الروايات الشريفة لبيان أحكامه وآدابه، وأول ما تبدأ كتب الفقه بأحكام المياه لاشتراط العبادات بالطهارة، وتناولت آداب شرب الماء الصحية والاجتماعية والمعنوية، كما تعرضت لأحكام استعمال الماء والتصرّف فيه باعتباره من المباحات العامة واشتراك الناس فيه على حد سواء.

وقد نظم المرحوم الفقيه الشيخ محمد علي الأعسم آداب شرب الماء في أرجوزته في الأطعمة والأشربة، ومما قال (قدس سره):

سيدُ كلِّ المائعات الماءُ ... ما عنه في جميعها غناءُ

أما ترى الوحيَ إلى النبي ... منهُ جعلنا كلّ شيء حيٍّ

(١) راجع الروايات ومصادرها في تفسير البرهان: ٩/ ٣٤٨- ٣٥٠.

ويكـــره الإكثـــار منـــه للـــنصِّ[1] وعبُّـــه أي شـــربـــه بلـــا مـــصِّ
يـــروى بـــه التوريـــث للكُبـــادِ بالضـــمِّ أعـــني وجـــعُ الأكـــبادِ
ومـــن ينحـــيّه ويشـــتهيه ويحمـــدُ الله تـــعالى فـــيه
ثـــلاث مـــرات فيـــروى أنّـــه يوجـــب للمـــرء دخـــول الجنّـــة[2]
وفـــي ابـــتداء هـــذه المـــرّات جميعـــها بســـمل لـــنص آتِ
وليجتنـــب موضـــع كســـر الآنيـــة وموضـــع العـــروة للكـــراهية
تشـــربه فـــي الليـــل قاعـــداً لـــما رووه واشـــرب فـــي النهـــار قائمـــا
وينـــدُب الشـــرب لســـؤر المـــؤمن وان أديـــر يُـــبتـــدأ بالأيمـــن

من أفضل الآداب ذكر الإمام الحسين عليه السلام:

ومن أفضل الآداب والسنن عند شرب الماء ذكر الإمام الحسين (عليه السلام) والسلام عليه وعلى الشهداء بين يديه، لأنّ ذكر الماء يلازم ذكر الإمام الحسين (عليه السلام)، فلا يكاد يُذكر الماء أو يُشرب أو يُلتذّ ببارده إلا ويستحضر الموالي ذكر الإمام الحسين (عليه السلام) لأنه حُرم منه حتى قُتل ظمآناً إلى جنب الفرات، لقد حرموا الإمام الحسين (عليه السلام) من الماء وهو الإمام المعصوم حجة الله في أرضه الذي خلق الكون لأجلهم،مضافاً إلى أنّ له (عليه السلام) أكثر من حق خاص

(١) في المحاسن عن الصادق (عليه السلام) قال: (إياكم والإكثار من الماء فإنّه مادة لكل داء) وعن النبي (صلى الله عليه وآله) إذا أكل الدسم أقلّ من شرب الماء ويقول: هو أمرأ لطعامي وفي طب الرضا (عليه السلام) (من أراد أن لا تؤذيه معدته فلا يشرب بين طعامه ماءاً حتى يفرغ).

(٢) روي (من شرب الماء فنحاه وهو يشتهيه فحمد الله يفعل ذلك ثلاثاً وجبت له الجنة) (سفينة البحار: ٨:١٤٣).

وعام فيه[١]، فله حق خاص في نهر الفرات باعتباره مهر أمّه الزهراء (عليها السلام)، وله حق خاص على أهل الكوفة لأنّه سقاهم في صفّين وسقى طليعة الجيش بقيادة الحر في القادسية أثناء الطريق وله حق عام لشموله مع كل الناس باعتبار ما ورد في النبوي الشريف (ثلاثة أشياء الناس فيها شرع سواء الماء والكلأ والنار) وله حق عام يشترك به مع كل ذي روح حتى الحيوان لوجوب حفظ حياته لذا لو دار استعمال الماء بين الوضوء وحفظ حياة حيوان محترم وجب صرفه في الثاني.

يقول الشيخ الشوشتري، مقابل هذه الحقوق الأربعة التي ضيّعوها جعل الله تعالى له مياهاً أربعة، ماء الكوثر فقد كان شهداء كربلاء يسقون منها قبل خروجهم من الدنيا كما أخبر علي الأكبر، وماء الدموع فهو (عليه السلام) قتيل العبرة ما ذكره مؤمن إلاّ استعبر وماء الحيوان في الجنان يمزج بدموع الباكين ليزيد من عذوبته وفيه رواية معتبرة، وكل ماء بارد يشربه محبّوه والموالون له فإن للحسين حق ذكره عند شربه.

التأسيس لذكر الإمام الحسين (عليه السلام):

وقد أسّس الإمام السجاد (عليه السلام) هذه السنة الشريفة وحادثته في سوق القصّابين معروفة، و روى داود الرقي قال (كنت عند الصادق (عليه السلام) فشرب ماء واغرورقت عيناه بالدموع فقال: ما أنغص ذكر الحسين (عليه السلام) للعيش إني ما

(١) أشار إلى هذا المعنى المرحوم الشيخ جعفر الشوشتري في كتاب الخصائص الحسينية ١١٧ الموضوع الرابع.

شربتُ ماءاً بارداً إلاّ وذكرت الحسين (عليه السلام))[1]، أي أنّ ذكر مصيبة الإمام الحسين (عليه السلام) نغّص عليّ حياتي وأنا دائم الذكر لها.

إذا شربتم عذب ماء فاذكروني:

وقد أحبّ الأئمة (عليهم السلام) من شيعتهم هذا التذكر ووعدوهم بالأجر العظيم فروي أن (من شرب الماء فذكر الحسين (عليه السلام) ولعن قاتله كتب له مائة ألف حسنة وحُطّ عنه مائة ألف سيئة ورفع له مائة ألف درجة وكأنما أعتق مائة ألف نسمة)[2] وروي عن الصادق (عليه السلام) مثل ذلك بزيادة (وحشره الله يوم القيامة ثلج الفؤاد).

وإلى هذا المعنى أشار المرحوم الأعسم:

والماء إن تفرغ من الشراب له ... صلِّ على الحسين والعن قاتله
تؤجر بآلافٍ عدادها مائة ... من عتق مملوك وحط سيئة
ودُرُج وحسنات ترفعُ ... فهي إذا مئاتُ ألف أربعُ

وقد نقل عن الإمام الحسين (عليه السلام) قوله بلسان الحال: شيعتي ما إن شربتم عذب ماء فاذكروني[3].

فضل الحسين عليه السلام على المسلمين:

أداءاً لحقّه (عليه السلام) على جميع البشرية بل المخلوقات وليس على شيعته فقط

(١) أمالي الصدوق: ١٢٢، كامل الزيارات:١٠٦ وأورده عنهما في البحار: ٣٠٣/٤٤.

(٢) سفينة للبحار: ١٤٤/٨.

(٣) الخصائص الحسينية: ١٨٣ عن مصباح الكفعمي: ٧٤١.

واستذكاراً لموقفه العظيم وطلباً لما تقدم ذكره من الأجر الكبير، والمهم أن نلتفت إلى التأويل[1] المعنوي لهذا التذكر بأن نتذكر الحسين ونصلّي ونسلّم عليه كلما استفدنا من علوم أهل البيت (عليهم السلام) ومعارفهم وكلما نفحتنا الألطاف الإلهية وكلما عمر زمان كشهر رمضان أو شهري محرم وصفر، أو مكانٌ كمسجد أو حسينية بذكر الله تعالى، لأن هذا الماء المعين العذب سقينا به ببركة أبي عبد الله (عليه السلام)، ولولا تضحياته لا ندرس الدين من ذلك الزمان وعاد الناس إلى أشنع من جاهليتهم الأولى، وشعر يزيد يشهد بذلك:

لعبت هاشم بالملك فلا ... خبر جاء ولا وحي نزل
لستُ من خندق إن لم أنتقم ... من بني أحمد ما كان فعل
قد قتلنا القرم من ساداتهم ... وعدلناه ببدر فاعتدل

وهذا هو تأويل الآية التي جعلناها عنوان البحث فإن الدين لو اندرس بفعل آل أمية وأمثالهم من الطواغيت ولم ينهض الإمام الحسين (عليه السلام) فمن الذي كان سيأتينا بهذه العلوم والمعارف والأحكام الإلهية.

تأويل الماء بالإمام المهدي عليه السلام:

وجاء تأويلها أيضاً بالإمامة وولاية أهل البيت عليهم السلام وعليه حمل الحديث المشهور (ما عرض الماء على عاقل فأبى) أي ولاية أهل البيت عليهم السلام فإنها لا يرفضها عاقل، وورد تفسير الآية في بعض الروايات بغَيبة الإمام المهدي (عليه السلام)

(١) التفت إلى هذا المعنى المرحوم السيد عبد الحسين دستغيب في كتاب (سيد الشهداء عقائد ومفاهيم:٣١).

عن الإمام الباقر (عليه السلام) قال (نزلت في الإمام القائم (عليه السلام) يقول: إن أصبح إمامكم غائباً عنكم لا تدرون أين هو؟ فمن يأتيكم بإمام ظاهر يأتيكم بأخبار السماوات والأرض، وحلال الله وحرامه؟ ثم قال: والله ما جاء تأويل هذه الآية ولابد أن يجيء تأويلها).

وهكذا كل مصادر الهداية والصلاح إن فقدتموها فمن يأتيكم بها إلاّ الله تبارك وتعالى. فاشكروا الله تعالى ليديم بركتها عليكم.

القبس القرآني

٥٤

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾[١]

[التوبة: ١١٩]

لكي نفهم الآية الكريمة، ونعرض انفسنا عليها ونتحقق من نسبة التزام الامة بها، مع ما يتضمن ذلك من دروس جليلة نلفت النظر الى عدة امور :

١- اول ما يلاحظ في الآية استعمال اداة النداء (يَا أَيُّهَا) وجعل المنادى هم المتصفون بصفة الايمان مع ان الجميع مخاطبون[٢] بهذا الامر، وذلك لعدة نكات:

(منها) تشريف المؤمنين بتوجيه الخطاب اليهم دون غيرهم من المأمورين.

(ومنها) لألفات عناية المؤمنين واثارة انتباههم الى ما يكمل به ايمانهم.

(ومنها) اشعارهم بمسؤوليتهم الخاصة كمؤمنين عن هذا الذي دعوا اليه أي انكم بصفتكم مؤمنين يجب ان تكونوا كذلك، ولو كانت الجملة بلا اداة نداء ومنادى واقتصر على بيان الامر المطلوب (اتَّقُواْ اللّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ) لما حصلت هذه العناية ولا الالتفات الى المسؤولية او كانت بدرجة اقل، كما انك

---

(١) كلمة القيت يوم الجمعة ١٦/محرم/١٣٤٧ الموافق ٢٠١٥/١٠/٣٠.

(٢) جميع الناس مخاطبون حتى غير المسلمين لانهم مكلّفون بالفروع –أي الأحكام الشرعية الواجبة والمحرمة- كتكليفهم بالأصول –أي الاعتقاد بالتوحيد والنبوة والمعاد، وورد التصريح بالعموم لمثل هذا الخطاب في ايات مماثلة كقوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ) (البقرة١٨٣).

حين تخاطب الشباب بتوجيه ما تبتدئ كلامك بـ(يا أيها الشباب) لالفات نظرهم الى ان هذا الخطاب موجه لهم بما هم شباب، او تقول ايها العراقيون عند طرح قضية وطنية تهمهم، او يا طلبة الحوزة العلمية.

والخلاصة ان الآية تفيد انكم اذا كنتم تريدون ان تكونوا مؤمنين حقا فاتقوا الله وكونوا مع الصادقين ولها دلالة بالاتجاه المعاكس أي انكم اذا اتقيتم الله ووجدتم انفسكم في صف الصادقين فأنكم مؤمنون حقا، وإلا ينطبق عليكم قوله تعالى (قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ) (الحجرات١٤)، فالآية هنا تنفي بعض مراتب الايمان الصادقة حقيقة، وهناك آيات اخرى تثبته بلحاظ المراتب الأدنى كقوله تعالى: (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ) (يوسف١٠٦).

وبتعبير اخر: ان حقيقة الايمان التي تكون سبب فوز الانسان وسعادته لها ثلاثة ابعاد او انها لا تكتمل الا باجتماع ثلاثة عناصر:

أ- الايمان بالله وبأنبيائه ورسالاته واليوم الاخر والاوصياء وسائر العقائد الحقّة ، وهذا بُعدٌ اعتقادي قلبي.

ب- تقوى الله والالتزام بما يريده الله تعالى وتجنب ما يسخطه تعالى وهذا بُعد عملي سلوكي.

ت-ان تكون مع الصادقين بالمعنى الذي سنذكره ان شاء الله تعالى وهذا بعد اجتماعي في العلاقة مع القيادة.

٢- ان الامر بالكون مع الصادقين مطلق ولم يحدد بناحية او مورد معين،

هذا له دلالات عديدة على مستوى الالزام والاثبات وعلى مستوى المنع والنفي.

اما على مستوى الاثبات فان الآمر بالكون مع الصادقين يعني الاعتقاد بهم والاخذ عنهم واتباعهم والتسليم لهم والسير على نهجهم ويعني ايضا حمل رسالتهم والتحرك بها في كل اتجاه ونصرتهم ومعونتهم في الشدة والرخاء والعافية والبلاء، ويعني ايضا الرجوع اليهم في كل تفاصيل الحياة من غير فرق بين العقيدة والشريعة او السلوك، ولا بين احكام العبادات والمعاملات وسواء كانت في الاحوال الشخصية او السياسية او الاقتصاد والاجتماع وغيره.

واما على مستوى النفي فان الكون مع الصادقين يعني عدم الانسياق وراء الشهوات والاهواء وعدم اتباع أي داعٍ لم يأمر به الصادقون، ويعني رفض الشعور بالإحباط واليأس التوجه نحو العزلة والانزواء والانسحاب من العمل الرسالي المثمر كردّ فعل لحصول بعض الحالات، ويعني الكون مع الصادقين رفض الوقوف على الحياد والكون بمسافة واحدة من الجميع، وهذا كله يحتاج الى جهد وجهاد كبيرين وثبات على الصراط وصبر ومصابرة ومرابطة ولذا سبقه الامر بالتقوى لانها تعين على ذلك كله.

٣- حينما يوصف الخبر بالصدق فهذا يعني مطابقته للواقع، كما لو اخبرت عن زيد انه قائم وهو قائم فعلا فان الخبر صادق، اما وصف الانسان بانه صادق فهذا يعني مطابقة ظاهره لباطنه واقواله لأفعاله وموافقتها جميعاً للحق، لاحظ قوله تعالى (إِذَا جَاءكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ) (المنافقون-١) فكلمتهم حق وصدق لكنهم لم

يكونوا صادقين لان باطنهم لم يكن كظاهرهم وفعلهم ليس كقولهم، لذا ثبت الله تعالى صدق الكلمة ووصفهم بالكاذبين، ولو وصفوا بالكاذبين من دون تثبيت هذه الحقيقة لكان وصفهم بالكذب يشمل ما شهدوا به وهو خلاف الواقع.

والمؤمنون ليسوا كلهم صادقين في ايمانهم، ولهم درجات متفاوته في ذلك لذا مدح الله تعالى قوما من المؤمنين لانهم صدقوا وثبتوا على الصدق قال تعالى: (مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ) (الأحزاب٢٣).

والمستفاد من القران الكريم ان انطباق عنوان الصادقين له درجات متفاوتة بحسب درجة كمال عناصره من الايمان بالله ورسله وكتبه والجهاد في سبيل الله بالأموال والانفس والصبر في المواطن وفعل المعروف وتجنب المنكر ونحو ذلك كقوله تعالى (لِلْفُقَرَاء الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ) (الحشر-٨).

وقال تعالى (لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ) (البقرة-١٧٧).

ووصف مرتبة اعلى من الصادقين بقوله تعالى (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ) (الحجرات-١٥).

هذا ولكن العنوان اذا اطلق فانه ينطبق على المعصومين (عليهم السلام) لانهم من ينطبق عليهم التعريف اعلاه بقول مطلق أي على الدوام من دون استثناء او اختراق، وتشهد نفس الآية على أن المراد بالصادقين المعصومون (عليهم السلام) بدلالة اكثر من قرينة :

أ- لأنها أمرت بالكون معهم مطلقاً ولا يتعلق مثل هذا الأمر إلا بالمعصوم، لأن غير المعصوم معرض للخطأ فكيف يأمرنا الله تعالى بالكون معه مطلقاً.

ب-ان الآية امرت اولا بالتقوى ثم بالكون مع الصادقين، فلو كان المراد بالصادقين ما هو اوسع من المعصومين لكان الامر بالكون من الصادقين وليس معهم، او قل ان امر المتقين بان يكونوا مع الصادقين يكشف عن سمو مرتبة الصادقين على المتقين، ولا يصّح ذلك الا في المعصومين (عليهم السلام).

وقد أذعن جملة من أعلام السنة لهذه الحقيقة لكن بعضهم أوّلها بما لا وجه[1] له لذا وردت روايات كثيرة من طرق الفريقين تبين ان المراد بالصادقين هم امير المؤمنين (عليه السلام) وأولاده المعصومون(عليهم السلام)، ففي الكافي وبصائر الدرجات للصفار بسندهما عن بريد بن معاوية العجلي قال: (سألت ابا عبد الله (عليه السلام) عن قول الله عز وجل (اتَّقُواْ اللّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ) قال : ايانا عنى).

(١) قال الفخر الراي في تفسيره ان المعصوم هو جميع الامة لا انه فرد واحد فتكون الاية دليلا على حجية اجماع المؤمنين وعدم خطا مجموع الامة (التفسير الكبير: ٢٢٠/١٦) وردَّه واضح لان المقصود من الصادقين لو كان مجموع الامة فان الامة مكونة من الناس المخاطبين بالكون مع الصادقين وستكون النتيجة وحدة التابع والمتبوع. مضافا الى ما ذكرناه في هذه النقطة من سمو مرتبة الصادقين.

وفي الكافي ايضاً بسنده عن ابن ابي نصر عن ابي الحسن الرضا(عليه السلام) قال (سألته عن قول الله عز وجل – قال : الصادقون هم الأئمة الصديقون بطاعته) وفي كتاب سليم بن قيس – في حديث المناشدة- قال أمير المؤمنين (عليه السلام) (فأنشدتكم الله جل أسمه، أتعلمون ان الله انزل (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ) فقال سلمان : يا رسول الله : أعامة هي أم خاصة؟ فقال : أما المؤمنون فعامة لان جماعة المؤمنين أُمروا بذلك، واما الصادقون فخاصة في علي والاوصياء من بعده الى يوم القيامة)؟ قالوا اللهم نعم).

وروى في المناقب عن بعض التفاسير[1] العامة بسنده عن ابن عمر قال (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ) قال : أمر الله تعالى الصحابة أن يخافوا الله، ثم قال (وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ) يعني مع محمد وأهل بيته).

وعن مصدر آخر لهم في قوله تعالى قال : هو علي بن ابي طالب خاصة وعن مصدر آخر قال (محمد وآله)[2].

٤- ان الآية مطلقة من حيث الزمان فهي تأمر المؤمنين في جميع الأزمنة الى نهاية الدنيا أن يكونوا مع الصادقين الذين هم المعصومون (عليهم السلام) وهذا يعني لزوم وجود المعصوم في كل زمان، وهذا دليل على صحة عقيدة الشيعة الامامية في الأئمة الاثني عشر وبقاء قائمهم الى آخر الزمان، وبدون هذه العقيدة سيبقى

(١) وتوجد مصادر اخرى من كتب العامة في كون المراد من الصادقين خصوص اهل البيت (عليهم السلام) ذكرها في تفسير الفرقان: ٢٢١/١٣.

(٢) راجع مصادرها في تفسير البرهان : ٣٤٥/٤.

الزمان بلا صادق فكيف يمتثل المؤمنون لواجب الكون مع الصادقين.

وقد اعترف بهذه الحقيقة بعض أعلام السنة كالفخر الرازي قال في تفسيره (انه تعالى أمر المؤمنين بالكون مع الصادقين ومتى وجب الكون مع الصادقين فلابد من وجود الصادقين في كل وقت).

٥- إن ورود الامر بالكون مع الصادقين عقيب الامر بالتقوى التي هي خير الزاد ليوم المعاد (وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى) (البقرة١٩٧) ولا ينجو الانسان الا بالتقوى (﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا) (الشمس ١٠-١١) (وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى النازعات٤١-٤٢) فالتعاقب بين هذين الامرين لأجل هداية المؤمنين والمتقين الى أن طريق التقوى شائك وصعب وكثير المنزلقات والابتلاءات والمصاعب ولا يمكن سلوكه بنجاح الا بالكون مع الصادقين واتباعهم والتمسك بهم.

كما انه يلفت نظر المتقين الى ان المتوقع منكم كمتقين ان تكونوا مع الصادقين فلا تقوى من دون الكون معهم، كما ان الكون معهم بالمعنى الدقيق الذي ذكرناه يكشف عن انك من المتقين.

أغلب الأمة لم تكن من الصادقين:

وبعد ان اتضحت هذه الأمور يمكننا القول بأسف ان المخاطبين بالآية لم يعملوا بها ولم يكونوا مع الصادقين بل اصطّف قسم مع اعدائهم وتقاعس قسم اخر وتركوهم وحدهم منذ رحيل رسول الله (صلى الله عليه وآله)، ونقرأ هذه الحقيقة في دعاء الندبة (لَمْ يُمْتَثَلْ اَمْرُ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله فِي الْهادينَ بَعْدَ الْهادينَ، وَالأُمَّةُ مُصِرَّةٌ عَلى

مَقْتِهِ مُجْتَمِعَةٌ عَلى قَطيعَةِ رَحِمِهِ وَاِقْصاءِ وُلْدِهِ اِلّا الْقَليلَ مِمَّنْ وَفى لِرِعايَةِ الْحَقِّ فيهِمْ، فَقُتِلَ مَنْ قُتِلَ، وَسُبِيَ مَنْ سُبِيَ وَاُقْصِيَ مَنْ اُقْصِيَ)[١].

لذا تكررت شكوى المعصومين (عليهم السلام) من قلة العدد وخذلان الناصر فمن كلمة السيدة الزهراء (عليها السلام) مع أمير المؤمنين (عليه السلام) لما رجعت من المسجد مهضومة مظلومة: (حتى حبسني قيلة نصرها والمهاجرة وصلها، وغضّت الجماعة دوني طرفها فلا دافع ولا مانع، خرجت كاظمة وعدت راغمة، شكواي الى ربي وعدواي الى ربي، اللهم انك أشدّ منهم قوة وحولا، وأشد بأساً وتنكيلا)[٢].

وهكذا كلمات أمير المؤمنين المملوءة بالألم والاسى كقوله في الخطبة الشقشقية (وَ طَفِقْتُ أَرْتَئِى بَيْنَ أَنْ أَصُولَ بِيَد جَذّاءَ –أي مقطوعة لعدم وجود الناصر– أَوْ أَصْبِرَ عَلى طَخْيَة عَمْياءَ –وهي الظلمة– فَرَأَيْتُ أَنَّ الصَّبْرَ عَلى هاتا أَحْجى ، فَصَبَرْتُ وَ فِي الْعَيْن قَذىً وَ فِي الْحَلْقِ شَجًا –وهو ما اعترض في الحلق من عظم ونحوه–)[٣].

وقوله (عليه السلام) متظلما (فنظرت فاذا ليس لي معين الا اهل بيتي، فظننت –أي بخلت– بهم عن الموت، واغضيت على القذى وشربت على الشجا، وصبرت على اخذ الكظم وعلى امرَّ من العلقم وآلم للقلب من وخز الشفار)[٤].

---

(١) مفاتيح الجنان : ٦٠٨.

(٢) الاحتجاج : ١٣٧/١.

(٣) نهج البلاغة: ٤٨ الخطبة ٣.

(٤) نهج البلاغة: ٦٨ الخطبة ٢٦، ص ٣٣٦ الخطبة ٢١٧.

ومثلها كلمات الامامين الحسن والحسين والأئمة الطاهرين (صلوات الله عليهم أجمعين) التي تعبّر عن الوحدة وخلان الناصر ، وفي ذلك روى عنبسة قال سمعت ابا عبد اللّه (عليه السلام) يقول : اشكو الى اللّه وحدتي وتقلقلي من اهل المدينة حتى تقدموا وأراكم وأُسرُّ بكم، فليت[1] هذا الطاغية اذن لي فاتخذت قصراً فسكنته واسكنتكم معي، واضمن له ان لا يجيء من ناحيتنا مكروه ابداً)[2].

فتصوروا الى أي درجة وحدة الامام ووحشته وغربته بين اهل المدينة بحيث ان الامام (عليه السلام) كان ينتظر قدوم وفد من مواليه من الكوفة او خراسان او أي مدينة اخرى ليؤنسوا وحشته ويرفعوا غربته ووحدته.

وفي ختام الحديث يمكن تلخيص عدة دروس من الآية :

١- لا يكتمل الايمان الا بالتقوى واتباع المعصومين (عليهم السلام).

٢- لا حياد ولا وقوف على مسافة واحدة من الجميع بل يجب ان نكون مع الصادقين عقيدة وسلوكا ونصرة، ويلزم من هذا معرفة الصادقين اولا.

٣- ان في الآية دلالة على وجود الامام صاحب العصر والزمان وعصمته.

---

(١) هذا موقف سياسي مهم على القادة الاسلاميين ان يستفيدوا منه لرسم علاقتهم مع السلطات الطاغوتية ، وقد فصلناه في كتاب (فقه المشاركة في السلطة).

(٢) بحار الانوار :١٨٥/٤٧ ح٣١ عن رجال الكشي : ٣٦١ رقم ٦٧٧.

القبس القرآني

٥٥

تطبيق للآية: (كُونوا مَع الصَّادِقِين) [التوبة : ١١٩]
كن في الصف الذي فيه علي بن أبي طالب (عليه السلام)[١]

للنبي (صلى الله عليه وآله) أحاديث كثيرة في فضل أمير المؤمنين (عليه السلام) ومنزلته وخصاله الكريمة، وفي وجوب اتباعه والأخذ منه[٢]، ومن تلك التوجيهات النبوية الشريفة: أنّه إذا افترقت الأمة واختلفت وتعدّدت فيها الاصطفافات والتخندقات والتيارات والاتجاهات فكونوا في الصف الذي فيه علي بن أبي طالب (عليه السلام) بلا نقاش ولا تأمّل، ولا تبحثوا عن الدليل والحجة فإنّ نفس وجود علي بن أبي طالب (عليه السلام) دليل على كونك في الموضع الصحيح الذي فيه رضا الله تعالى ورسوله (صلى الله عليه وآله) لقوله (صلى الله عليه وآله): (عليٌّ مع الحق والحق مع علي، يدور معه حيث دار)[٣]، وعنه (صلى الله عليه وآله) قال: (اذا اختلفتم في شيء فكونوا مع علي بن أبي طالب)[٤].

وقال (صلى الله عليه وآله) مخاطباً عمار بن ياسر (يا عمار تقتلك الفئة الباغية، وانت إذ

---

(١) تقرير لحديث سماحة المرجع اليعقوبي (دام ظله) يوم الأحد ١١ رجب ١٤٣٥ المصادف ٢٠١٤/٥/١١ مع مواكب الشعائر الزينبية قبل انطلاقهم مشياً على الأقدام إلى حرم الإمام الحسين (عليه السلام) لإحياء ذكرى وفاة العقيلة زينب (عليها السلام) وزيارة النصف من رجب.

(٢) راجع موسوعة الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) في عشر مجلدات بإشراف الشيخ الريشهري.

(٣) الفصول المختارة: ١٣٥، ٩٧.

(٤) المناقب لابن شهراشوب: ٣٠/٢.

ذاك مع الحق والحق معك، يا عمار بن ياسر: إن رأيتَ علياً قد سلك وادياً وسلك الناس وادياً غيره فاسلك مع علي (عليه السلام)، فإنّه لن يدليك في ردى ولن يخرج من هدى)[١].

وعنه (صلى الله عليه وآله) قال: (يابن عباس: سوف يأخذ الناس يميناً وشمالاً، فإذا كان كذلك فاتبع علياً وحزبه فإنّه مع الحق والحقّ معه، ولا يفترقان حتى يردا عليّ الحوض)[٢].

فالنبي (صلى الله عليه وآله) يحذر الأمة من اتباع الوسائل غير الدقيقة لمعرفة الحق كالانخداع بالعناوين الكبيرة والرموز التي صنعت لها هالة اجتماعية كما حصل في معركة الجمل حين انخدع كثيرون بفلانٍ وفلانٍ وفلانة بحجة قربهم من رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وجاء تعليق أمير المؤمنين (عليه السلام) لإيقاظ هؤلاء الغافلين حيث قال له أحدهم: (أتراني أظن أصحاب الجمل كانوا على ضلالة) فقال (عليه السلام): (يا حارث انك نظرت تحتك ولم تنظر فوقك فحرت، إنّك لم تعرف الحق فتعرف من أتاه، ولم تعرف الباطل فتعرف من أتاه)[٣].

كان أبان بن تغلب من اجلاّء أصحاب الأئمة السجاد والباقر والصادق (صلوات الله عليهم أجمعين) وكان الأئمة يعطونه مكانة خاصة، كان الإمام الباقر (عليه السلام) يقول له: (يا أبان اجلس في مسجد المدينة وافت الناس، فإنّي أحبّ أن

---

(١) تاريخ بغداد: ١٨٧/١٣ الرقم ٧١٦٥.

(٢) كفاية الأثر: ١٨.

(٣) نهج البلاغة: قصار الكلمات رقم:٢٦٢.

يُرى في شيعتي مثلك)[١] ، روى بعضهم قال: (كنّا في مجلس أبان بن تغلب فجاءه شاب فقال: يا أبا سعيد كم شهدَ مع علي بن أبي طالب (عليه السلام) من أصحاب النبي (صلى الله عليه وآله) قال: فقال له أبان: كأنك تريد أن تعرف فضل علي (عليه السلام) بمن تبعه من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: فقال الرجل: هو ذاك، فقال: والله ما عرفنا فضلهم إلاّ باتباعهم علياً)[٢] فنبهه إلى هذا المقياس المقلوب في معرفة الحق ولم يكن مراد السائل لينطلي على مثل أبان فإنّ الحق حق ولا يضره قلة أتباعه، أو كثرة خصومه وعناوينهم الاجتماعية.

وقسم آخر من الناس يجعل بعض الاعتبارات مقياساً لكون الحق معه كجريان الأمور على ما يريد (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ) (الحج/١١) أو يجعل الانتصار في المعركة دليلاً على كونه محقّاً فإذا خسر الجولة شكّك وتردّد وتمرّد وكان بعض من يُقاتل مع أمير المؤمنين (عليه السلام) في صفين على هذا النحو، فكان عمار بن ياسر يقاتل وهو يقول: (قاتلت تحت هذه الراية مع رسول الله (صلى الله عليه وآله) وأهل بيته (عليهم السلام) ثلاثاً، وهذه الرابعة، والله لو ضربونا حتى يبلغ بنا السعفات من هجر –في جنوب الجزيرة العربية– لعلمنا أنّا مع الحق وأنهم على الباطل)[٣].

---

(١) رجال النجاشي: ١٠.

(٢) معجم رجال الحديث: ١/١٣٣.

(٣) الخصال: باب الخمسة، في بعث النبي (صلى الله عليه وآله) بخمسة أسياف، ح١٨.

فهذا نموذج للراسخين في إيمانهم والواثقين بقيادتهم الذين لا تزلزلهم الأراجيف والارهاصات وقد أثنى عليهم أمير المؤمنين (عليه السلام) بعد استشهادهم في صفين فيقف على المنبر ويقبض على شيبته الكريمة وهو يبكي ويقول (أين اخواني الذين ركبوا الطريق ومضوا على الحق؟ أين عمار أين ابن التيهان وأين ذو الشهادتين، وأين نظراؤهم من اخوانهم الذين تعاقدوا على المنية وابرد برؤوسهم إلى الفجرة، أوّه على اخواني الذين تلوا القرآن فأحكموه وتدبروا الفرض فأقاموه، أحيوا السنة وأماتوا البدعة دعوا للجهاد فأجابوا ووثقوا بالقائد فاتبعوه)[1].

وهذا المقياس الصحيح للحق – وهو الكون في صف علي بن أبي طالب (عليه السلام)- جاري في كل زمان إذا تعددت الانشقاقات والاصطفافات والمواقف والجهات فإنه إذا كان مخلصاً وطالباً للحقيقة فإنّ الله تعالى سيبصره بالصف الذي يكون فيه علي بن أبي طالب (عليه السلام)، قال (عليه السلام) (من كان مقصده الحق أدركه ولو كان كثير اللبس)[2].

قال أبان وهو يعرّف اتباع الحق في كل جيل الذين يقفون في الصف الذي فيه علي بن أبي طالب (عليه السلام) (يا أبا البلاد: تدري ما الشيعة؟ الشيعة الذين اذا اختلف الناس عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) أخذوا بقول علي (عليه السلام)، وإذا اختلف الناس عن علي (عليه السلام) أخذوا بقول جعفر بن محمد).

وفي هذا جواب على من يريد أن يخلط الأوراق ويلبس على الناس ويقول

(١) نهج البلاغة: خطبة ١٨٢.

(٢) غرر الحكم/٩٠٢٤.

لا فرق بين السنة والشيعة فكلاهما ينتهي سند أحاديثه إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله)، والجواب أنّ الفرق في أن تعرف عمّن تأخذ اذا اختلف الناس، فإذا اختلف الناس بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله) أخذوا بقول أمير المؤمنين (عليه السلام) وإذا اختلف الناس بعد الحسين (عليه السلام) أخذوا بقول السجاد (عليه السلام) واذا اختلفوا بعد الباقر (عليه السلام) أخذوا بقول الصادق (عليه السلام) وبذلك تُعزل الفرق الكثيرة التي انشقت في كل مفترقات الزمان ومراحل التأريخ.

فلنطبق هذا الشعار (كن في الصف الذي فيه علي بن أبي طالب (عليه السلام)) في كل حياتنا ونجعله البوصلة التي تحدد مساراتنا، وسوف يهدينا الله تعالى إلى الموقف الصحيح، مثلاً عندما أقام السيد الشهيد الصدر الثاني (قدس سره) صلاة الجمعة وافترق الناس، منهم من التحق به وشهد هذه الشعيرة المباركة واستضاء بنورها، ومنهم من عارضها وخذل عنها ووصفها بما يشينها كالفتنة والبدعة وحينئذ يسأل المتردد نفسه: أترى لو كان عليٌ (عليه السلام) موجوداً فأين يكون صفّه لأكون فيه؟ وستجد الجواب حاضراً بلا تردد أنه لا يمكن أن يكون في صفّ المعادين لإقامة هذه الفريضة المباركة التي وردت مئات الروايات في فضلها ووجوب اقامتها والحضور فيها وبركاتها على الدين والأمة.

وأنقل لكم هذه الحادثة، فعندما أقام السيد الشهيد الصدر (قدس سره) صلاة الجمعة وعيّن المساجد التي تُقام فيها، كان أحدها من المساجد المهمة التي فيها حضور لافت كمّاً وكيفاً وفي منطقة حسّاسة من محافظة مهمة، يروي إمام المسجد الراتب وهو من أسرة دينية معروفة ويتبع المرجعية الأخرى، أنّ سلطات

الأمن علمت بالقرار فأبلغته رفضها لإقامة الجمعة في هذا المكان، فوسّطني لإقناع السيد الشهيد (قُدِّسَ سِرُّهُ) بتغيير المكان ولم ينجح، وفي صباح يوم الجمعة طلب منه مدير الأمن الحضور في المسجد لإعطاء شرعية لتصرفاتهم وحضر المدير وضباطه وجلاوزته، وكان الشباب الرساليون والمؤمنون المضحون يتقاطرون على المسجد وبأيديهم المصاحف وسجادات الصلاة ليفرشوها ويتلون القرآن انتظاراً لوقت الصلاة، ويزداد العدد كل ما مضى الوقت ومدير الأمن يتصل بالقيادة ويبلغها بالحاجة الى مزيد من قوات الأمن لأن الموقف سيخرج عن السيطرة وهكذا مر الوقت على هذا الإمام وهو يحدث نفسه: يا لسوء عاقبتي بعد العمر الطويل في إمامة الصلاة والخطابة والعمل الديني أقف في صف الذئاب المفترسة من أزلام صدام في مواجهة هذه الجموع المؤمنة الصالحة، وقد رحم الله تعالى تأنيب ضميره بهذا المقدار وانفضّ الجمعان بلا مواجهة ونُقلت الصلاة إلى موضع آخر، ومحل الشاهد أنه ليس صعباً أن تعرف الصف الذي فيه علي بن أبي طالب (عليه السلام) لتكون فيه.

والشاهد الآخر عندما قُدّم القانون الجعفري إلى الحكومة لمناقشته وعرضه على البرلمان، حصل اصطفافان، فريق يسعى لإقامة شريعة الله تعالى في الأرض ويحمي الناس من الوقوع في المحرمات ويدلهم على الهدى والصلاح، وفريق رفع شعار اجهاض القانون الجعفري ضمّ دعاة الانحلال الأخلاقي والمعادين للدين مدعومين من قبل قوى الكفر العالمي وهذا ليس غريباً والمواجهة معهم طبيعية، لكن الغريب أن يكون بعض من يسمّى بمراجع دين ومعمّمين ينتمون إلى

الحوزة العلمية هم أوّل من أوقد نار الاعتراض وأجّجها وشجع اولئك على رفع أصواتهم بالاعتراض، فعلى هؤلاء أن يراجعوا أنفسهم ويمتحنوها بأنّ علي بن أبي طالب (عليه السلام) في أيّ صف؟ أليس في صف قانون ولده جعفر الصادق (عليه السلام) الذين هو قانونه وهل رسالة علي (عليه السلام) غير رسالة الله تعالى ورسالة النبي الكريم (صلى الله عليه وآله) (أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ) (الشورى/١٣) (الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ) (الحج/٤١).

وهكذا تستمر المواقف التي تختلف فيها الأمة، فعندما وجّهت النساء المؤمنات العفيفات بأن لا يخرجن لزيارة الأربعين من المدن البعيدة كالبصرة والناصرية والعمارة إلى كربلاء مشياً ويقطعن الصحارى والقفار ويقضين أياماً بلا ترتيب للأوضاع التي تؤمن مسيرتهن ويحصل ما يحصل مما لا يرضى به الله ورسوله وأيّدها الواعون الغيورون والتزمت بها غالب النساء لأن التوجيه عبّر عمّا كان يتلجلج في صدور المؤمنين إلاّ أنهم يتخوفون من اعلانه لاتهامهم بمعادات الشعائر الحسينية، وهنا رفع المتاجرون بالدين عقيرتهم ضد هذا التوجيه ومارسوا أنواع التسقيط والتشويه والافتراء وخلط الأمور لإثارة الجهلة والبسطاء من عوام الناس وتحريضهم على لعن من يريد الاصلاح لثنيهم عن عزيمتهم مستخدمين هذا الارهاب الفكري والاجتماعي.

وهنا يأتي دور البوصلة لتوجه المسار الصحيح، فإنّ علياً (عليه السلام) لو كان موجوداً فإنه لا يرسل ابنته العقيلة زينب لتسير وحدها في الصحراء لا يعرف عند

من تبيت وماذا يجري لها بل إنّ هؤلاء المعترضين أنفسهم يروون أنه (عليها السلام) كان إذا أرادت العقيلة زينب زيارة جدها رسول الله (صلى الله عليه وآله) وأمها الزهراء (عليها السلام) خرج أبوها أمامها وأخواها الحسنان حولها (وبيته (عليها السلام) ملاصق للمسجد ولا يقطعون مسافة) وأطفأ قناديل المسجد وأخرج من فيه لئلاّ يرى أحدٌ شخصها، فلماذا يقف هؤلاء في غير صف أمير المؤمنين (عليه السلام).

إن من لم يكن في صف علي بن أبي طالب (عليه السلام) فريقان:

أولهما: الواقف على الحياد بمسافة واحدة من الحق والباطل، متظاهراً بالاحتياط والتقدّس والحذر من الوقوع في الفتنة (وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلاَ تَفْتِنِّي أَلاَ فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُواْ) (التوبة/٤٩) كالذين لم يبايعوا أمير المؤمنين (عليه السلام) لأغراض شتى مثل سعد بن أبي وقاص وأسامة بن زيد وعبد الله بن عمر وسعيد بن مالك وحسّان بن ثابت وهؤلاء قال فيهم أمير المؤمنين (عليه السلام): (إن سعيداً وعبد الله بن عمر لم ينصرا الحق ولم يخذلا الباطل)[1].

فقد سولت لهم أنفسهم وغرّهم الشيطان بأنهم يحسنون صنعا، حينما يقفون محايدين بين الحق والباطل لكنهم ارتكبوا كبيرتين وتركوا فريضتين عظيمتين: نصرة الحق ومواجهة الباطل، فنصروا الباطل مرتين.

ثانيهما: الصف الذي يقف في مواجهة علي بن أبي طالب (عليه السلام) وهؤلاء طبع الله على قلوبهم ومنهم من يفخر بذلك ومنهم عبد الله بن الزبير الذي

(١) نهج البلاغة/ قصار الكلمات رقم ٢٦٢.

يقول: من مثلي وقد وقفت في الصف بأزاء علي بن أبي طالب)[١] هذا وهو يعلم منزلة أمير المؤمنين وقد سمع من أبيه الزبير وخالته عائشة ما لا يحصى في ذلك لكن الإمام الصادق (عليه السلام) يقول: (ما زال الزبير منّا أهل البيت حتى أدرك فرخه ونهاه عن رأيه)[٢].

نسأل الله تعالى أن يجعلنا دائماً في الصف الذي فيه أمير المؤمنين (عليه السلام) ويدلنا عليه بلطفه وحسن توفيقه كما وعدنا (عليه السلام): (من كان مقصده الحق أدركه ولو كان كثير اللبس).

(١) بحار الأنوار: ١٤٣/٤١ عن شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، قال: انتبه معاوية يوماً فرأى عبد الله بن الزبير جالساً تحت رجليه على سريره فقال له عبد الله يداعبه: يا أمير المؤمنين لو شئت أن أفتك بك لفعلت. فقال: لقد شجعت بعدنا يا أبا بكر، قال: وما الذي تنكره من شجاعتي وقد وقفت في الصف أزاء علي بن أبي طالب. قال: لا جرم أنه قتلك وأباك بيسرى يديه وبقيت اليمنى فارغة يطلب من يقتله بها.

(٢) الخصال، أبواب الثلاثة، ح١٩٩ في بيان ثلاث خصال في السفرجل.

القبس القرآني

٥٦

﴿ومَن يُطعِ اللهَ والرَّسُولَ فأولَـئِكَ مَعَ الذِينَ أنعَمَ اللهُ عَلَيهِم﴾[1]

[النساء: ٦٩]

الدعاء بالمعية الإلهية:

في مناسبات المعصومين (سلام الله عليهم) ومجالسهم وعند زيارتهم تنتابنا عدة مشاعر منها الشوق إلى رؤيتهم ومصاحبتهم ومرافقتهم، ونكرّر الطلب يومياً في صلواتنا (اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ* صِرَاطَ الَّذِينَ أنعَمتَ عَلَيهِمْ) (الفاتحة/٦-٧) وعلى رأسهم النبي (صلى الله عليه وآله) والأئمة المعصومون (عليهم السلام) ونعبّر عن ذلك بما ورد في الزيارة ونكررها (يا ليتنا كنا معكم فنفوز فوزاً عظيما)، والمشهور في فهم العبارة تمني الكون معهم في زمانهم -كيوم الإمام الحسين (عليه السلام) في كربلاء- ومشاركتهم مواقفهم ونصرتهم حتى نفوز ونسعد بذلك باعتبار أن (كان) فعل ماضي ناقص كما هو معلوم.

ولكن للعبارة فهم آخر بأن تكون (كان) تامة أو الشأنية التي لا تفيد الاقتصار على الزمن الماضي بل تشمل الحاضر والمستقبل مثل ما ورد في ذكر الأسماء الحسنى (وَكَانَ اللّهُ عَزِيزاً حَكِيماً) (النساء/١٥٨) و(وَكَانَ اللّهُ سَمِيعاً بَصِيراً) (النساء/١٣٤) أي أن الله تعالى متصف بهذه الصفات في كل الأحوال،

(١) تقرير لحديث سماحة المرجع اليعقوبي (دام ظله) مع حشد كبير من المثقفين والأكاديميين والشباب من الديوانية والكوت والنعمانية وغيرها يوم ٢٤/رجب/١٤٣٥ المصادف ٢٠١٤/٥/٢٤.

فحينما ندعو الله تعالى (يا ليتنا كنّا معكم) أي نكون معكم دائماً.

مصاحبة المعصومين (عليهم السلام) في كل النشآت:

وهذا الطلب لا يختص بنا نحن الذين حُرمنا من لقاء المعصومين (سلام الله عليهم) بل يشاركنا فيه حتى الذين فازوا وسعدوا بمرافقة النبي (صلى الله عليه وآله) وآله المعصومين ومصاحبتهم في زمانهم فيتمنون أن تستمر عليهم هذه النعمة في الآخرة ولا يفترقون عنهم (صلوات الله عليهم أجمعين) بسبب تباين الدرجات، وقد وردت روايات كثيرة في ذلك مذكورة في سبب نزول قوله تعالى (وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـئِكَ رَفِيقاً * ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللّهِ وَكَفَى بِاللّهِ عَلِيماً) (النساء:٦٩-٧٠) فقد روى الفريقان[1] جاء رجل إلى النبي (صلى الله عليه وآله) فقال: (يا رسول الله إِنّكَ لأَحَبّ إِلَيِّ مِنْ نَفْسِي وَإِنّكَ لأَحَبّ إِلَيِّ مِنْ مِنْ وِلْدِي وَإِنّي لأَكُون فِي البَيْتِ فَأَذْكُرَكَ فَمَا أَصْبِر حَتّى آتِي فَأَنْظُرُ إِلَيْكَ، وَإِذَا ذَكَرْتُ مَوْتِي وَمَوْتَكَ عَرَفْتُ أَنّكَ إِذَا دَخَلْتَ الجَنّةَ رُفِعْتَ مَعَ النّبِيّينَ، وَإِنّي إِذَا دَخَلْتُ الجَنّةَ خَشِيتُ أَنْ لا أَرَاكَ؟ فَلَمْ يَرُدّ عَلَيْهِ النّبِيُّ (صلى الله عليه وآله) حَتّى نَزَلَ جِبْرِيلُ (عليه السلام) بِهَذِهِ الآيَةِ).

وفي رواية أن رجلا أتى النبي (صلى الله عليه وآله) فقال: يا رسول الله! إني أحبك حتى

(١) البرهان في تفسير القرآن: ٩٨/٣، الدر المنثور: ٥٨٨/٢ ومما ننصح بقرائته: الاطلاع على أسباب نزول الآيات الكريمة ففي ذلك فوائد جمة كالاطلاع على الحوادث التاريخية وسيرة النبي (صلى الله عليه وآله) وكيفية معالجة القرآن الكريم للمشاكل السياسية والاجتماعية والأخلاقية وأخذ الدروس والعبر من ذلك كله.

إني أذكرك ، فلولا أني أجئ فأنظر أليك ظننت أن نفسي تخرج ، وأذكر أني إذا دخلت الجنة صرت دونك في المنزلة ، فيشقّ ذلك عليَّ وأحب أن أكون معك في الدرجة ، فلم يرد عليه رسول الله (صلى الله عليه وآله) شيئاً فأنزل الله عز وجل (وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرّسُولَ) فدعاه رسول الله (صلى الله عليه وآله) فتلاها عليه.

وتذكر بعض الروايات أن السائل بكى وفي رواية أنه جاء إلى النبي (صلى الله عليه وآله) محزوناً فسأله النبي (صلى الله عليه وآله): مالي أراك محزوناً، وفي رواية أنه فتى مما يدل على حماسة ووعي وشدة إيمان هذا الشاب.

دروس من الآية الكريمة:

فالآية:

١. **تطمئن القلوب الوالهة المشتاقة** إلى رؤية رسول الله وآله الأطهار (صلوات الله عليهم أجمعين) وتبشرهم بإمكان ذلك إذا تحقق الشرط وهو العمل بطاعة الله تعالى.

٢. تبيّن **أن النعمة في الجنان لا تكتمل إلا بمرافقة هذه الفئات الكريمة** فقد ذكرت هذه النعمة أو قل الثمرة لطاعة الله تعالى بعد عدة ثمرات في الآيات السابقة (وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً﴿٦٦﴾ وَإِذاً لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْراً عَظِيماً﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً﴿٦٨﴾) (سورة النساء) ثم جاءت الآية محل البحث فالجنة الحقيقية ليست بالحور العين ولحم الطير والأنهار والقصور وإنّما بهذه المرافقة الكريمة.

٣. **إنّ هذه الآيات ترتبط ارتباطاً وثيقاً بما ندعو به يومياً في صلواتنا**

فنقول عشر مرات يومياً على الأقل (اهدِنَـــا الصِّـرَاطَ المُستَقِيمَ * صِـرَاطَ الَّـذِينَ أَنعَمتَ عَلَـيهِمْ) (الفاتحـة/٦-٧) فإنهـا تـدل علـى أن طاعـة الله تعـالى والأخـذ بمـا يعظك به تحقق لك الهداية إلى الصـراط المسـتقيم (وَلَهَـدَيْنَاهُمْ صِـرَاطاً مُّسْـتَقِيماً) (النساء/٦٨) وتبين من هم الذين أنعم الله عليهم وكيف تتحقـق الأمنيـة بمـرافقتهم ومصاحبتهم.

٤. **إنها تجيب عن السؤال الذي توجّه به الصـحابة فـي الروايـات المتقدمة وتحلّ هذه المشكلة وتدل على الوسـيلة لتحقيـق هـذه الأمنيـة العظيمة**، والوسيلة هي طاعة الله تبـارك وتعـالى، وقـد دلّـت علـى ذلـك الروايـات الشريفة، عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال (إنه لا يدرك مـا عنـد الله إلاّ بطاعتـه)[١] وعـن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال (طاعة الله مفتاح كل سداد وصلاح كل فساد)[٢].

في معنى الطاعة في الآية الكريمة:

والملاحظ في الطاعة بحسب هذه الآية أمران:

أولهما: الاستمرارية والدوام والثبات وعلامتـه اسـتعمال فعـل المضـارع (ومن يطع) وذلك بـأن يتخـذ طاعـة الله تعـالى ورسـوله (صلى الله عليه وآله) منهجـاً فـي حياتـه ودليلاً لسلوكه فلا يقدّم ولا يؤخّر إلا وفق ما يرضـي الله ورسـوله (صلى الله عليه وآله) فيكـون الطابع العام لسلوكه ومواقفه طاعة الله تعالى، ولو زلّت قدمه بسبب الغفلة أو الجهل أو ضعف النفس تذكّر المطلوب منه وعاد إلى خطّ الطاعة، قال تعالى: (إِنَّ الَّـذِينَ

(١) وسائل الشيعة: ١٨٤/١١ ح٢.

(٢) غرر الحكم: ٦٠١٢.

اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ) (الأعراف/٢٠١).

ثانيهما: إطلاق لفظ الطاعة فلا تختص بنماذج محددة منها، وإن ذكرت الروايات بعض هذه الطاعات، عَنْ رَبِيعَةَ بْن كَعْبٍ الأسلمي، قَالَ: كُنْتُ أَبِيتُ عند النبي (صلى الله عليه وآله)، فَآتِيهِ بِوَضُوئِهِ وَحَاجَتِهِ، فقال لي: سل. قلتُ: يا رسول الله (صلى الله عليه وآله) أسألك مرافقتك في الجنة، قال: أو غيرُ ذلك؟ قلتُ: هو ذاك، قال: فأعنّي على نفسك بكثرة السجود.

وفي رواية أخرى عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) ذكر الطاعات الواجبة ثم قال (صلى الله عليه وآله) (ما لم يعق والديه).

إلاّ أنّ ذكر هذه الطاعات المهمة من باب المثال أو بما يناسب السائل وإلا فإن الشرط المذكور في الآية (وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ) (النور/٥٢) مطلق، فلا تقتصر طاعة الله تعالى على العبادات المعروفة كالصلاة والصوم والطهارة والخمس ونحو ذلك وإن كانت منها وعلى رأسها، لكن هناك طاعات مهمة وثقيلة الميزان نغفل عنها أو نستثقلها كالإنصاف من نفسك وإن كان على خلاف هواك وكالسعي لقضاء حوائج الناس وإدخال السرور عليهم وأمثال ذلك، عن النبي (صلى الله عليه وآله) قال (ثلاث لا تطيقها هذه الأمة: المواساة للأخ في ماله، وإنصاف الناس من نفسه وذكر الله على كل حال)[1] فإن بهذه الأمور قوام الدين وصلاح الأمة، عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال (نظام الدين خصلتان: إنصافك من نفسك

(١) بحار الأنوار: ٢٧/٧٥ ح١١.

ومواساة اخوانك)[١]. أو مثل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي وصفتها الأحاديث الشريفة بأنها سبيل الأنبياء ومنهاج الصلحاء وأسمى الفرائض وأشرفها.

أو مثلاً العفاف للرجل والمرأة والتنزه عن الأمور الدنيّة، عن الإمام الباقر (عليه السلام) قال (ما عبد الله بشيء أفضل من عفّة بطن وفرج)[٢] وغيرها من الطاعات العظيمة كالتفقه في الدين ونشره بين الناس ورعاية الأيتام والمعوزين وتزويج المؤمنين ونحو ذلك.

الفئات المترافقة:

وقد بيّنت الآية الشريفة الفئات المترافقة وهم الأنبياء الذين يبلغون رسالات ربهم.

والصديقون الذين آمنوا بربهم وأطاعوه وأطاعوا رسله ظاهراً وباطناً وصدّقت أفعالهم أقوالهم.

والشهداء الذين حملوا الرسالة الإلهية ودعوا الناس إليها وسعوا لتطبيقها في حياة الأمة رغم العنت والمشقة حتى ضحّوا بأرواحهم واستشهدوا في سبيل الله تعالى، وكانوا شهداء على الأمة فأقاموا عليها الحجة البالغة.

والصالحون الذين بذلوا جهدهم في تطبيق التعاليم الإلهية في حياتهم وجعلوا الصلاح منهاجاً لحياتهم.

---

(١) غرر الحكم: ٩٩٨٣.

(٢) الكافي: ٧٩/٢، ح١.

اسعوا لتكونوا من الصالحين:

فالإنسان الذي يريد أن يكون مع الأنبياء والأئمة الطاهرين (عليهم السلام) يستطيع ذلك بتوفيق الله وألطافه عندما يكون من الصالحين والعاملين المضحّين، روى أبو بصير قال أبوعبد الله الصادق (عليه السلام): (يا أبا محمد لقد ذكركم الله في كتابه فقال (وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ) (النساء/٦٩) فرسول الله (صلى الله عليه وآله) في هذا الموضع النبي، ونحن الصديقون والشهداء، وأنتم الصالحون، فتسموا بالصلاح كما سمّاكم الله)[1].

وذكر هذه المراتب بالتدريج يدل على أن الوصول للمرتبة العليا يتم باستيفاء المرتبة السابقة فإن لم يكن من الصالحين يسعى ليكون منهم وفق ما عرفناه آنفاً، والصالحون يسعون ليكونوا من الشهداء، وهم يطلبون سبيل الصديقين الذين يسيرون على هدى الأنبياء (وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ) (يوسف/٧٦).

وينبغي الالتفات إلى أن هذه المعيّة لا تعني المساواة في الدرجات والمقامات والقرب من الله تعالى والتنعم برضوانه، بل كل حسب استحقاقه (فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا) (الرعد/١٧)، وتؤكد الآية الثانية أن ذلك لا ينال إلا بفضل من الله تعالى وتوفيقه، وهو العالم بحقائق عباده واستحقاقاتهم، والإشارة إليه بـ (ذلك) للإشعار بأنه ليس سهل المنال، وانه مطلب عظيم يستحق بذل كل الجهد لتحصيله.

---

(١) تفسير العياشي ٢٥٦/١ ح ١٩٠.

من آثار الصلاح هو المعيّة الإلهية:

ونريد الآن أن نتقدم خطوة أخرى ونقول أن الإنسان يمكن أن يحظى بهذه الرؤية المباركة هنا في الدنيا قبل الآخرة بحسب ما يظهر من بعض الروايات، فقد روى الكشي في رجاله بسنده عن اسماعيل بن سلام واسماعيل بن جميل قالا: بعث إلينا علي بن يقطين فقال: اشتريا راحلتين، وتجنبا الطريق - ودفع إلينا أموالاً وكتباً - حتى توصلا ما معكما من المال والكتب إلى أبي الحسن موسى (عليه السلام) ولا يعلم بكما أحد، قالا : فأتينا الكوفة فاشترينا راحلتين وتزوّدنا زاداً، وخرجنا نتجنب الطريق، حتى إذا صرنا ببطن الرمة شددنا راحلتنا، ووضعنا لها العلف، وقعدنا نأكل، فبينا نحن كذلك، إذ راكب قد أقبل ومعه شاكري، فلما قرب منَّا فإذا هو أبو الحسن (عليه السلام) ، فقمنا إليه وسلّمنا عليه، ودفعنا إليه الكتب وما كان معنا، فأخرج من كمّه كتباً فناولنا إيّاها، فقال: هذه جوابات كتبكم، فقلنا : إنّ زادنا قد فني، فلو أذنت لنا فدخلنا المدينة ، فزرنا رسول الله (صلى الله عليه وآله) وتزوّدنا زاداً فقال : هاتا ما معكما من الزّاد، فأخرجنا الزّاد إليه فقلّبه بيده فقال : هذا يبلّغكما إلى الكوفة، وأما رسول الله (صلى الله عليه وآله) فقد رأيتماه، إني صليت معهم الفجر، وإنّي أريد ان أصلي معهم الظهر ، انصرفا في حفظ الله)[1]، ومحل الشاهد تأكيده (عليه السلام) لهما بأنهما قد رأيا رسول الله (صلى الله عليه وآله) فعلاً وتحقق مرادهما وأمرهما بالرجوع إلى الكوفة.

والشاهد الآخر من حياة الإمام الهادي (عليه السلام)، فقد روى الكليني في

(١) معجم رجال الحديث: ٢٤٩/١٣ عن رجال الكشي.

الكافي، في بصائر الدرجات بسنده عن صالح بن سعيد قال دخلت على أبي الحسن عليه السلام فقلت: جعلت فداك، في كل الأمور أرادوا إطفاء نورك والتقصير بك حتى أنزلوك هذا الخان الأشنع خان الصعاليك، فقال عليه السلام: (ههنا أنت يا ابن سعيد ؟ ثم أومأ بيده فقال: انظر، فنظرت فإذا بروضات آنقات، وروضات ناضرات، فيهن خيرات عطرات، وولدان كأنهن اللؤلؤ المكنون، وأطيار وظباء وأنهار تفور، فحار بصري والتمع، وحسرت عيني، فقال: حيث كنا فهذا لنا عتيد، ولسنا في خان الصعاليك)[1].

بل الأمر أقرب من ذلك لأنّنا نحظى بوجود بقية الله الأعظم الإمام المهدي (عليه السلام) بين ظهرانينا وإن كنّا لا نعرفه شخصياً، ونخاطبه في دعاء الندبة (متى ترانا ونراك)، وتتحدث الشواهد التاريخية الكثيرة على إمكان ذلك لمن رضي عنه الإمام (عليه السلام) لخير وجده فيه، يُروى ان عابداً كان يتمنى لقاء إمام الزمان (عجل الله تعالى فرجه) وبعد فترة من الرياضات الروحية والتعب والمشقة لم يصل الى شيء واخذ اليأس يدب الى قلبه ، وفي ليلة من الليالي بينما كان قائما يتعبد إذا بهاتف يناديه : (الوصول الى المولى يعني شد الرحال الى ديار الحبيب) فشدَّ الرحال من جديد واخذ يزيد من الصلاة والتعبد حتى انتهى الأمر به الى المكوث في المسجد أربعين يوما فأتاه نداء آخر يقول: (ان سيدك تجده في سوق الحدادين يجلس في باب رجل عجوز يصنع الأقفال) فذهب مسرعا فوجد الإمام (عجل الله تعالى فرجه) يشع نورا فارتعدت فرائص العابد إلا ان الإمام (عجل الله

(١) بحار الأنوار: ٥٠/ ١٣٣ ح١٥.

تعالى فرجه) طلب منه ان ينظر ما سيحصل ،فجاءت عجوز منحنية الظهر بيدها قفل عاطل وقالت للبائع أرجوك اشتر هذا القفل بثلاثة دنانير فقال البائع: إن هذا القفل بثمانية دنانير وإذا أصلحته يصبح بعشرة فتصورت العجوز انه يسخر منها إلا انه بادر بإعطائها سبعة دنانير وقال لها : لاني أبيع واشتري أخذته بسبعة دنانير لأربح دينارا فذهبت العجوز مسرورة فالتفت الإمام (عجل الله تعالى فرجه) الى العابد وقال : (كونوا هكذا كهذا العجوز كي نأتيكم نحن بأنفسنا لا حاجة الى التعبد أربعين يوما ولا فائدة من الجفر والحروف فقط اصلحوا أعمالكم)[1].

درس عملي:

ونريد أن نخلص الآن إلى درس عملي وهو أنّك إنما تطلب قرب رسول الله (صلى الله عليه وآله) لأنه سبب مقرّب إلى الله تعالى وأنك تعيش بقربه سمواً روحياً متميزاً وهذا تأثير أكيد كالمغناطيس الذي يؤثر في الحديد ويجذبه من دون أن يلامسه، ولكن الله تعالى بكرمه ورحمته ولطفه بعباده لم يشأ حرمان عباده من هذه المؤثرات المباركة، حيث دلّت أن الحالة المعنوية المتألقة التي ترجوها من الكون في حضرة رسول الله (صلى الله عليه وآله) والأئمة المعصومين (سلام الله عليهم أجمعين) يمكن أن تحققها بدرجة ما من خلال توفير بيئة الطاعة وتهيئة أسبابها كالحضور في المساجد والروضات المطهّرة واستثمار الأزمنة الشريفة ومجالس ذكر الله تعالى والمعصومين (عليهم السلام) والاستفادة من العلماء الذين يقربونك من الله تعالى، فهذه هي الجنة المعجّلة، عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال (الجلسة في الجامع خير لي من

(١) ثلاثة يشكون: ٢٤١.

الجلسة في الجنة، لأن الجنة فيها رضا نفسي والجامع فيه رضا ربي)[1].

(١) وسائل الشيعة، كتاب الصلاة، أحكام المساجد، باب٣، ح٦.

القبس القرآني

٥٧

﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾[1]
سنة الاستبدال

[سورة محمد: ٣٨]

من السنن الإلهية:

تبيّن الآية سنة إلهية وقانوناً ثابتاً وفي نفس الوقت توجّه تحذيراً لكل الناس، مفاده أن المشروع الإلهي الذي حملته رسالة الاسلام العظيمة ماضٍ وسائر في طريق تحقيق الأهداف المرسومة له، وإنَّ تقاعسَ واعراض البعض –مهما كثر عددهم– لا يعرقل هذه المسيرة الإلهية وإنما تُعرض الرسالة عليهم وتطلب النصرة منهم لطفاً بهم من الله تعالى وامتناناً عليهم ليحصلوا على شرف المشاركة وثواب العاملين في الدنيا والآخرة، فإذا أعرضوا عن هذا التكليف ولم يتحملوه فإنهم هم الخاسرون وسيوفق الله تعالى أقواماً غيرهم لينهضوا بهذه المسؤولية ويحصلوا على نتائجها المباركة.

والخطابات القرآنية عامة شاملة لكل الأجيال ولكل الأزمان فلا يتصور أحد أن هذه الآية خاصة بالقوم الذين كانوا حول النبي (ص) وإنه تهديد لهم فقط، وإنما هي سنة إلهية عامة ثابتة (فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ

(١) من كلمة سماحة المرجع اليعقوبي (دام ظله) مع جمع من طلبة جامعة ميسان وطلبة بعض المدارس القرآنية وعدد من القيادات الميدانية لمتطوعي لواء الشباب الرسالي وبعض المنظمات الانسانية يوم السبت ١٧/ذ ق/١٤٣٥ المصادف ٢٠١٤/٩/١٣.

تَحْوِيلاً) (فاطر/٤٣) وقد أشارت عدة آيات قرآنية إلى هذه السنة الإلهية ،قال تعالى (إِلاَّ تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (التوبة/٣٩) ،(وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَى أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ) (الواقعة/٦٠- ٦١) ،(إِنَّا لَقَادِرُونَ * عَلَى أَن نُّبَدِّلَ خَيْراً مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ) (المعارج/٤١).

لماذا التقاعس والارتماء في الايديولوجيات الفاسدة؟

وقد تركت الآية كلمة (تتولوا) بلا ذكر لمتعلقها، وإن التولي يكون عن ماذا؟ لتكون مطلقة وتكون السُنة جارية في كل تولي واعراض سواء تعلق بأصول الدين أو فروعه أي مطلق طاعة الله تعالى.

إذ من الناس من يعرض ويتولى عن أصل الإيمان والدين ويتجرد منه ويتحول إلى لا ديني ويتبنى أفكاراً وأيديولوجيات مناهضة للدين ومشككة فيه بأي عنوان كان كالملحد أو الكافر ونحو ذلك، وهذا المورد من التولي والاعراض ذكرته آية أخرى قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ) (المائدة/٥٤).

ومنهم من يؤمن نظرياً بالإسلام لكنه لا يقوم بالتزاماته وقد ذكرت الآيات المتقدمة على الآية محل البحث من سورة الحديد صوراً من الخذلان الذي يصيب الانسان كعدم الانفاق في سبيل الله تعالى وكالقعود عن الجهاد في آية سورة التوبة المتقدمة، أو أي فرصة من فرص الطاعة التي يهيئها الله تعالى للإنسان

كمساعدة محتاج أو قضاء حاجة مؤمن فإنه إن فوّتها ولم يستثمرها فإن الله تعالى سيقيِّض من يقوم بها وهو شاكر لله تعالى على توفيقه.

الإعراض عن طاعة النبي (صلى الله عليه وآله):

ولا شك أنّ من أكثر الموارد التي تظهر فيها هذه السنة الإلهية هي طاعة من أمر الله تعالى بطاعته وهو النبي (ص) ومن بعده الأئمة المعصومون (عليهم السلام) ثم العلماء العاملون المخلصون النوّاب عن الإمام(عليه السلام) في غيبته ، فإنّ من يتقاعس عن طاعتهم والالتزام بتوجيهاتهم فضلاً عمّن يشكّك فيهم ويفتري عليهم ويسقّطهم فإن التوفيق يُسلبُ منه ويُمنَح إلى آخرين مطيعين مخلصين (ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ) (محمد/٣٨) بل يكونون ثابتي الإيمان ذوي همم عالية وإصرار على العمل. صلى الله عليه وآله

وهذا الابتلاء مرّت به الامم ففشل اكثرهم وتولّوا واعرضوا فاصيبوا بأسوء النتائج، ماذا كان دعاء أمير المؤمنين (عليه السلام) حينما خذله أصحابه وتقاعسوا وتفرقوا، (قال (عليه السلام) في سحرة اليوم الذي ضُرب فيه: ملكتني عيني وأنا جالس، فسنح لي رسول الله (صلى الله عليه وآله) فقلت: يا رسول الله، ماذا لقيتُ من امتك من الأَوَد – أي الاعوجاج – واللَدد – أي الخصام –؟ فقال: ادع عليهم، فقلتُ: أبدلني الله بهم خيراً منهم وأبدلهم بي شراً لهم مني)[1].

نموذج معاصر من الإعراض عن طاعة الله تعالى:

خذ مثلاً السيد الشهيد الصدر الثاني قدس سره فإن كثيراً من العناوين الكبيرة

(١) نهج البلاغة: ١٣٥، الخطبة ٧٠.

وغيرهم داخل الحوزة وخارجها خذلوه وعارضوه وشككوا فيه وفي حركته فحرموا من هذا اللطف الإلهي، وهيّأ الله تعالى للسيد الشهيد شباباً مليئين بالإيمان والحيوية والتفاني أخذوا المواقع المخصّصة لأولئك الذين حرموا أنفسهم من هذا الفضل العظيم، واستمرت هذه الحركة المباركة حتى بعد استشهاده ومرور (١٦) سنة على رحيله، لكن صدى حركته اليوم وآثارها المباركة أوسع مما كانت في حياته الشريفة.

نموذج تاريخي في وجدان الطف:

وإذا أردنا أن نعرّج على كربلاء ونأخذ الشواهد منها، فهناك شخصان نقرّب جريان سنة الاستبدال عليهما بحسب الظاهر.

أحدهما: عبيد الله بن الحر الجعفي أحد الفرسان المعروفين بالفتك وهو معدود من شيعة أمير المؤمنين (عليه السلام) وله نسخة يرويها عنه (عليه السلام) – بحسب رجال النجاشي –، التقاه الحسين (عليه السلام) في طريقه إلى كربلاء ودعاه إلى نصرته فامتنع عبيد الله عن الإجابة وقدّم للحسين فرسه المسماة بالمحلّقة وقال ((هذه فرسي المحلّقة فاركبها فوالله ما طلبت عليها شيئاً إلاّ أدركته ولا طلبني أحد إلا فتّته حتى تلتحق بمأمنك وأنا ضمين بعيالاتك أؤديهم إليك))، فقال الحسين (عليه السلام): (لا حاجة لنا فيك ولا في فرسك، وما كنت متخذ المضلّين عضداً)[1] فنصحه الحسين (عليه السلام) بأن يغيّب وجهه ولا يشهد واعيته وقال

(١) راجع تفصيل ترجمته ومصادرها في أدب الطف للمرحوم الخطيب السيد جواد شبر: ٩٤/١-١٠٠.

(عليه السلام) (فوالله لا يسمع اليوم واعيتنا أحد ثم لا يعيننا إلاّ كبّه الله على منخريه في النار).

ثانيهما: الحر الرياحي الذي كان قائداً كبيراً في جيش الأمويين وهو الذي قاد الكتيبة التي اعترضت الإمام الحسين (عليه السلام) في طريقه ومنعته من العودة إلى أهله وديـاره ورافقته حتى نزل كربلاء لكنه في لحظة من لحظات التوفيق والألطاف الإلهية وقف وتأمل في مصيره وعاقبته وخيّر نفسه بين الدنيا المزخرفة التي كان يتمتع بها في ركاب بني أمية لكن عاقبتها النار، وبين القتال والشهادة بين يدي أبي عبد الله الحسين (عليه السلام) وختامها مسك والفوز والجنة ورضوان الله فقال كلمته التي نقلت عبر الأثير إلى كل الأجيال (لا أختار على الجنة شيئاً أبداً).

محل الشاهد ان هذا المقعد في قافلة شهداء الخلود لما تولى عنه عبيد الله وأعرض عنه ملأه غيره وهو الحر الرياحي وفاز به ومضت القافلة في طريقها، وبقي عبيد الله نادماً متحسراً على تفويت هذه الفرصة فالتحق بالمختار لأخذ الثأر ثم اختلف معه والتحق بمصعب ثم اختلف معه وقاتله. ومن شعره المعبّر عن عظيم حسرته:

فيا لَكِ حسرةً ما دمتُ حياً ... تَردُّد بين حلقي والتراقي

حسين حين يطلبْ بذل نصري ... على أهل الضلالة والنفاق

غداة يقول لي بالقصر قولاً ... أتتركنا وتزمع بالفراق

ولو أني أواسيه بنفسي ... لنلت كرامة يوم التلاق

مع ابن المصطفى نفسي فداه ... تولى ثم ودّع بانطلاق

فلـــو فلـــق التلهـــف قلـــبَ حـــي لهـــمَّ اليـــوم قلبـــي بـــانفلاق
فقـــد فـــاز الاولـــى نصـــروا حســـيناً وخـــاب الآخـــرون إلـــى النفـــاق[1]

الهزيمة الداخلية هي التي انتجت الاستبدال:

ولابد أن نلتفت إلى أن هذا الاستبدال من الله تعالى ما كان ليحصل في الخارج إن لم يسبقه استبدال في داخل النفس من قبل الشخص نفسه فاستحق ذلك التبديل (أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ) (التوبة/٣٨) (أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ) (البقرة/٦١).

وهذا كله تطبيق لسنة الله تعالى (إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ) (الرعد/١١) سواء بإتجاه الخير أو الشر، ولذا كان من الادعية الواردة عن اهل البيت (عليهم السلام) (وتجعلني ممن تنتصر به لدينك ولا تستبدل بي غيري)[2].

فعلينا أن نكون حذرين يقظين ونبادر إلى أي فرصة للطاعة ولا نفوّتها أو نؤخرها أو نعتقد أنه لا أحد يستطيع أن يأخذها منّا ويملأ مكاننا فيها، فإن الله تعالى غني عن خلقه ويستبدل بالمقصرين والعاصين من يحبّهم الله تعالى ويحبونه ثم لا يكونوا أمثالكم.

---

(١) أدب الطف أو شعراء الحسين (عليه السلام) للمرحوم السيد جواد شبر: ٩٦/١.

(٢) مفاتيح الجنان :٣٢٧ ادعية ليالي شهر رمضان.

القبس القرآني

٥٨

﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأرض واستعمركم فِيهَا﴾[١]
الإسلام وإعمار الحياة

[هود: ٦١]

في معنى الاستعمار:

قال تعالى (وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأرض وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ) (هود ٦١)

هذه الفقرة من الآية تبيّن واحدة من قواعد الرؤية القرآنية لدور الانسان في الحياة وعلاقته بما حوله، فتكون أساسا ومنطلقا لسلوكه وبرنامجه في الحياة.

(استعمر) على صيغة استفعل والمعروف في معناها انها طلب الفعل كقولك (استخرج) أي طلب الإخراج، ويمكن ان يكون لها عدّة معانٍ اخرى، فتأتي بمعنى الفعل الثلاثي المجرد نحو (استقرَّ) أي قرّ، وغير ذلك. فيكون معنى الآية أن الله تعالى خلقكم من الأرض واستعمركم فيها أي طلب منكم اعمارها وفوّض اليكم أمر إصلاحها والانتفاع بها، أو أنه تعالى عمّركم فيها أي جعل لكم أعماراً مديدة فيها لأن إعمار الأرض يحتاج الى عمر مديد، ولو كانت الأعمار قصاراً لما استطعنا إنجاز شيء، ويمكن أن يكون (استعمركم) بمعنى أنه تعالى

(١) كلمة القاها سماحة المرجع اليعقوبي (دام ظله) في مكتبه الشريف يوم الجمعة ٣ / ربيع الاول / ١٤٣٦ المصادف ٢٠١٤/١٢/٢٦ .

اعطاكم قدرات وجعلكم بوضع تقدرون فيه على الإعمار.

والعمارة نقيض الخراب، وهي تعني جعل الشيء واستعماله على النحو الذي ينتفع به ويحقق الغرض منه، وهي لكل شيء بما يناسبه من ذلك، ((فالعمارة تحويل الأرض الى حال تصلح بها أن يُنتفع من فوائدها المترقّبة منها كعمارة الدّار للسُكنى والمسجد للعبادة والزرع للحرث والحديقة لاجتناء فاكهتها والتنزه فيها، والإستعمار هو طلب العمارة بان يطلب من الإنسان أن يجعل الأرض عامرة تصلح لأن ينتفع بما يطلب من فوائدها))[1].

إعمار الأرض:

ولان الغرض من وجودنا على هذه الارض إعمارها فان وظيفة كل فرد هو اعمار واصلاح ما يقع في دائرة مسؤوليته، فربّ الاسرة يعمر اسرته ومدير المدرسة يعمر طلابه، والقائد يعمر اتباعه ومريديه وهكذا القائد السياسي، لذا جعل امير المؤمنين (عليه السلام) من الوظائف المهمة للحاكم عمارة الأرض، قال (عليه السلام) في عهده الذي كتبه لمالك الأشتر لمّا ولاّه مصر: (وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج، لأن ذلك لا يدرك الاّ بالعمارة، ومن طلب الخراج بغير عمارةٍ أخرب البلاد وأهلك العباد، ولم يستقمْ أمرُه الاّ قليلاً)، وقال (عليه السلام): (ولا يثقُلن عليك شيءٌ خفّفت به المؤونة عنهم فإنه ذخر يعودون به عليك في عمارة بلادك وتزيين ولايتك)[2].

---

(١) الميزان: ٢٩٨/١٢.

(٢) نهج البلاغة: الخطبة ٢٩١.

ملاحظات وتفسيرات:

ويمكن ملاحظة عدة امور في الآية:

١- إن الله تعالى يذكِّر عباده بنعمه العظيمة عليهم وذلك لأنه خلقهم من نفس هذه الأرض مباشرة –كخلقه لآدم (عليه السلام)– أوانه خلق الانسان من نفس عناصر الأرض ومكوناتها وغذائها ومع ذلك فانه أعطاهم هذا التكريم العظيم وفضّلهم على مخلوقاته ومكّنهم من هذه الأرض ليعمروها واستخلفهم عليها كجنس بشري أو كأفراد باعتبار أنهم يخلفون من سبقهم في التملّك والاستيلاء والاعمار.

٢- وفي الآية بيان لحقيقة اعتقادية وزجرٌ وتوبيخٌ وردع للذين تركوا عبادة الله تعالى وأطاعوا أهواءهم وزيّن لهم الشياطين عبادة آلهة وهمية من دون الله تعالى، فيلفت نظرهم الى أن فعلهم مثيرٌ للسخرية حين مكّنهم الله تعالى من الأرض واستعمرهم فيها والآية تفيد الحصر بـ(هو)أي أنه تعالى وحده الذي أنشاءكم وهيأكم لأن تنتفعوا بهذه الأرض بما ينفعكم في حياتكم وتحتاجون اليه ولا تحتاجون الى غيره تعالى، لكن المؤسف أن هؤلاء البشر يتسافلون ويجعلون مما صنعت ايديهم آلهة يعبدونها، ويعتبرونها اربابا تدّبر شؤونهم من الرزق والحياة والضر والنفع باعتبار انهم لا يناقشون حقيقة ان الله تعالى هو الخالق (وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ) (لقمان٢٥) لكنهم يعتقدون انه سبحانه فوّض تدبير شؤون الكون الى اولئك الارباب الوهميين، فالآية تدعوهم الى ان يثوبوا لرشدهم لان تلك الارباب لو كانت مدبرة لشؤونكم لكان لها دور في تهيئة مستلزمات الحياة في الارض والسماء والهواء والشمس وكل شيء،

وانتم تعترفون بانها لا يد لها في ذلك كله لذا جاء بعد هذه الفقرة من الآية مباشرة الأمر بالاستغفار والتوبة من هذه الاوهام والخيالات الفاسدة.

٣- إن الله تعالى فوّض أمر إعمار الأرض الى الانسان وهيّأ له الوسائل والظروف التي تعينه على ذلك وطلب أن يفكّر ويبحث ويسعى وينتج، وبدون ذلك لا يحصل إعمار ولا يستفيد من منابع الرفاه والسعادة الموجودة في هذه الأرض ويكون من الخاسرين، فلا اتكالية ولا تقاعس ولا كسل وإنما لابد من العمل والله تعالى يبارك فيه ويؤتي ثماره بلطفه.

٤- بما أن الإنسان مأمور بان يتخلّق بأخلاق الله تعالى[1] كما في الحديث الشريف وفي الآية الكريمة (وَلِلّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَىَ) (النحل ٦٠) ونحن مأمورون بأن نُقيم الدين والسنن الإلهية وهذا يوجب علينا أن نعطي الفرصة الكاملة لكل فرد أو مؤسسة أو مجتمع ونهيئ الأسباب والإمكانيات لكي يعمّروا الأرض بالحياة وينتفعوا من الخيرات المتاحة لهم على كلِّ الأصعدة سواء على الصعيد العلمي او الإقتصادي او السياسي أو الديني أو الإجتماعي وغير ذلك، بالتصويت لهم اذا توقفت المسالة على الانتخاب، او بوضع الرجل المناسب في المكان المناسب بالتعيين او بتقديم الدعم المادي والمعنوي لأي مشروع مثمرٍ او فكرة مفيدة او مؤسسة نافعة ونحو ذلك.

٥- إن الإستعمار مصطلح قرآني مثمر وإيجابي ويُغني الحياة بالخير، لكن الدول المستكبرة اختطفته وحوّلته الى معنى معاكس يتضمن القتل والتدمير

(١) ورد عن الامام الصادق (عليه السلام) تخلّقوا بأخلاق الله. بحار الأنوار: ج ٦١، ب ٤٢، ص ١٢٩

والخراب والاستحواذ على ثروات الشعوب وتجويعهم والاستيلاء على زمام الامور في بلدانهم، ككثير من المصطلحات التي شوهوها كالحرية التي تعني الانعتاق من اغلال الاهواء والشهوات والتعصّب والعبودية الخالصة لله تعالى فأصبحت تعني عندهم الانفلات من كل الضوابط الاخلاقية أو السياسة التي تعني رعاية مصالح البلاد والعباد وصلاح امورهم ونصف أئمتنا (عليهم السلام) بها كما ورد في الزيارة (يا ساسة العباد) وهكذا، لكنهم وظّفوها لمآربهم الخبيثة المعادية للإنسانية.

٦- ولابد من الإلتفات الى الجوانب المعنوية للإعمار لأن الله تعالى أنشأ لنا هذه الأبدان لتكون وسيلة لتكامل النفس والعقل وسمو الرّوح، فالبدن هو أرض النفس الذي أنشأه الله تعالى لإعمارها بطاعة الله تعالى وعلى هذا فان إعمار الأرض لابد أن يكون مقترنا بنية التقرب الى الله تعالى لأن الإعمار الحقيقي هو ملئ القلب بحب الله تعالى وذكره وتحلية النفس بالفضائل وتهذيبها من الرذائل والأغلال والآصار، فالأمر بالإعمار إنما يُراد منه تهيئة أسباب الطاعة والتمكين منها. أذ كلّما كانت الأسباب المساعدة على الطاعة متوفرة كان إقبال النفس عليها أكثر فعوالم الإنسان مترابطة، كما قيل في المثل المشهور: (العقل السليم في الجسم السليم). وكما ان الارض مستودع لكثير من الخيرات وعلى الانسان ان يستصلحها ويستعمرها ليستخرجها، فكذلك طاقات الانسان لا حدود لها لو احسن تفجيرها، وتشهد وقائع كثيرة بذلك كقلع امير المؤمنين (عليه السلام) لباب خيبر التي عجز اربعون شخصا عن حملها. وخذ مثالا قريبا من مسيرة الموالين لأهل البيت (عليهم السلام) حين يقطعون مسافة اكثر من ٥٠٠ كيلومترا مشيا في ظروف جوية قاسية

وتهديدات ارهابية جديّة من دون اصطحاب طعام او فراش، فحبّهم للحسين (عليه السلام) وولاؤهم للنبي (صلى الله عليه وآله) واله فجّر طاقات يجدونها مستحيلة التحقق في غير هذا الحافز، وكسير بعض الاخوة ٢٠٠٠ كيلومترا من الامامين الكاظمين (عليهما السلام) الى مشهد الامام الرضا (عليه السلام) في ارض مجهولة لهم وظروف جوية صعبة ويمرّون بمناطق فيها وحوش مفترسة.

٧- إن الله تعالى خلقنا من الأرض، فالأرض سابقة بوجودها علينا، وقد سخّرها الله تبارك وتعالى لنفعنا (هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأرض جَمِيعاً) (البقرة٢٩) فِنعمُ الله تعالى سابقةٌ على وجودنا وهو جلّت آلآؤه المبتدئ بالفضل وبالنعم، والدرس الذي نستفيده هو أن نبادر نحن بالعطاء للأخرين قبل أن نتوقع منهم تقديم شيء من الخير.

٨- ما دام معنى اعمار الارض يتحقق بجعلها على نحو مثمر ينتفع به، كما تقدم في التعريف فإذن هو يشمل كل نواحي الحياة لكلٍ بحسبه، فهناك الإعمار السياسي والإقتصادي والإجتماعي والزراعي والعلمي وغير ذلك، لأنها كلها تساهم في تحقيق هذا المعنى فكأن الإعمار مرادفٌ للإصلاح أو هو نتيجته.

الإصلاح الحسيني في كل اتجاهات الحياة:

لذلك فإن شريعة الاسلام وهي خاتمة الشرائع الالهية واكملها لم تكتف بالإعمار والاصلاح الديني وانما عمّت بقوانينها واحكامها كل شؤون الحياة وقضايا الناس، وقد عبَّر الامام الحسين (عليه السلام) وارث الانبياء وحامل رسالاتهم كلها عن هذا المشروع الإعماري الشامل وأشار في كلماته الشريفة الى كل هذه

المجالات.

ففي مجال الاعمار والاصلاح الديني قال (عليه السلام)(وإنّي لم أخرج أشِراً ولا بَطِراً ، ولا مُفسِداً ولا ظَالِماً ، وإنَّما خرجتُ لطلب الإصلاح في أمَّة جَدِّي (صلى الله عليه وآله) . أريدُ أنْ آمُرَ بالمعروفِ وأنْهَى عن المنكر ، وأسيرُ بسيرَةِ جَدِّي ، وأبي علي بن أبي طَالِب عليهما السلام)[1].

وفي مجال الاعمار القانوني قال (عليه السلام) (وأنا أدعوكم إلى كتاب الله وسنّة نبيّه، فإنّ السنة قد أُميتت والبدعة قد أُحييت، وإن تسمعوا قولي وتطيعوا أمري أهدكم سبيل الرشاد). [2]أي ان هؤلاء الطغاة عطّلوا العمل بالدستور والقانون فالامام (عليه السلام) يدعوهم الى العودة الى العمل بالدستور –وهو القرآن– والقوانين المبيّنة له –وهي السنة الشريفة–.

وفي مجال الاعمار السياسي وبيان صفات المستحقين للإمامة والقيادة وولاية امور الأمة قال (عليه السلام) (فلعمري ما الإمام الا العامل بالكتاب، والآخذ بالقسط، والدائن بالحق والحابس نفسه على ذات الله)[3].

كل الخراب نتيجة لتولي قادة الزور على مقدرات الشعوب:

واعتبر (عليه السلام) سبب الخراب والفساد الاقتصادي والاجتماعي والاخلاقي والديني وضياع الحقوق والعدالة يرجع الى ولاية القادة غير الشرعيين لأمور

(١) موسوعة كلمات الإمام الحسين (ع) ص ٣٥٤.

(٢) موسوعة كلمات الإمام الحسين (ع) ص ٣٨٣.

(٣) موسوعة كلمات الإمام الحسين (ع) ص ٣٧٩.

الناس قال (عليه السلام) بعد ان حمّله كل افراد الامة مسؤولية التغيير: (مَن رأى سُلطاناً جائِراً مُستحلاً لحرم الله، أو تاركاً لعهد الله، ومُخالِفاً لسنّةِ رسولِ الله(صلى الله عليه وآله)، فَعَمِلَ في عبادِ الله بالإثمِ والعدوانِ، ثم لم يُغيّرْ عليهِ بقولٍ ولا فعلٍ، كان حَقّاً على الله أن يُدخِله مَدخلَه) قال (عليه السلام) في تحليله (وقد عَلمتُم أنَّ هؤلاء لَزِموا طاعةَ الشيطانِ وتَولَوا عن طاعةِ الرحمن، وأظهرُوا الفسادَ وعطلّوا الحدودَ واستأثَروا بالفيء، وأحَلّوا حرامَ اللَّهِ وحَرَّموا حلالَهُ، وأنا أحقُّ من غيري بهذا الأمر لقرابتي من رسول الله (صلى الله عليه وآله))[1].

وفي رواية اخرى (وأنا أولى من قام بنصرة دين الله وإعزاز شرعه والجهاد في سبيله، لتكون كلمة الله هي العليا)[2].

وهذا بعينه هو مشروع الامام المهدي المنتظر(عجل الله تعالى فرجه الشريف) وقد ادخره الله تعالى لإقامة الحق والعدل وارساء قواعد الدولة الكريمة العامرة بالخيرات والبركات والعزة والكرامة، كما ورد في دعاء الافتتاح لليالي شهر رمضان المبارك (اَللّهُمَّ إنّا نَرْغَبُ اِلَيْكَ في دَوْلَة كَريمَة) ، ولا تكون الدولة كريمة الا اذا سادها الاعمار والاصلاح في جميع المجالات.

ما الذي استفدناه من النهضة الحسينية؟

اقول: ونحن ننهي الموسم الحسيني لشهري محرم وصفر لا بدَّ ان نقف ونراجع ونحلل مقدار استفادتنا من اقامة الشعائر الحسينية، كما امرنا الائمة

(١) موسوعة كلمات الإمام الحسين (ع) ص ٤٥٧.

(٢) موسوعة كلمات الإمام الحسين (ع) ص ٤٠٨.

المعصومون (عليهم السلام) في كل طاعة، كالصلاة حينما جعل الامام (عليه السلام) مقياسا لقبولها والانتفاع بها وهو مقدار نهيها عن الفحشاء والمنكر.

فدرجة استفادتنا من النهضة الحسينية المباركة يحددها مقدار نجاحنا في انجاز الرسالة الحسينية المباركة وتحقيق الاعمار في نواحي الحياة الانسانية الكريمة.

وهي نفس الدرجة التي نستحقها في اختبار التمهيد للظهور المبارك للإمام المهدي (عليه السلام) لان الرسالة واحدة والغرض واحد، فلنراجع انفسنا ونقّيم افعالنا بدقة ولا نكون من الغافلين المخدوعين ببعض الشكليات والعناوين المزوّقة والطقوس المتخلّفة لنقنع انفسنا باننا قد احيينا شعائر الحسين (عليه السلام) وهي لا تزيد الا بعدا عن الامام الحسين (عليه السلام) واهدافه المباركة لأنها تساهم في تجهيل الناس وتسطي عقولهم وهو مخالف لما اراده الامام (عليه السلام) كما ورد في زيارته المخصوصة انه (بذل مهجته فيك ليستنقذ عبادك من الجهالة وحيرة الضلالة) والله المستعان.

القبس القرآني

٥٩

(ويَخافونَ سوءَ الحِسَابِ)[١]

[الرعد: ٢١]

موعظة عن سوء الحساب:

لا يمكن أن يتصور أمثالنا –ونحن حبيسو الدنيا المادية– حقيقة سوء الحساب وحالاته وأوصافه إلا بمقدار ما تتحمله أفهامنا من كلام الله تعالى والمعصومين (سلام الله عليهم)، وقد أعد سوء الحساب حقيقة للذين أعرضوا عن ربهم ولم يلتزموا بالمنهج الربّاني، قال تعالى: (لِلَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لاَفْتَدَوْاْ بِهِ أُوْلَـئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ) (الرعد: ١٨) ويعرف بعض الوان هذا الحساب من آيةٍ مماثلة، قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُواْ بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) (المائدة: ٣٦)، وقد روى الطبرسي في مجمع البيان في معنى سوء الحساب عن أبي عبد الله (عليه السلام): (هو أن لا يقبل منهم حسنة ولا يغفر لهم سيئة)[٢] لأن هؤلاء حبطت أعمالهم.

---

(١) الخطبة الثانية لصلاة عيد الاضحى المبارك سنة ١٤٣٦ الموافق ٢٠١٥/٩/٢٤.

(٢) مجمع البيان: ٤٤٢/٦، تفسير البرهان: ٢٠٥/٥.

ما المراد من سوء الحساب الذي يخافه المؤمنون؟

لكن هذا المعنى لسوء الحساب قد لا يتلاءم مع سياق الآية التي نحن بصددها لأنها تصف قوماً على مستوى عالٍ من الإيمان، قال تعالى: (إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ، الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللّهِ وَلاَ يِنقُضُونَ الْمِيثَاقَ، وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ) (الرعد : ١٩-٢١).

فما المراد بسوء الحساب الذي يخافه هؤلاء وهم بهذه الدرجة من الإيمان، يشرح لنا الإمام الصادق (عليه السلام) وجهاً للمراد، فقد روي بسند معتبر عن حماد بن عثمان في تفسير قوله تعالى: (وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ) (الرعد:٢١) قال: (دخل رجل على أبي عبد الله (عليه السلام) فشكا إليه رجلاً من أصحابه، فلم يلبث أن جاء المشكو، فقال له أبو عبد الله (عليه السلام): ما لفلان يشكوك؟ فقال له: يشكوني أني استقضيت[1] منه حقي، قال: فجلس أبو عبد الله مغضباً، ثم قال: كأنك إذا استقضيت حقك لم تسئ؟! أرأيت ما حكى الله عز وجل في كتابه: (يَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ) أترى أنهم خافوا الله أن يجور عليهم أو يظلمهم؟ لا والله ما خافوا إلا الاستقضاء، فسمّاه الله عز وجل: (سُوءَ الحِسَابِ) فمن استقصى فقد أساء)[2].

---

(١)أي طلبت منه أن يقضي حقي، وفي معاني الأخبار وتفسير القمي (استقصيت) أي بلغ بالمسألة النهاية في طلبها، وهو الأقرب لمضمون الرواية.

(٢) الكافي: ١٠٠/٥، ح١، تفسير القمي: ٣٦٣/١، ومعاني الأخبار: ٢٤٦، وتفسير البرهان: ٢٠١/٥، وفي المعاني: (ولكنهم خافوا الاستقصاء والمداقّة) أي الحساب بدقة.

التدقيق في التعامل:

أقول: يظهر من الرواية أن سوء الحساب الذي يخافونه هو التدقيق في التعامل بمقتضى العدالة والمقابلة بالمثل فيحتسب الحسنات والسيئات كما هي، ففي تفسير العياشي عن الإمام الصادق (عليه السلام) في سوء الحساب قال: (أن تحسب عليهم السيئات وتحسب لهم الحسنات وهو الاستقصاء)، ولذا ورد في الأدعية أن الله تعالى إذا عاملنا بعدله هلكنا ((ومن عدلك مهربي)) ((ولا تعاملني بعدلك بل بفضلك))، وفي الدعاء عند الصعود على الصفا والمروة عن أمير المؤمنين (عليه السلام): (اللّهم لا تفعل بي ما أنا أهله، فإنك إن تفعل بي ما أنا أهله تعذبني ولن تظلمني، أصبحت أتقي عدلك، ولا أخاف جورك فيا من هو عدلٌ لا يجور ارحمني)[1].

الدرس العملي:

والدرس العملي الذي نستفيده هنا أننا كما نسال الله تعالى أن لا يدقّق معنا في الحساب وأن يعاملنا بفضله وكرمه ونخاف من المداقّة في الحساب، علينا أن نتأدب بهذا الأدب الإلهي في تعاملاتنا فإن سوء الحساب يعني المطالبة باستيفاء الحق كاملاً غير منقوص من دون مراعاة لما يحسن فعله بلحاظ حالة الطرف الآخر وظروفه وإمكانياته، ، لذا سُمّيَ أخذ الحق في بعض[2] الحالات عدواناً عندما يكون الأليق هو التسامح والعفو والتكرّم، والعدوان هو التجاوز

(١) وسائل الشيعة: ٤٧٨/١٣ باب ٤: استحباب الصعود على الصفا حتى يرى البيت، ح ٣.

(٢) وليس مطلقاً لان العقوبة والرد بالمثل والحزم مطلوب احيانا للردع والاستقامة والاصلاح.

والقيام بما ينافي الفعل الذي يناسب صدوره منه على ذلك الحال قال تعالى: (فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ) (البقرة: ١٩٤)، فكأن المرجو والفعل اللائق بناءاً على هذا التفسير هو تعامله بالعفو والصفح كما أمر تعالى، فكان ما يخالفه عدواناً أي تجاوزا للمتوقع منه وإن كان محقاً.

وهو أحد وجوه تفسير قوله تعالى: (وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ) (الشورى: ٤٠) فسمّى الرد على السيئة بمثلها سيئة، مع أن مقتضى العدالة المقابلة بالمثل.

وأن تعفوا أقرب للتقوى

وقد حثّنا الله تبارك وتعالى على أن نتعامل بيننا –كإخوة مؤمنين– بهذا الأسلوب، قال تعالى: (وَأَن تَعْفُواْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلاَ تَنسَوُاْ الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) (البقرة: ٢٣٧)، أي لا تنسوا معاملة الاخرين بالتفضل والتسامح في كل المعاملات والعلاقات ففي الحديث الشريف عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: (رحم الله عبداً سَمِحاً إذا باع، سَمِحاً إذا اشترى، سَمِحاً أذا قضى، سَمِحاً أذا اقتضى)[1] ولما كان الجزاء يوم القيامة منسجماً مع سلوك الإنسان وعمله في الدنيا، فإن كان متسامحاً في تعامله مع الناس حوسب باليسر والكرم، وإلا شدد عليه مقاصة له لأنه التزم بهذه الطريقة من التعامل في الدنيا، قال تعالى: (فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ، فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً، وَيَنقَلِبُ إِلَى

(١) بحار الانوار: ٩٥/١٠٣ ح ١٧ ، كنز العمال: ٩٤٥٣، ميزان الحكمة: ١ / ٤٩٣.

أَهْلِهِ مَسْرُوراً) (الانشقاق: ٧-٩) وفي مقابلهم أصحاب الشمال (فَحَاسَبْنَاهَا حِسَاباً شَدِيداً وَعَذَّبْنَاهَا عَذَاباً نُّكْراً) (الطلاق: ٨).

من اللطائف أن الله تعالى لم يسم نفسه بالعادل:

والملفت أن الله تعالى لم يصف نفسه في القران الكريم بأنه عادل ولم يرد هذا الاسم في الأسماء الحسنى على كثرتها لأن كرمه ورحمته وفضله سبقت عدله، فهو تعالى لا يؤاخذ بالمثل ولا يعاملنا بهذا المعنى من العدل، نعم وصف تعالى نفسه بما يلزم من العدل وهو إنصاف المخلوقين وعدم بخسهم اشيائهم وعدم الجور في الحكم عليهم وهو حسنٌ دائماً (وَمَا رَبُّكَ بِظَلَامٍ لِّلْعَبِيدِ) (فصلت-٤٦) فالعدل المقصود هو عدم الجور والظلم وأن من حقه تعالى الجزاء بالمثل إنْ أراد.

ولذا أردف الله تعالى الإحسان بالعدل حينما لخّص جوهر الرسالات السماوية وما يريده الله تبارك و تعالى، قال سبحانه: (إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ) (النحل: ٩٠) لأن العدل قد يكون منافياً لمقتضى الإنصاف والإحسان فيكون غير محبوب بل قد يكون ظلما في بعض المراتب ولو أخلاقيا، وقد بحثتُ ذلك مفصلاً في مسالة توريث أولاد الاولاد مع وجود الاولاد[1].

(١) راجع المجلد العاشر من موسوعة فقه الخلاف.

إن قلت قلت:

إن قلت: كيف يكون العدل ظلماً وهل هذا الا من اجتماع الضدين.

قلت: ليس هذا من اجتماع الضدين لأن ما يقابل العدل لغةً ليس هو الظلم بل الجور وهو الحيف في الحكم، فيمكن اجتماع العدل مع الظلم بمرتبة من المراتب ولو أخلاقياً، أي أن الحكم يكون عادلاً، الا أنه لا يكون منصفاً أو إنه خالٍ من الإحسان بلحاظ طرف آخر، كما في الروايات الواردة في تفسير قوله تعالى: (وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ، فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلّاً آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً) (الأنبياء:٧٨-٧٩).

فقد حكم داوود بالغنم ضماناً لصاحب الزرع لأن صاحبها لم يحبسها ليلاً وهذا ما جرت به شرائع الأنبياء السابقين أما سليمان (عليه السلام) فقد حكم بالضمان لكن بنحو آخر وهو أن يدفع الضامن غنمه إلى صاحب الزرع ليستفيد من لبنها وصوفها ويغرم هو صلاح الأرض حتى تعود إلى ما كانت عليه فيعيد كلٌ منهما إلى الآخر ماله، وهنا حافظ سليمان (عليه السلام) على مقتضى العدل لكن من دون إضرار بالضامن خصوصاً وأنه ليس معتدياً وإنما كان مقصّراً.

لكي نستوعب الدرس في حياتنا:

ولو استوعبنا هذا الدرس الأخلاقي وطبقناه في حياتنا لاستطعنا تجنب الكثير من المشاكل في المجتمع التي منشأها التدقيق في محاسبة الآخرين على كل صغيرة وكبيرة ومطالبة كل طرف باستقصاء حقه من الآخر من دون مراعاة لحاله وظروفه، وأمثلة ذلك من الواقع كثيرة، كما يحصل بين الورثة حينما

يطالب البعض مثلاً بحصته من الدار التي يسكنها الورثة الآخرون وهو يعلم أنهم لا يتمكنون من إعطائه وأن بيع الدار فيه مشقّة عليهم ولكنه يصرّ على طلبه.

أو الزوج يحاسب زوجته على كل تقصير أو غفلة والزوجة تراقب زوجها وتسأله عن كل تصرفاته ويحاول كل منهما أن يفرض إرادته ورأيه على الآخر فيتخاصمان وتذهب المودّة بينهما وقد يخرب بيتهما بسبب إصرار كل منهما على انتزاع ما يتصور أنها حقوقه دون مراعاة لظروف الآخر.

أو دائن يلحّ على المدين بالتسديد وهو في حرج وصعوبة وقد يضطر لبيع داره أو حاجاته الشخصية فهذا من سوء الحساب ومخالف لسيرة المعصومين (عليهم السلام) وأصحابهم البررة كمحمد بن أبي عمير وهو من أجلاء أصحاب الإمام الكاظم والرضا والجواد (عليهم السلام) وقد ألّف عشرات الكتب وكان عالماً عاملاً مخلصاً، وعرض عليه هارون العباسي منصب القضاء فرفضه فأمر الطاغية بحبسه وتعذيبه فقضى سبعة عشر عاماً في السجن لاقى فيها صنوف التعذيب والوحشية، وكان قبل أن يسجن تاجراً ثرياً وخرج من السجن في عوز شديد وقد أنهكته الأمراض، وكان أحد زبائنه مديناً له بعشرة آلاف درهم فرأى من الوفاء أن يرد إليه دينه ولكنه لا يملك هذا المقدار فباع داره وجاء بالمبلغ إلى ابن أبي عمير، فسأله ابن أبي عمير عن كيفية تدبيره هذا المبلغ الكبير هل وهبه له أحد أو ورثه من قريب له؟ فأجاب الرجل بالنفي وأنه باع داره ليقضي بثمنها دينه فرفض ابن أبي عمير قبضها وقال: ((حدثني ذريح المحاربي عن أبي عبد

الله (عليه السلام) أنه قال: (لا يُخرَج الرجل من مسقط رأسه بالدين)[1]، ارفعها فلا حاجة لي فيها، والله إني محتاج في وقتي هذا إلى درهم، وما يدخل ملكي منها درهم))[2].

سوء الحساب له مراتب:

ومما تقدم يظهر أن سوء الحساب له مراتب فبعضه حقيقي في أدنى مراتبه كالذي أُعد للمعرضين عن الله تعالى، وبعضه نسبي بلحاظ درجات الكمال، فإن البعض يرى أن مجرد إيقافهم للحساب، أو لمجرد معاتبتهم على شيء أنه من سوء الحساب.

روى في مجمع البيان حديثاً فيه (من نوقش في الحساب عُذِّب) بغضّ النظر عن أي عقوبة فبمجرد مناقشة الشخص وتعريضه للحساب والمساءلة تعذيب وفي مصباح الشريعة قال الصادق (عليه السلام): (لو لم يكن للحساب مهولة إلا حياء العرض على الله وفضيحة هتك الستر على المخفيات لحقَّ للمرء أن لا يهبط من رؤوس الجبال ولا يأوي إلى عمران ولا يأكل ولا يشرب ولا ينام إلا عن اضطرار متصل بالتلف).

ولذا فإن أهل المعرفة لا يركنون إلى طاعة ويرون أن حسابهم سيئ لو عاملهم الله تعالى بعدله وحاسبهم كما هم أهله وليس بما هو أهله من الفضل

(١) أي لا يجوز إجبار المدين على بيع دار سكنه من اجل تسديد الدين.

(٢) بحار الأنوار: ٢٧٣/٤٩، تأريخ الإمام الرضا (عليه السلام)، عن علل الشرائع: باب ٣١٣، ح٢.

والكرم والرحمة (فاني لم آتك ثقةً بعملٍ صالحٍ عملته)[١]، ويعدّون طاعتهم سيئات يطلبون الإقالة منها بلحاظ ما يليق برب العزة والجلال، تأمّل في ما ورد في دعاء الإمام الحسين (عليه السلام) يوم عرفة (إلهي كم من طاعة بنيتها وحالة شيّدتها هدم اعتمادي عليها عدلك بل أقالني منها فضلك)[٢].

فهذه المراتب كلها يخافونها ويعدون هذا الحساب سيئاً بالنسبة لهم وهم يطمحون إلى أن يكونوا من الذين لا يرون حساباً أصلاً ويدخلهم الله تعالى في رضوانه بغير حساب، كعدة اصناف ورد في حقهم ذلك (منهم) الصابرون، قال تعالى: (إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ) (الزمر:١٠).

(ومنهم) الذين يحبون الله تبارك وتعالى ويحبِّبونه الى خلقه ويرضون بقضائه روي عن النبي (صلى الله عليه وآله) أنه قال: (اني لأعرف ناساً ما هم أنبياء ولا شهداء يغبطهم الانبياء والشهداء بمنزلتهم يوم القيامة: الذين يُحبّون الله ويحببونه الى خلقه يأمرونهم بطاعة الله فإذا أطاعوا الله أحبهم الله)[٣] وروي عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) أنه قال: (إذا كان يوم القيامة أنبت الله لطائفة من أمتي أجنحة فيطيرون من قبورهم إلى الجنان يسرحون فيها ويتنعمون كيف شاؤوا فتقول لهم الملائكة: هل رأيتم حساباً؟ فيقولون: ما رأينا حساباً، فيقولون: هل جزتم على الصراط؟ فيقولون: ما رأينا صراطاً، فيقولون لهم: هل رأيتم جهنم؟

(١) مصابيح الجنان: ٦١٩ من ادعية ليلة الجمعة وليلة عرفة وأوله (اللهم من تهيأ وتعبأ.....).

(٢) مفاتيح الجنان: ٣١٥.

(٣) مجمع الزوائد للهيثمي : ١ /١٢٦ وللتفصيل اكثر راجع خطاب المرحلة : ٦/ ١٥١ – ١٦٥.

فيقولون: ما رأينا شيئاً، فتقول الملائكة: من أمة من أنتم؟ فيقولون: من أمة محمد (صلى الله عليه وآله)، فيقولون: نشدناكم الله حدثونا ما كانت أعمالكم في الدنيا فيقولون: خصلتان كانتا فينا فبلّغنا الله هذه المنزلة بفضله ورحمته، فيقولون: وما هما؟ فيقولون: كنا إذا خلونا نستحي أن نعصيه ونرضى باليسير مما قسم لنا، فتقول الملائكة: يحق لكم هذا)[1].

(ومنهم) الشهداء فأن الله تعالى يُسقط كل حق له وفي الحديث عن الإمام الباقر (عليه السلام) قال: (كل ذنب يكفّره القتل في سبيل الله عز وجل إلا الدَيْن لا كفارة له إلا أداؤه، أو يقضي صاحبه أو يعفو الذي له الحق)[2]، فأن الدَين من حقوق الناس ولابد من ادائه اليهم او استرضائهم، قد روي أن الامام الحسين (عليه السلام) لم يأذن بالقتال معه لمن كان عليه دين إلا ان يوصي بقضائه .

(١) تنبيه الخواطر ونزهة النواظر، المعروف بمجموعة ورّام: ٢٣٠/١.

(٢) الكافي: ٩٤/٥، ح٦.

القبس القرآني

٦٠

(ومِنَ النّاسِ مَن يَعبُدُ اللّهَ على حرفٍ)[1]
عدم الثبات على الحق

[الحج: ١١]

قال تعالى (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ) (الحج/١١) تصف الآية صنفاً من الناس موجودا في كل زمان ، ظاهره متديّن يتكلّم بالدين ويمارس المظاهر الدينية لقوله تعالى في وصف هذا الصنف انه (يَعْبُدُ اللَّهَ) لكن تدينه قلق غير مستند إلى قاعدة متينة وانما هو كالواقف على حافة الهاوية ويمكن ان يسقط فيها في أي لحظة لأنه ينظر الى الدين من زاوية واحدة ويتعامل معه بمقياس واحد هو مقياس مصالحه والفوائد التي يجنيها من هذا الدين،(أَفَرَأَيْتَ مَن اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاه) (الجاثية/٢٣) وإن لم ينتفع منه تركه وتخلى عنه الى غيره حيث يظن وجود المصلحة والمنفعة.

(فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ) فإن حصل على نفع دنيوي من مال أو جاه أو منصب أو أي امتيازات يسعى اليها الناس في الدنيا رضي بهذا الدين واستمر عليه وهو في الحقيقة اطمئنان ورضا بمصالحه، (وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ) أي تعرض لصعوبات الابتلاء

(١) ألقيت يوم الجمعة ٢٨/صفر١٤٣٧ الموافق ٢٠١٥/١٢/١١ وقد شارك بها ممثل عن سماحة الشيخ المرجع (دام ظله) في مؤتمر الطف الدولي السابع الذي أقامته كلية الآداب في الجامعة المستنصرية يومي ٧-٢٠١٥/١٢/٨ وجعلها سماحته إنموذجاً لوحدة الخطاب القرآني والحسيني.

والامتحان (انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ) بأن يرجع الى حرفه الذي يعبد الله تعالى عليه والوجه الذي كان ينظر من خلاله الى طاعة الله تعالى ويترك هذا الدين وينبذه ويرفضه، ولم يقل تعالى (وإن أصابه شر) لأن ما أصابه قد يكون خيراً إما في العاجل أو الآجل من الدنيا أو الآخرة، ولكنه لنظرته الضيقة الى الامور ولأنانيته وعدم امتلاكه البصيرة والرؤية الصحيحة للامور اعتبر ما حصل شراً فانقلب على وجهه، وكأنه هو الذي يعرِّض الدين للاختبار، فإن جلب له المنفعة كان صدقاً وحقاً والا فلا.

مثلاً انضم الى جماعة المتدينين للحصول على منصب أو مال أو وجاهة اجتماعية فلمّا لم يحصل عليها رفض الدين ، ولعل حرمانه من هذه الامور خير له، لانه لا ينجح في امتحانها، لكن مدى تفكيره محدود فكانت نتيجته (خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ)، لأنه حُرِمَ من الدنيا التي كان يسعى للحصول عليها فتنة من الله تعالى له وبقلقه واضطرابه وانفعاله وعدم استقرار حاله، وخسر الآخرة بتركه لسبب السعادة والفلاح وهو الدين.

وهذا الوصف لحاله في الدنيا سيتجسد على أرض الواقع والحقيقة في الاخرة حيث تبلى السرائر وتنكشف البواطن على حقيقتها وأشارت الروايات الى ذلك حين وصفت الصراط بأنه أدق من الشعرة وأحدّ من السيف وإن من الناس من يعبره الى الجنة كالبرق الخاطف وآخر ركضاً وآخر زحفاً بحسب استحقاقاتهم وآخر يتمايل عليه ولا يستقر ثم يهوي منه في نار جهنم لان الصراط ممدود عليها، فهذا الصنف الاخير هو من كان في الدنيا قلقاً في تدينه غير مستقر

وينقلب عن الدين إذا اصيب بابتلاء وهذا معنى سقوطه في جهنم.

روى في الدر المنثور عن أبي سعيد قال (أسلم رجل من اليهود فذهب ببصره وماله وولده فتشاءم بالاسلام فأتى النبي (صلى الله عليه وآله) فقال: أقلني. فقال: إن الإسلام لا يقال، فقال: لم اصب في ديني هذا خيرا، ذهب بصري ومالي ومات ولدي، فقال (صلى الله عليه وآله) يا يهودي الاسلام يسبك الرجال كما تسبك النار خبث الحديد والذهب والفضة، ونزلت الآية)[1].

وقد وردت عدة روايات معتبرة في تفسير الآية في الكافي وغيره منها ما رواه زرارة عن الإمام الباقر (عليه السلام) قال: (سألته عن قول الله عز وجل (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ) قال: هم قوم وحدّوا الله وخلعوا عبادة من يُعْبَدْ من دون الله فخرجوا من الشرك، ولم يعرفوا أن محمداً (صلى الله عليه وآله) رسول الله فهم يعبدون الله على شكٍّ في محمدٍ (صلى الله عليه وآله) وما جاء به[2]، فأتوا رسول الله (صلى الله عليه وآله) وقالوا: ننظر فإن كثرت أموالنا وعوفينا في أنفسنا وأولادنا علمنا أنه صادق وأنه رسول الله، وإن كان غير ذلك نظرنا، قال الله عز وجل (فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ) يعني عافية في

(١) الدر المنثور: ٣٤٦/٤.

(٢) وكان بعض هؤلاء من الصحابة المعدودين قريبين للنبي (صلى الله عليه وآله) لكنهم كانوا يشككون في تصرفاته ويعترضون ويتمردون كما تنقل كتب الفريقين وفي آخر حياته قالوا (إن الرجل ليهجر) وهؤلاء كانوا مستعدين للانقلاب عن الدين والرجوع الى جاهليتهم كما أخبر عنهم الله تعالى (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ) (آل عمران : ١٤٤) فرأى امير المؤمنين (عليه السلام) ان الصبر على المظالم التي لحقت به أحجى وقد سجل ذلك كله في خطبه المأثورة.

الدنيا (وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ) يعني بلاءً في نفسه وماله (انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ) انقلب على شكّهِ الى الشرك (خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ. يدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُ وَمَا لا يَنفَعُهُ) قال: ينقلب مشركاً، يدعو غير الله ويعبد غيره، فمنهم من يعرف ويدخل الإيمان قلبه فيؤمن ويصدّق، ويزول عن منزلته من الشك الى الإيمان، ومنهم من يثبت على شكّه ومنهم من ينقلب الى الشرك)[1].

فهؤلاء يقفون على الحافة - والحرف هو حد الشيء وحافته ومنتهاه دون أصله وحقيقته كما يقال حرف الجبل أي منتهاه وليس كل حد وجانب حرفاً حتى تكون له قابلية ربط الشيء بغيره كالحرف الهجائي فانه الحد الذي تنتهي اليه الكلمة ولا معنى له في نفسه لكنه يربط بين ما له معنى، ومنه التحريف أي الخروج عن المعنى الوسط المعتدل المعروف الى حافته المشتبهة – متزلزلين غير ثابتين لم يتمكن الدين من قلوبهم ونفوسهم، يسقطون في أول اختبار وامتحان فينقلبون على وجوههم.

وقد شخص الإمام الحسين (عليه السلام) هذه الظاهرة في حياة المجتمع فقال (عليه السلام): (النّاسَ عَبِيدُ الدُّنْيا وَالدِّينُ لَعِقٌ عَلى ألسِنَتهم، يَحُوطُونَهُ ما دَرَّت مَعائِشُهُم، فَإذا مُحِّصُوا بِالبَلاءِ قَلَّ الدَّيّانُونَ).

وهذه الظاهرة الاجتماعية في حياة الناس لا تختص بالكافرين أو المنافقين كما ربما يتصور، بل تشمل الذين يتظاهرون بالشكليات الدينية لكنهم في أخلاقهم وتعاملاتهم وسلوكهم وصفاتهم النفسية أبعد ما يكونون عن الدين،

(١) تفسير البرهان: ٣١٠/٦ عن الكافي: ٣٠٣/٢ ح ١ ، ٢.

لقوله تعالى (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ) فهم يمارسون الطقوس الدينية لكنهم لا يعملون بحقيقتها، ولا أُريد أن استغرق ببيان النماذج لوضوحها لدى الناس خصوصاً من السياسيين الذين يتسترون بالعناوين الدينية، لكن همهم الاول والاخير دنياهم واهوائهم ومصالحهم وتراهم يُداهنون ويتنازلون عن المبادئ الدينية الثابتة إذا أضرت بمصالحهم، ومن أمثلة هؤلاء من يقلد مرجعاً دينياً والمفروض أنه قلده بحجة شرعية، فاذا اصطدم هذا التقليد مع مصلحة له أو وجد منفعة دنيوية أفضل عند غيره عدل اليه ولا يسال عن الحجة الشرعية في ذلك.

هذا سلوك غريب لأن المفروض أن تكون العقيدة هي الأصل وهي المسطرة الثابتة التي تقاس صحة الامور وبطلانها على أساسها فما وافقها - وإن اقترن بالمصاعب والبلاءات- فهو حق والا فهو باطل وإن جلب بعض المنافع الدنيوية، وليس العكس كما عليه هؤلاء من الاضطراب والتشتت، فهذا خلل كبير في الايمان الذي يدعيه هؤلاء وانحطاط في فهم الدين ولوازمه، لأن المؤمن الحقيقي لا يأخذ على إيمانه جزاءً دنيويا لأن دينه ليس سلعة قابلة للبيع والشراء وجلب المنافع، وإنما يبتغي بإيمانه والتزامه رضى الله تبارك وتعالى، ويعتبر التزامه بالدين توفيقاً من الله تعالى ولطفاً منه تبارك وتعالى ونعمة لا تجازى ويعجز عن شكرها وبالدقة يرى الملتزم بالدين حقاً ان نفس استمراره وثباته على الدين وما يترشح عنه من اطمئنان وسعادة وسمو هو أفضل جزاء يعطيه الله تعالى له على التزامه بالدين.

والأغرب من ذلك في سلوك هذا الصنف من الناس أنه حينما يتخلى عن

المبادئ الدينية والمنهج الالهي الذي لا يوجد أفضل منه فما هو البديل الذي يلتزم به (يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُ وَمَا لا يَنفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ) (الحج/١٢-١٣) هذا هو الضلال المبين أن يتخذ من المخلوقات التي لا تملك لنفسها ضراً ولا نفعاً سواء كانت أصناماً حجريةً أو بشريةً أو أهواء نفسية أو مصالح أو أعراف وتقاليد يتخذ منها المولى والعشير والقائد الذي يتبعه (ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ) الغارق في الضلال والبعيد عن العودة الى الطريق الصحيح.

ويروي التاريخ شواهد كثيرة لمثل هؤلاء كعبيد الله بن الحر الجعفي الذي كان مواليا لأمير المؤمنين (عليه السلام) ولما طلب الامام الحسين (عليه السلام) منه النصرة وهو في طريقه الى الكوفة امتنع وأهدى له سيفه وفرسه فرفضهما الإمام الحسين (عليه السلام) ثم ندم على خذلانه وصار قائداً في جيش المختار الثقفي ثم انشق عنه والتحق بمصعب بن الزبير وقاتل معه المختارَ حتى انتصروا ثم تمرد عليه بجمع من الجيش وغادر الكوفة.

ومثل شبث بن ربعي الذي كان في جيش أمير المؤمنين (عليه السلام) في صفين ثم سقط في فتنة الخوارج، وبعدها كان ممن كاتب الإمام الحسين (عليه السلام) طالباً منه المجيء الى الكوفة لكنه انخدع بمناصب الولاة والتحق بجيش بن زياد لقتال الإمام الحسين (عليه السلام) وكان قائداً للمقاتلين المشاة (الرجّالة) يوم عاشوراء وقد ذكره الإمام الحسين (عليه السلام) باسمه في احتجاجه على الجيش المعادي حين نادى: (يا شبث بن ربعي، ويا حجار بن أبجر، ويا قيس بن الأشعث، ويا يزيد بن

الحارث، ألم تكتبوا لي أن أينعت الثمار واخضرّ الجناب، وإنما تقدم على جند لك مجندة)[١].

ومما جرى من الحوارات يوم عاشوراء لما خطب الحسين (عليه السلام) واحتج عليهم بالكثير مما قاله رسول الله صلى الله عليه وآله ورواه أصحابه قاطعه الشمر قائلا عن نفسه: هو يعبد الله على حرف إن كان يدري ما تقول.

فقال له حبيب بن مظاهر: والله اني أراك تعبد الله على سبعين حرفاً وأنا أشهد أنك صادق ما تدري ما يقول قد طبع الله على قلبك[٢].

ولما كانت الامور تعرف بأضدادها، فمن ضد هذا الوصف وهذه الصورة نتعرف على ما يجب أن تكون عليه قيمة الدين في حياة الانسان فهو مستقر في قلبه ووجدانه، سعيد به ثابت عليه، يلجأ اليه في كل اموره، ويجعله قائداً له في حياته يستهدي به ويزن به الامور، فيفرّق به بين حقها وباطلها، وهذا الثبات والاستقرار في العقيدة تجسّد في أصحاب الحسين (عليه السلام) وأهل بيته بحيث يفرحون ويستبشرون حينما يُعْلِمَهُمْ الامام الحسين (عليه السلام) بالقتل.

(١) الارشاد للمفيد: فصل: خروج مسلم ابن عقيل – رحمة الله عليه – بالكوفة يوم الثلاثاء.

(٢) مقتل الحسين للسيد المقرم: ٢٧٩.

القبس القرآني

٦١

(إِنْ أُرِيدُ إِلا الإِصْلاح)[1]

[هود : ٨٨]

الإصلاح رسالة الأنبياء جميعا:

الحسين عليه السلام وارث الأنبياء جميعاً بحسب ما نطقت به الزيارة المشهورة المروية عن الأئمة عليهم السلام والمعروفة بزيارة (وارث) وعنده اجتمعت رسالات الأنبياء جميعاً ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً﴾ (الأحزاب ٣٩).

وماذا كانت رسالات الأنبياء، لقد لخّصها نبي الله شُعيب عليه السلام في قوله تعالى ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ (هود/٨٨)، هذه هي رسالة الأنبياء جميعاً (الإصلاح) وان تنوعت آليات عملهم واختلفت شرائعهم من حيث الاجمال والتفصيل، لكن ما أجمله النبي السابق فصّله النبي اللاحق، وما فصّله النبي اللاحق يرجع في أصوله إلى ما أجمله السابق (صلوات الله عليهم أجمعين).

واختتمت هذه الرسالات برسالة الإسلام التي بلّغها النبي صلى الله عليه وآله وواصلها من بعده أمير المؤمنين عليه السلام ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ

(١) من حديث سماحة الشيخ اليعقوبي (دام ظله) مع جمع من المبلغين والخطباء ومرشدي الحجاج في مدينة كربلاء المقدسة يوم الخميس ٣٠/ذ.ح/١٤٣٣ الموافق ٢٠١٢/١١/١٥.

فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ (المائدة/٦٧) يقول أمير المؤمنين عليه السلام «اللهم انك تعلم أنه لم يكن الذي كان منّا منافسة في سلطان، ولا التماس شيء من فضول الحطام، ولكن لنردّ المعالم من دينك، ونظهر الإصلاح في بلادك، فيأمن المظلومون من عبادك وتقام المعطّلة من حدودك»[١].

خرجت لطلب الإصلاح:

فهدف الأنبياء والأئمة (صلوات اللهم عليهم) هو (الإصلاح) ولما كان الإمام الحسين عليه السلام قد ورثهم جميعاً فمن الطبيعي أن تكون رسالته عليه السلام ومشروعه هو (الإصلاح) وقد عبّر عليه السلام عن ذلك صريحاً في خطاباته التي عرّف من خلالها بأهداف خروجه المبارك، وسجّله في وصيته التي دوّنها وختمها وأودعها عند أخيه محمد بن الحنفية، ومما جاء فيها «إنّي لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً وإنّما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدّي صلى الله عليه وآله أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر وأسير بسيرة جدّي وأبي علي بن أبي طالب عليه السلام»[٢].

ومن خطبته على الحر الرياحي وأصحابه لمّا وصل (البيضة) قوله عليه السلام «ألا وأنّ هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد وعطّلوا الحدود واستأثروا بالفيء، وأحلّوا حرام الله، وحرّموا حلاله، وأنا أحقّ من غيّر»[٣].

ويظهر من كلمة أمير المؤمنين عليه السلام وولده الإمام الحسين عليه السلام التواصل

---

(١) نهج البلاغة الخطبة ١٣١.

(٢) بحار الأنوار: ٤٤/ ٣٢٩.

(٣) تاريخ الطبري: ٤/ ٦٠٥، الكامل في التأريخ: ٣/ ٢٨٠.

والتطابق في الهدف، وإنّ الاصلاح الذي سعى إليه المعصومون عليهم السلام وتحمّلوا مسؤوليتهم وبذلوا وسعهم لتحقيقه هو مشروع متكامل لا يختص بالأمور الدينية (أي الوعظ و الإرشاد وتعليم أحكام الدين وإن كان هذا هو الأساس) بل يشمل نواحي الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والفكرية، فيقضي على الفساد المالي والإداري ومنع الاستئثار بالأموال العامة وحرمان الشعب من حقوقهم، وإقامة النظام العادل الذي ينصف الناس جميعاً وينتزع حق المظلوم من ظالمه، ويطبّق الحدود والقوانين.

تمام الصلاح بإصلاح القيادة الدينية والسياسية:

وإنّما يتم الصلاح ويكمل ويبلغ غايته عندما تصلح قيادتاه الدينية والسياسية، وتفسد الأمة إذا فسدت مؤسسته الحاكمة ولم تقم القيادة الدينية بواجباتها ومسؤولياتها، روي عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «صنفان من أمتي إذا صلحا صلحت أمتي وإذا فسدا فسدت أمتي، قيل: يا رسول الله ومن هما؟ قال: الفقهاء والأمراء»[1].

ومن دون مباشرة هذا المدى الواسع من الإصلاح تبقى حركته محدودة ومحجّمة وربما تذوب تدريجياً، تصوروا لو أن دعوة النبي صلى الله عليه وآله إلى الإسلام بقيت في حدود مكة وتحت قبضة وبطش طواغيت قريش فإن المؤمنين بها سوف لا يزيدون عن العشرات الذي آمنوا فقتل بعضهم وهُجِّر البعض الآخر إلى الحبشة وحوصر النبي صلى الله عليه وآله ومن معه في شعب أبي طالب عليه السلام لكنّ النبي صلى الله عليه وآله

(١) الخصال: ٣٦ باب الاثنين.

كان يسعى لتوسيع دعوته وعرض نفسه على قبائل العرب حتى بايعه نفر من الأوس والخزرج في بيعة العقبة الأولى وأخذ منهم المواثيق على الطاعة والنصرة في بيعة العقبة الثانية وأرسل معهم الشهيد مصعب بن عمير لتعليمهم الدين ثم هاجر صلى الله عليه وآله وأسس دولته المباركة لينشر الإسلام العظيم إلى كل الدنيا.

لا مكان للإنزواء في النهضة الحسينية:

أما ما دأبت عليه مرجعيات كثيرة على مدى قرون ومقلّدوهم من الإنزواء والانكماش والسلبية والعزوف عن العمل بالآليات الممكنة لإيجاد بيئة مشجّعة على الدين والصلاح فإنه تقصير غير مبرَّر وله عواقب وخيمة فلابد من استثمار كل فرصة لإيجاد هذه البيئة بل صنع الفرصة لها وليس انتظارها لاستثمارها.

لذا لم يجد الإمام الحسين عليه السلام لنفسه عذراً في القعود عن تصحيح وضع السلطة الحاكمة ومعالجة انحرافاتها بكل ما أتاه الله، فجاد بنفسه الشريفة وبأهل بيته وأصحابه، وعَرَّض حُرَمَ رسول الله صلى الله عليه وآله للسبي بيد الأعداء من بلدٍ إلى بلد، وكان يمكنه الاكتفاء بموقعه الديني وامتيازاته التي يحظى بها في المجتمع ويكتفي بالحد الأدنى من العمل، لكنّه عليه السلام وهو سبط رسول الله صلى الله عليه وآله وريحانته ووارثه، أصرَّ على اللحاق بركب جده المصطفى صلى الله عليه وآله، قال عليه السلام في خطبته على الحرّ وجيشه «أيّها الناس، إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله: قال: من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرم الله، ناكثاً لعهد الله، مخالفاً لسنة رسول الله صلى الله عليه وآله يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يغيّر عليه بفعلٍ ولا قول كان حقاً على الله أن يدخله مدخله».

وهذا بابٌ ينفتح منه ألفُ باب للحديث عن علاقة العلماء بالسلطة ودورهم

في العملية السياسية وفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وموقع الأمة من كل ذلك وغيره مما لا يسع الحديث لبيان تفاصيله الآن[١].

صلاح النفس قبل الإصلاح، وكيفية اصلاح النفس:

ولابد لمن يتصدى لهذه المسؤولية أن يبدأ بإصلاح نفسه ويجعل من نفسه فرداً صالحاً قال تعالى ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (الرعد/١١)، وقد دلّنا أمير المؤمنين عليه السلام على آليات الإصلاح في ميدان النفس وعناصر النجاح في هذه العملية فهي تحتاج أولاً وقبل كل شيء إلى **توفيق من الله تعالى**، قال عليه السلام (التوفيق قائد الصلاح).[٢]

ثمّ إلى تقوى من العبد، قال عليه السلام: (التقوى مفتاح الصلاح).

وإلى مداومة على ذكر الله تعالى، قال عليه السلام: «أصل صلاح القلب اشتغاله بذكر الله»، وقال عليه السلام: «مداومة الذكر قوت الأرواح ومفتاح الصلاح».

وتحتاج **إلى مجاهدة للنفس** لضمان الاستمرار على العناصر المتقدمة والمحافظة عليها، قال عليه السلام «في مجاهدة النفس كمال الصلاح».

خطوات عملية للصلاح:

وهناك خطوات عملية تساعد على إصلاح الباطن، منها:

---

(١) حُرر هذا البحث في كتاب (فقه المشاركة في السلطة) والمجلد الثاني من كتاب (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر).

(٢) الحديث وما بعده في غرر الحكم وصفحاتها على الترتيب ٢٥، ٤١، ١٦٠، ٦٦١، ٤٦٩، ثمّ ١٦٢، ٧٩، ٤٤٩، ٤٧١، ١٧٠، ٣١٠، ٣٦٥.

١- مصاحبة المؤمنين الأخيار الصلحاء، قال عليه السلام: «أكثرُ الصلاح والصواب في صحبة أولي النهى والألباب».

٢- مداراة الناس والرفق بهم واللطف معهم، قال عليه السلام: «الرفق لقاح الصلاح وعنوان النجاح، وقال عليه السلام عوّد نفسك السماح وتجنّب الإلحاح يلزمك الصلاح».

٣- تجنب معاشرة أهل الدنيا والغفلة عن الله تبارك وتعالى، قال عليه السلام «في اعتزال أبناء الدنيا جِماع الصلاح».

٤- عدم الاكثار من المباحات ككثرة الطعام والشراب والنوم ونحوها قال عليه السلام: «إذا ملئ لبطن من المباح عمي القلب عن الصلاح».

٥- تجنّب الصفات المذمومة كالكذب وإيذاء الناس، قال عليه السلام: «أبعد الناس عن الصلاح الكذوب وذو الوجه الوقّاح».

٦- محاسبة النفس وتدارك ما فاته من تقصير وخلل وردّ المظالم إلى أهلها وقضاء ما فات، قال عليه السلام: «حسن الاستدراك عنوان الصلاح».

السعي الحثيث لتحقيق الأهداف الحسينية:

هذه هي رسالة الإمام الحسين عليه السلام وارث الأنبياء، فمن أحبَّ نصرته في كل زمان ومكان واللحاق بأصحابه فليمضي على ما مضى عليه عليه السلام وليدخل السرور على قلبه الشريف بالسعي الحثيث لتحقيق الهدف من رسالته، على هذا النحو من الوعي وهذه المعرفة.

لكن مع الالتفات إلى ما نبهنا عليه مراراً من الدعوة إلى هذا المستوى من فهم النهضة الحسينية، لا يعني إلغاء الأنماط الأخرى من التعاطي معها كالشعائر

التي يؤديها عامة الناس ما دامت منضبطة بالحدود الشرعية.

لأن لكل فئة مستواها من التربية والسير في طريق الكمال، ولا يحق لأحد أن يسقط الآخر.

القبس القرآني

٦٢

﴿الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾[١]

[إبراهيم : ٢٨]

يرجون وعده ويخشون عذابه:

من آداب تلاوة القرآن الكريم أن نقف عند كل آية عذاب وتحذير وتخويف وتهديد لنتوقع استحقاقنا لها، وأن نقف عند كل آية وعد وترغيب وتكريم ونعيم لنرجو أن نكون مشمولين بها، ولا نتصور أننا في مأمن ومنأى من آيات التخويف والتهديد، ورد في وصف سيرة الإمام الرضا (عليه السلام) إنه كان (يكثر بالليل في فراشه من تلاوة القرآن فإذا مرّ بآية فيها ذكر جنة أو نار بكى وسأل الله الجنة وتعوّذ من النار)[٢] وروي عن الإمام الصادق (عليه السلام) في صفة الذين يتلونه حق تلاوته قال (عليه السلام) (ويرجون وعده ويخشون عذابه)[٣] ولنأخذ ذلك مثلاً قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَةَ اللّهِ كُفْراً وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ (إبراهيم/٢٨).

---

(١) كلمة سماحة المرجع اليعقوبي (دام ظله) مع طلبة فروع جامعة الصدر الدينية في المحافظات المتفوّقين في الامتحان المركزي الذي أُجريَ لهم في النجف الأشرف، يوم الأحد ٢٨/ذ.ح/١٤٣٤ الموافق ٢٠١٣/١١/٣.

(٢) عيون أخبار الرضا: ١٨٢/٢ ح٥.

(٣) تنبيه الخواطر: ٢٣٦/٢.

كم من مُنعم عليه وهو لا يعلم

يتصور أكثر الناس أن النعمة هي المال والحياة المرفّهة، وهذا لا شك مصداق مهم للنعمة لكن مصاديقها أوسع من ذلك بكثير مما لا يلتفت إليه أغلب الناس، عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال (الصحة والفراغ نعمتان مكفورتان) وعنه (صلى الله عليه وآله) (نِعمتان مكفورتان: الأمن والعافية) وعنه (صلى الله عليه وآله) (نعمتان مفتون فيهما كثير من الناس: الفراغ والصحة).[1]

وكل نعمة من هذه النعم تتحلل إلى ما لا يعد ولا يحصى من النعم، قال تعالى (وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا) (النحل/١٨) وقد شرحنا في بعض خطبنا السابقة أمثلة على ذلك، ولكن الإنسان يغفل عنها غالباً، عن الإمام الصادق(عليه السلام) قال (كم من مُنعَم عليه وهو لا يعلم) ولا يحسّ بقيمتها إلا إذا فقدها لا سامح الله، عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: (من كان في النعمة جهل قدر البليّة) وعن الإمام الحسن (عليه السلام) قال (تجهل النعم ما أقامت، فإذا ولّت عُرفت)، وإن كان في غنى عن الوصول إلى هذه المرحلة، إذ يكفي تذكرها والالتفات إليها أو تخيّل أضدادها لمعرفة قيمتها، عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال (إنما يُعرف قدر النعم بمقاساة ضدّها).

نعمة الإيمان بالله ورسوله وولاية أهل البيت عليهم السلام :

ولابد أن نلتفت إلى أن الأهم من النعم المادية المذكورة النعم المعنوية، عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: (إن من النعم سعة المال، وأفضل من سعة المال

(١) تجد مصادر هذه الروايات في: ميزان الحكمة: ٧٢/٩.

صحة البدن، وأفضل من صحة البدن تقوى القلب) وعن الإمام الباقر (عليه السلام) قال (لا نعمة كالعافية، ولا عافية كمساعدة التوفيق).

ومن النعم المعنوية اجتماع الكلمة على الإيمان بالله تعالى وبرسوله وولاية أهل البيت (عليهم السلام) كما ورد في تفسير قوله تعالى (وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا) (آل عمران/١٠٣) قالت الصدّيقة الزهراء (عليها السلام) في خطبتها (فأنقذكم الله بأبي محمد (صلى الله عليه وآله)) وروى العياشي في تفسيره قال: كان أبو عبد الله (عليه السلام) إذا ذكر النبي (صلى الله عليه وآله) قال: (بأبي وأمّي ونفسي وقومي وعترتي عجبٌ للعرب كيف لا تحملنا على رؤوسها والله يقول في كتابه (وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها) فبرسول الله (صلى الله عليه وآله) والله أنقذوا)[1] ما ورد عن النبي (صلى الله عليه وآله) في تفسير قوله تعالى (وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً) (لقمان/٢٠) (أما ما ظهر فالإسلام وما سوّى الله من خلقك، وما أفاض عليك من الرزق، وأما ما بطن فستر مساوئ عملك ولم يفضحك به)، وعن الإمام الباقر (عليه السلام) (النعمة الظاهرة النبي (صلى الله عليه وآله) وما جاء به النبي من معرفة الله عز وجل وتوحيده، وأما النعمة الباطنة ولايتنا أهل البيت وعقدُ مودتنا) وعن الإمام الصادق (عليه السلام) (ما أنعم الله على عبد أجلّ من أن لا يكون في قلبه مع الله عز وجل غيره) وعن أمير المؤمنين (عليه السلام) (إن من النعمة تعذّر المعاصي)، وعن الإمام الكاظم (عليه السلام) (النعمة الظاهرة الإمام الظاهر، والباطنة الإمام الغائب).

---

(١) تفسير العياشي: ٢١٨/١ ح١٢٦.

كيفية الحفاظ على النعمة:

وبعد الاطلاع على سعة النعمة وتنوعها وأهميتها ينفتح السؤال عن كيفية الحفاظ عليها وإدامتها لأنها معرضة للزوال –والعياذ بالله– فلابد من الحذر، عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال (أحسنوا مجاورة النعم، لا تملّوها ولا تنفرّوها، فإنها قلما نفرت من قوم فعادت إليهم) وعن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال (أحسنوا صحبة النعم قبل فراقها، فإنها تزول وتشهد على صاحبها بما عمل فيها).

شكر النعمة:

والذي يوجب بقاء النعمة ودوامها ويمنع من نفورها شكر النعمة، والذي يوجب نفور النعمة وزوالها كفر النعمة، وهما معنيان متضادان يعرف معنى كل منهما بعكس معنى الآخر عن أمير المؤمنين (عليه السلام) (أحسن الناس حالا في النعم من استدام حاضرها بالشكر وارتجع فائتها بالصبر) وعنه (عليه السلام) (إذا وصلت إليكم أطراف النعم فلا تنفروا أقصاها بقلة الشكر) وعن الإمام الصادق (عليه السلام) (لا تدوم النعم إلاّ بثلاث: معرفة بما يلزم لله سبحانه فيها، وأداء شكرها، والتعب فيها) وعن الإمام الهادي (عليه السلام) (القوا النعم بحسن مجاورتها والتمسوا الزيادة فيها بالشكر عليها).

أشكال الشكر والكفر بالنعم:

إن كفر النعمة وما يقابله من شكرها له معانٍ وأشكال عديدة:

١- **عدم استعمالها في طاعة الله تعالى** كما مرّ في الأحاديث الشريفة التي وصفت الفراغ والصحة والأمن بأنّها نعم مكفورة لأنّها لم تُستثمر في طاعة الله تعالى، والأسوأ أن تستخدم في معاصيه، عن أمير المؤمنين (عليه السلام): (أقل ما

يلزمكم لله ألاّ تستعينوا بنعمه على معاصيه) وعنه (عليه السلام) قال (استتموا نِعم الله عليكم بالصبر على طاعته، والمجانبة لمعصيته).

وعن الإمام الصادق (عليه السلام) (إن أردت أن يُختم بخير عملك حتى تُقبض وأنت في أفضل الأعمال فعظّم لله حقّه أن لا تبذل نعماءه في معاصيه).

٢- **عدم أداء حقوق النعمة** كمن لا يؤدي ما بذمته من الحقوق الشرعية أو يهمل أداء فريضة الحج وهو مستطيع أو لا يصوم شهر رمضان وهو قادر وهكذا، وفي ذلك قال أمير المؤمنين (عليه السلام) (اضرب بطرفك حيث شئت من الناس، فهل تبصر إلاّ فقيراً يكابد فقراً، أو غنيّاً بدّل نعمة الله كفراً، أو بخيلاً اتّخذ البخل بحقّ الله وفرا)[1] ومحل الشاهد تطبيق الإمام الآية بالنص على من لم يؤدي حقوق الله تعالى في أمواله، وعنه (عليه السلام) قال: (يا أيّها الناس: إنّ لله في كلّ نعمة حقّاً، فمن أدّاهُ زاده، ومن قصّر عنه خاطر بزوال النعمة وتعجّل العقوبة، فليراكم الله من النعمة وجلين كما يراكم من الذنوب فرقين) ويشرحها الإمام الرضا (عليه السلام) بقوله: (إنّ صاحب النعمة على خطر، إنه يجب عليه حقوق الله فيها، والله إنّه لتكون عليَّ النعم من الله عزّ وجل فما أزال منها على وجل -وحرّك يده- حتّى أخرج من الحقوق التي تجب لله عليّ فيها).

فكلّ نعمة تستوجب حقّاً، الوالدان نعمة ولهم حقوق، والمرجعية المخلصة العاملة نعمة ولها حقوق، والجاه والموقع نعمة وعلى صاحبه حقوق، عن الإمام الرضا (عليه السلام) قال: (استعمال العدل والإحسان مؤذن بدوام النعم)، وهكذا.

---

(١) نهج البلاغة: الخطبة ١٢٩ في ذكر المكاييل والموازين.

ومن كفر النعمة التقصير باستعمال ما أنعم الله تعالى عليه في خدمة الناس وقضاء حوائجهم وإدخال السرور عليهم، عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال (إن لله عباداً اختصهم بالنعم يُقرّها فيهم ما بذلوها للناس فإذا منعوها حوّلها منهم إلى غيرهم) وعن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال (من كثرت نعم الله عليه كثرت حوائج الناس إليه، فمن قام لله فيها بما يجب فيها عرّضها للدوام والبقاء، ومن لم يقم فيها بما يجب عرّضها للزوال والفناء).

فالذي يمكّنه الله تعالى في الأرض ويضع تحت تصرفه موارد الدولة والشعب وهو يسخّرها لمصالحه الشخصية والحزبية فهو ممن بدّل نعمة الله كفراً، والذي يستعمل الوسائل العلمية الحديثة التي أنعم الله تعالى بها على عباده في غير مرضاة الله فهو ممن بدّل نعمة الله كفرا وهكذا.

٣- **عدم التحديث بها ونشرها** قال تعالى (وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ) (الضحى/١١) روي عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قوله (إنّ الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده) وعن الإمام الصادق (عليه السلام) قال (إذا أنعم الله على عبده بنعمة فظهرت عليه سُمّي حبيب الله محدثاً بنعمة الله، وإذا أنعم الله على عبدٍ بنعمة فلم تظهر عليه سُمي بغيض الله مكذّباً بنعمة الله) فاعتباره مكذّباً بنعمة الله مبغوضاً عند الله تعالى لأنّه لم يحدّث بنعمة الله ولم يظهرها، وعن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (إنّي لأكره للرجل أن يكون عليه نعمة من الله فلا يظهرها).

كمال النعمة وتمامها:

وإنّ أعظم النعم على الإطلاق الإسلام كما دلّت عليه الروايات الشريفة عن

الإمام الحسين (عليه السلام) في قوله تعالى (وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ) (الضحى/١١) قال (عليه السلام) (أمره أن يحدّث بما أنعم الله به عليه في دينه)، وتمام هذه النعمة التي كمُل بها الإسلام نعمة ولاية أهل البيت (عليهم السلام) بدلالة النصوص القرآنية ومنها الآية الشريفة التي نزلت في واقعة الغدير وتنصيب أمير المؤمنين (عليه السلام) إماماً وهادياً للأمة وخليفة لرسول الله (صلى الله عليه وآله) فنزل قوله تعالى (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً) (المائدة/٣) وما ورد في تفسير قوله تعالى ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ التكاثر٨ من حديث الإمام الصادق (عليه السلام) مع أبي حنيفة قال: (نحنُ –أهل البيت– النعيم الذي أنعم الله بنا على العباد وبنا ائتلفوا بعد أن كانوا مختلفين وبنا ألّف الله بين قلوبهم وجعلهم اخواناً بعد أن كانوا أعداءاً وبنا هداهم الله إلى الإسلام وهي النعمة التي لا تنقطع، والله سائلهم عن حقّ النعيم الذي أنعم الله به عليهم وهو النبي (صلى الله عليه وآله) وعترته)[1] فأهل البيت ليسوا نعمة فقط بل نعمة باقية ثابتة مقيمة فتكون كثيرة مباركة لذا وصفهم بالنعيم.

ومن مجموع هذه المقدمات نصل إلى نتيجة: أن أوضح مصاديق تبديل نعمة الله كفراً هم الذين لم يؤمنوا بالإسلام وأشركوا بالله تعالى وأنكروا نبوة الرسول محمد (صلى الله عليه وآله).

الإعراض عن ولاية أهل البيت (عليهم السلام):

وممن تنطبق عليهم الآية كلّ من أعرض عن ولاية أمير المؤمنين (عليه السلام) ولم يلتزم بوصية النبي (صلى الله عليه وآله) فضلاً عمّن ظلم أهل البيت (عليهم السلام) ونصب لهم

(١) راجع الروايات في تفسير البرهان: ٢٣٠/١٠.

العداوة والبغضاء فهو ممن بدّل نعمة الله كفراً.

وهذه النتيجة مذكورة نصّاً في القرآن الكريم بلفظ الانقلاب الذي هو معنى آخر لتبديل النعمة كفراً قال تعالى (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللّهُ الشَّاكِرِينَ) (آل عمران/١٤٤) فالألفاظ المستعملة نفسها وهي الانقلاب المرادف للتبديل والشكر المقابل للكفر.

ووردت في ذلك روايات عديدة ففي الكافي بسنده عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: (ما بال أقوام غيّروا سنّة رسول الله (صلى الله عليه وآله) وعدلوا عن وصيّه لا يتخوّفون أن ينزل بهم العذاب) ثمّ تلا هذه الآية (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَةَ اللّهِ كُفْراً وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ* جهنّم يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ) (إبراهيم/٢٨-٢٩) ثمّ قال (نحن النعمة التي أنعم الله بها على عباده، وبنا يفوز من فاز)[1].

وعلينا أن نتذكر أن من كفر النعمة عدم إظهارها والتحديث بها وعدم القيام بحقوقها كما دلّت عليه الروايات المتقدّمة، فمن قصّر في إظهار نعمة ولاية أهل البيت (عليهم السلام) ولم يتحرّك لإقناع الناس بها بأيّ وسيلة خصوصاً مع توسّع وسائل تبادل المعلومات ونقلها، أو لم يحفظ حرمة أهل البيت (عليهم السلام) في سلوكه وصفاته فهو ممّن لم يشكر هذه النعمة وربّما انطبقت عليه الآية بمعنى من المعاني.

فليتفقّه كلّ شيعة أهل البيت (عليهم السلام) في دينهم وليطلعوا على سيرة أهل البيت (عليهم السلام) ومناقبهم وفضائلهم ومحاسن كلامهم ليوصلوها إلى البشرية جمعاء

(١) الكافي: ١٦٩/١ ح١.

إذا أردنا أن نكون من الشاكرين على هذه النعمة، وحتى نكون صادقين مع الله تعالى ومع أنفسنا حينما نتبادل التهاني والتبريكات في مثل هذه الأيام ونحمد الله تعالى على التشرّف بولاية أمير المؤمنين (عليه السلام) ومباهلة النبي (صلى الله عليه وآله) ونزول سورة هل أتى والتصدّق بالخاتم وغيرها من المناقب الكثيرة.

وعلينا أن نُحيي أمر أهل البيت (عليهم السلام) خصوصاً الشعائر الفاطمية والحسينية شكراً لله تعالى على نعمة مودّتهم وولايتهم وقد كثرت الروايات عنهم (عليهم السلام) أنّهم هم النعمة التي ذكرها الله تعالى في كتابه الكريم وبهم يفوز من فاز، وقد مرّ في الأحاديث الشريفة أن شكر النعمة يتحقق بإظهارها والتحدّث بها.

القبس القرآني

٦٣

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾[١] [إبراهيم : ٤٢]

عاقبة الظلم

الوصية الأخيرة تختزل ما يريده الموصي:

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا أبي القاسم محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين..

في ذكرى الإمام السجاد (عليه السلام) التي تقترن مع ذكرى أبيه الحسين (عليه السلام) نستفيد درساً من حياتهما المباركة، روى الإمام الباقر (عليه السلام) قال لما حضر علي بن الحسين (عليه السلام) الوفاة ضمّني إلى صدره ثم قال (يا بني أوصيك بما أوصاني به أبي حين حضرته الوفاة وبما ذكر أن أباه أوصاه به قال: يا بنيّ إياك وظلم من لا يجد عليك ناصراً إلاّ الله)[٢] وقد روي الحديث عن النبي (صلى الله عليه وآله) وعن أمير المؤمنين (عليه السلام)، فعن النبي (صلى الله عليه وآله) قال (يقول الله عز وجل: اشتد غضبي على من ظلم من لا يجد ناصراً غيري)[٣]، أي ظلم من لا يمتلك القوّة والنفوذ لاسترداد حقّه إمّا لضعفه كالمرأة واليتيم والمستضعف أو لغيبته وعدم علمه أو لترفعه عن ردّ الإساءة بمثلها.

---

(١) كلمة ألقاها سماحة الشيخ اليعقوبي (دام ظله) في ذكرى استشهاد الإمام السجاد (عليه السلام) يوم ٢٥ محرم ١٤٣٥ المصادف ٢٠١٣/١١/٢٩.

(٢) الكافي: ٣٣١/٢ ح٥.

(٣) ميزان الحكمة: ٣٠٤/٥ عن عدة مصادر.

وتكتسب هذه الوصية أهمية كبيرة من جهة كونها الوصية الأخيرة في الحياة وعادة ما تتضمن مثل هذه الوصية أهم ما يريد أن يقوله الموصي، ومن جهة تواتر الوصية بها من معصوم الى معصوم (عليهم السلام) ، وهم أبعد ما يكونون عن الظلم مطلقاً ،وهو ما دلت عليه الآية الشريفة (وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ) (البقرة/١٢٤) فبلوغهم مقام الإمامة يعني انهم منزهون عن الظلم، وإنما أريد من التأكيد على هذه الوصية ترسيخها في ذهن الأمة حتى تصبح لهم شعاراً في حياتهم.

تجنب الظلم الأخلاقي: من أخلاق أهل البيت عليهم السلام:

وكانوا (صلوات الله عليهم أجمعين) ينزهون أنفسهم عن الظلم بكل أشكاله ومستوياته حتى إذا لم يصل الى مستوى المخالفة الشرعية لكنه لا يليق بأخلاقهم العظيمة ، روى الإمام الباقر (عليه السلام) عن أبيه السجاد (عليه السلام) قوله (إني حججتُ على ناقتي هذه عشرين حجة لم أقرعها بسوط)[1].

هذا هو ديدن الأئمة في الترفع عن الظلم مهما كان ضئيلاً وفي أي مستوى من مستوياته، يقول أمير المؤمنين (عليه السلام) (والله لأَن أبيتَ على حسكَ السعدان مسهّداً، أو أُجرَّ في الأغلال مصفّدا أحبُّ إليَّ من أن ألقى الله ورسوله يوم القيامة ظالماً لبعض العباد، وغاصباً لشيء من الحطام، وكيف أظلمُ أحداً لنفس يُسرعُ إلى

(١) المحاسن للبرقي: ٦٣٥/٢.

البلى قُفولُها، ويطول في الثرى حُلولُها)[١] وذكر (عليه السلام) حادثته مع أخيه عقيل عندما أحمى له حديدة، ثم قال (عليه السلام) (والله لو أعطيتُ الأقاليمَ السبعة بما تحت أفلاكها، على أن أعصي الله في نملةٍ أسلبها جُلبَ شعيرة ما فعلته)[٢].

وكان الإمام السجاد (عليه السلام) يترفع عن الانتقام ومقابلة من ظلمه بالمثل لأنه يرى المقابلة بالمثل ومعاقبة المسيء سيئة وان الأليق بخصاله الكريمة العفو والصفح والإحسان إلى المسيء، تأدباً بقوله تعالى (ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ) (المؤمنون/٩٦) وقوله تعالى (ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ) (فصلت/٣٤) وقوله تعالى (وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) (النور/٢٢) فالذي يرجو عفو الله تعالى وإحسانه وفضله وكرمه لابد أن يتعامل مع الناس على هذا الأساس.

روي: إن مولى لعلي بن الحسين عليه السلام يتولى عمارة ضيعة له، فجاء ليطلعها فأصاب فيها فسادا وتضييعا كثيرا غاضه من ذلك ما رآه وغمه، فقرع المولى بسوط كان في يده، وندم على ذلك، فلما انصرف إلى منزله أرسل في طلب المولى، فأتاه فوجده كاشفاً عن ظهره والسوط بين يديه، فظن أنه يريد عقوبته ، فاشتد خوفه.

فأخذ علي بن الحسين السوط ومد يده إليه وقال: يا هذا قد كان مني إليك ما لم يتقدم مني مثله، وكانت هفوة وزلة فدونك السوط واقتص مني.

---

(١) الى (٣) نهج البلاغة: الخطبة ٢٢١. بيان: الحسك: الشوك، والسعدان نبت ترعاه الإبل له شوك، والمسهَّد: السهران، والمصفّد: المقيَّد، والقفول: الرجوع، وجِلب الشعيرة: غطاؤها.

فقال: يا مولاي، و الله لقد ظننت أنك تريد عقوبتي، و أنا مستحق للعقوبة، فكيف أقتص منك؟!

قال: (ويحك اقتص).

فقال: معاذ الله، أنت في حل و سعة، فكرر ذلك عليه مرارا، والمولى كل ذلك يتعاظم قوله ويجلله، فلما لم يره يقتص، فقال (عليه السلام) له: أما إذا أبيت فالضيعة صدقة عليك، وأعطاه إياها)[1].

وفي رواية الطبقات الكبرى لابن سعد، ان عبد الله بن علي بن الحسين (عليه السلام) قال: لما عزل الوليد بن عبد الملك هشام بن إسماعيل عن ولاية المدينة وأوقفه الوليد إلى الناس ليقتصوا منه، وكان يسيء إلى أبي، جمعنا أبي علي بن الحسين وقال: إن هذا الرجل قد عزل وقد أوقفه الوليد للناس فلا يتعرض له أحد بسوء، فقلت يا أبت، والله إن أثره عندنا لسيء وما كنا نطلب إلا مثل هذا اليوم. قال: يا بني نكله إلى الله، فوالله ما تعرض أحد بسوء من آل الحسين حتى تصرم أمره)[2].

وروي في ذلك عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قوله (أوحى الله إلى نبي من أنبيائه .. إذا ظُلمتَ بمظلمةٍ فارض بانتصاري لك فإن انتصاري لك خير من انتصارك لنفسك)[3].

---

(١) بحار الأنوار: ج٤٦ ص٩٩.

(٢) موسوعة المصطفى العترة ٦٤/٧ عن عدة مصادر ذكرها.

(٣) بحار الأنوار: ٣٢١/٧٥ ح٥٠.

وعن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال (لا يكبرّن عليك ظلم من ظلمك فانه يسعى في مضرّته ونفعك وليس جزاء من سرَّك أن تسوءَه) .

التغاضي هو بلحاظ المظالم الشخصية لا الحقوق العامة:

ولابد أن نلتفت إلى أن هذا التغاضي وعدم الرد فيما يتعلق بالمظالم الشخصية، أما إذا كان الظلم يتعلق بالحقوق العامة خصوصاً إذا انتهكت محارم الله تعالى فالنهي عنه واجب والسكوت قبيح ، روى في كنز العمال عن عائشة قالت: ما رأيت رسول الله (صلى الله عليه وآله) منتصراً من ظلامة ظلمها قطّ إلا أن يُنتهك من محارم الله شيء، فإذا انتُهك من محارم الله شيء كان أشدَّهم في ذلك)[1].

في ذم الظلم:

والأحاديث الواردة في ذم الظلم والتحذير منه كثيرة فعن النبي (صلى الله عليه وآله) قال (إياكم والظلم، فإن الظلم عند الله هو الظلمات يوم القيامة) وعنه (صلى الله عليه وآله) قال(لا تظلم أحداً، تُحشر يوم القيامة في النور)[2]، وعن أمير المؤمنين (عليه السلام) (الظلم في الدنيا بوار وفي الآخرة دمار)، وعنه (عليه السلام) قال (من ظلم عباد الله كان الله خصمه دون عباده) وعنه (عليه السلام) (بئس الزاد إلى المعاد العدوان على العباد) وعنه (عليه السلام) (إياك والظلم فإنه أكبر المعاصي)، وعنه (عليه السلام) قال (ألا وإنّ الظلمَ ثلاثةٌ: فَظلمٌ لا يُغفرُ، وظُلمٌ لا يُترك، وظُلمٌ مغفورٌ لا يُطلَبُ، فأمّا الظُّلمُ الذي لا يُغفرُ فالشّركُ بالله... وأمّا الظُلمُ الذي يُغفرُ فَظلمُ العبدِ نفسهُ عندَ بعضِ الهّناتِ، وأمّا الظُلمُ الذي

(١) ميزان الحكمة: ٣٠٨/٥ عن كنز العمال: ١٨٧١٦.

(٢) هذه المجموعة من الروايات وغيرها في ميزان الحكمة: ٢٩٩/٧ وما بعدها.

لا يُتركُ فظلمُ العِبادِ بَعضِهِم بعضاً)[١].

عاقبة الظلم:

وروي عن النبي في بيان عاقبة الظالم قال: (إنّه ليأتي العبدُ يومَ القيامةِ وقد سرّته حسناتُهُ ، فيجيء الرجلُ فيقول : يا ربّ ظلمني هذا ، فيؤخذ من حسناتِهِ فيجعل في حسناتِ الذي سأله ، فما يزال كذلك حتّى ما يبقى له حسنةٌ ، فإذا جاء من يسأله نظر إلى سيئاته فجعلت مع سيئات الرجل ، فلا يزال يستوفى منه حتى يدخل النار)[٢]. وعن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال (من ظلم قُصِم عمره) ،وقال (عليه السلام) (بالظلم تزول النعم).

مديات الظلم:

ويتضح من الروايات التي ذكرنا جملة منها إن مديات الظلم واسعة لا ينجو منها أحد الاّ من عصم الله تبارك وتعالى ،لان الظلم هو عدم الوفاء بتمام الحق ،وأول حق لا نستطيع الوفاء به ونقصّر فيه حق الله تعالى في طاعته وعبادته مخلصين له الدين (إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) (لقمان/١٣).

ومن الظلم ظلم النفس باتّباع هواها وعدم مسك زمامها فتوقعه في المعاصي وتتمرد على الطاعات وهو مفتاح الظلم للآخرين ،عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال (من ظلم نفسه كان لغيره أظلم) فيقع في ظلم الأهل وعموم الناس سواء في تعامله معهم أو خلال تقصيره في المسؤوليات المناطة به كالطبيب الذي لا يلتزم بشرف

(١) ميزان الحكمة ج٧ ص٣٠٣.

(٢) ميزان الحكمة ج٧ ص٢٩٩.

مهنته في المستشفى ليراجعوه في العيادة الخاصة، أو المدرِّس الذي يقصّر في المدرسة حتى يلتحقوا بدروسه الخصوصية والموظف الذي لا يعمل بمهنية ونزاهة، والأم التي تقصّر في تربية أولادها وحفظ بيتها وشرف زوجها، أو السياسي في الحكومة والبرلمان الذي لا يبذل كل جهده في خدمة الشعب الذي ائتمنه على هذه المواقع والأمثلة تطول ، فهذا كله ظلم.

حتى إن الظلم يمكن أن يقع في أمور بسيطة لا نتصورها كالتحكيم بين كتابتين أو رسمين أيهما أجمل إذا لم يكن منصفاً في حكمه كما ورد في الرواية عن الإمام الصادق (عليه السلام) (إن أمير المؤمنين (عليه السلم) ألقى صبيان الكتّاب ألواحهم بين يديه ليُخيِّر بينهم، فقال: أما إنها حكومة والجور فيها كالجور في الحكم)[1].

سبيل التخلص من الظلم:

ولا سبيل إلى التخلّص منها جميعاً إلاّ بالطلب من الله تعالى أن يرضي الخصماء عنه ويتولى ذلك بنفسه لأنه ولي الخلق جميعاً، ورد عنه (عليه السلام) في دعاء يوم الاثنين (وَأَسْأَلُكَ فى مَظالِمِ عِبادِكَ عِنْدي، فَأَيَّما عَبْد مِنْ عَبيدِكَ اَوْ اَمَة مِنْ اِمائِكَ كانَتْ لَهُ قِبَلي مَظْلِمَةٌ ظَلَمْتُها اِيّاهُ، في نَفْسِهِ اَوْ في عِرْضِهِ اَوْ في مالِهِ، اَوْ في اَهْلِهِ وَوَلَدِهِ، اَوْ غيبَةٌ اغْتَبْتُهُ بِها، اَوْ تَحامُلٌ عَلَيْهِ بِمَيْلٍ اَوْ هَوىً، اَوْ اَنَفَة اَوْ حَمِيَّة اَوْ رِياء اَوْ عَصَبِيَّة. غائِباً كانَ اَوْ شاهِداً، وَحَيّاً كانَ اَوْ مَيِّتاً، فَقَصُرَتْ يَدى وَضاقَ وُسْعى عَنْ رَدِّها اِلَيْهِ وَالْتَحَلُّل مِنْهُ، فَأَسْأَلُكَ يا مَنْ يَمْلِكُ الْحاجاتِ، وَهِيَ مُسْتَجيبَةٌ لِمَشِيَّتِهِ

(١) وسائل الشيعة، كتاب الحدود والتعزيرات، أبواب بقية الحدود، باب٨ ح٢.

وَمُسْرِعَةٌ اِلى اِرادَتِهِ اَنْ تُصَلِيَّ عَلى مُحَمَّد وَآلِ مُحَمَّد، وَاَنْ تُرْضِيَهُ عَنّي بِما شِئْتْ، وَتَهَبَ لي مِنْ عِنْدِكَ رَحْمَةً، اِنَّهُ لا تَنْقُصُكَ الْمَغْفِرَةُ وَلا تَضُرُّكَ الْمَوْهِبَةُ، يا اَرْحَمَ الرّاحِمينَ).[1]

ومن دعا ء له (عليه السلام)(اللهم اني اعتذر اليك من مظلومٍ ظلم بحضرتي فلم أنصره)[2].

ومن دعائه (عليه السلام)(اللهم فكما كرهت إلي أن أظلم، فقني من أن أظلم)[3].

(١) الصحيفة السجادية/ دعاء يوم الاثنين.

(٢) الصحيفة السجادية/ الدعاء٣٨ .

(٣) الصحيفة السجادية/ دعاؤه (عليه السلام) (إذا اعتدي عليه أو رأى من الظالمين ما لا يحب) ص ٩٥.

القبس القرآني

٦٤

﴿وذكّرهم بأيّام الله﴾[1]

[إبراهيم:٥]

يبّين هذا المقطع من الآية احدى وظائف الأنبياء والأئمة (صلوات الله عليهم أجمعين) والقادة الدينيين ومن سار على نهجهم وهو تذكير الناس بأيام الله تعالى.

الايام كلها لله كما ان كل شيء في الوجود لله تعالى (لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْض) (البقرة/٢٥٥) (وَلَهُ مَا فِي الْسَّمَاوَاتِ وَالأَرْض) (النحل/٥٢) (أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ) (الأعراف/٥٤) لكن الله تعالى يعلم ان الانسان يغفل وينهمك في تفاصيل حياته فينشغل عن مراجعة علاقته بربه فيحتاج الى محطات زمانية او مكانية أو فعلية تجدّد هذه العلاقة وتعطيها زخماً وحيوية جديدة فجعل اياماً وأمكنة ومشاعر وشعائر لتحقيق المزيد من القرب لربه والالتفات الى قضيته الكبرى، والله تعالى لم يغب عن عباده وعن خلقه لكنهم هم الذين يغفلون عنه (متى غبتَ حتى تحتاج الى دليل يدلُ عليك).

وهذه سيرة تعلّمها العالم المتحضر فجعل أياماً لقضاياه المهمة فيوم للأم ويوم للمرآة وآخر للعامل والبيئة ونحو ذلك لتجديد الاهتمام بهذه القضايا وإجراء مراجعة لطبيعة العلاقة معها وإلا فأن الاهتمام بهذه القضايا مطلوب على الدوام.

---

(١) كلمة ألقاها سماحة الشيخ المرجع (دام ظله) في مكتبه يوم الخميس ٢٨/ج١٤٣٧/٢ المصادف ٢٠١٦/٤/٧ بمناسبة استقبال شهر رجب.

والسؤال ما هي الخصوصية في هذه الايام حتى أصبحت أيام الله؟ والجواب: لأنَّ هذه الايام شهدت بعض تجليات الله تعالى لخلقه بصفاته الحسنى.

ففي يوم ميلاد النبي (صلى الله عليه وآله) وبعثته تجلت رحمة الله تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) (الأنبياء/١٠٧) (قُلْ بِفَضْلِ اللّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ) (يونس/٥٨) وفي يوم الغدير تجلت حكمة الله تعالى وشفقته على عباده.

وفي يوم عاشوراء تجلت عظمة الله تعالى حينما تستعظم ما قدمه الامام الحسين (عليه السلام) لله تعالى، وتجلّى حلم الله تعالى إذ لم ينزل نقمته وبأسه على الأشرار، ويتجلى ما يمنّ به على عبادّه المصطفين من التوحيد الخالص والفناء في محبة الله تعالى.

وفي يوم فتح مكة وعندما يظهر الحجة القائم (عجل الله تعالى فرجه الشريف) يتجلى نصر الله وفتحه على عباده المؤمنين، ويتحقق وعد الله تعالى (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) (النور/٥٥).

وفي اي يوم يتحقق فيه إنجاز للبشرية يسعدها ويرّفه حياتها ويخلّصها من معاناتها من الفقر او المرض او الخوف وغيرها تتجلى قدرة الله تعالى إذ زوّد البشرية بهذا العقل المبدع وما يتفق عنه من علوم حتى ألف مجموعة من علماء الغرب كتاب (الله يتجلى في عصر العلم).

وحينما أغرق فرعون وجنوده وأهلكت عاد وثمود وصدام تجلت عدالة الله

تعالى وإنتقامه، وإذا مات إنسان تجلّت صفة (القّهار) كما في الدعاء (الحمد لله الذي قهر عباده بالموت والفناء) وتجلّت صفة (الباقي) لله تعالى (فان أهل الأرض يموتون وأهل السماء لا يبقون) بحسب المروي عن الامام الحسين (عليه السلام) فالاحتفال بهذه الأيام واستذكار ما جرى فيها إنما هو امتثال لهذه الآية الشريفة وتجديد لذكر الله تعالى.

وقد تعدّدت الروايات في تفسير هذه الآية بمعاني متعددة إشارة الى هذه المناشيء المتعددة لتسمية الأيام بأيام الله تعالى فقد روي عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قوله (أيام الله نعماؤه وبلاؤه وهي مَثُلاتُه[1] سبحانه)وروي عن ابي جعفر الباقر (عليه السلام) قال (أيام الله عز وجل ثلاثة: يوم يقوم القائم، ويوم الكرّة –أي الرجعة – ويوم القيامة) وعن ابي عبد الله الصادق (عليه السلام) قال (ذكرّهم بنعم الله سبحانه في سائر أيامه)[2].

اقول: بقية الآية ونهايتها تشعر بهذا المعنى قال تعالى (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ) (إبراهيم/٥)، فالصبر على البلاء والشكر على النعماء.

وقد يضيف الله تعالى بعض الأيام الى نفسه ليزيد فيها من عطائه الخاص على عباده فيدعوهم الى ذكره ودعائه ليذكرهم برحمته وكرمه وعفوه ومغفرته (فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ) (البقرة/١٥٢) كيوم عرفة وشهر رمضان ومنها هذه الايام

(١) من قوله تعالى (وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلاَتُ) (الرعد/٦) أي النقمات التي تجعل من تنزل به مثالاً يرتدع به الآخرون.

(٢) تفسير البرهان : ٢٣٣/٥.

التي أطلّت علينا مع حلول شهر رجب المرجو لكل خير كما في الدعاء المستحب فيه يومياً (يا من أرجوه لكل خير وآمن سخطه عند كل شهر)، فقد شرّف الله تعالى هذه الايام وبارك فيها من الطافه ودعاهم الى التعرض لنفحاته (إن لله في دهركم نفحات الا فتعرضوا لها)[1]، أي تعرضوا لأسبابها من الأزمنة والامكنة والاحوال المختلفة لأن نفس النفحات من الغيب الإلهي ولا يعلمها العباد فكيف يتعرضون لها؟

فكل أيام هذه الأشهر الثلاثة (رجب وشعبان ورمضان) شريفة ومباركة وسنّ لها الأئمة المعصومون (عليهم السلام) أعمالاً مستحبة كثيرة، وتتلألأ خلالها أيام اشد نوراً وعطاءاً ومنها اليوم الاول من رجب وليلته، في الحديث الشريف عن الامام الصادق (عليه السلام) عن ابائه عن علي (عليه السلام) قال (كان يعجبه أن يفرغ نفسه أربع ليالٍ في السنة، وهي أول ليلة من رجب وليلة النصف من شعبان وليلة الفطر وليلة النحر)[2].

وفي الختام نقول ان الآية الكريمة تدعو جميع المؤمنين الرساليين أن يتأسوا بالأنبياء العظام والأئمة الكرام (صلوات الله عليهم أجمعين) فيذكرّون الناس بأيام الله تعالى، تلك الايام التي تربطهم بالله تعالى وتزيد معرفتهم به وتوثق علاقتهم بربهم.

(١) أنظر ملحق القبس (١) من هذا الجزء (وسارعوا الى مغفرة من ربكم).

(٢) مفاتيح الجنان: ١٧٦ أعمال الليلة الاولى من رجب.

القبس القرآني

٦٥

﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا﴾ (١)

[ق : ٢٢]

التدبر في القرآن الكريم:

لا ينبغي لكم وأنتم مثقفون واعون وشباب رساليون أن تكتفوا من قراءة القرآن بتلاوة حروفه، بل لابد من التدبر في معانيه للوصول إلى حقائقه، وقد قدّمت في أحاديث سابقة أنماطاً للتدبر، ومنها ما أذكره اليوم وذلك بأن تلتفت بلطف الله تعالى إلى قضية معينة لها مساس بالواقع المعاش، ثم تجمِّع ما ورد فيها من آيات شريفة حتى تكتمل صورتها، وسيفتح الله عليك وستظهر أمامك حقائق عن تلك القضية، لم تكن ملتفتاً إليها عندما كنت تقرأ كل آية على حدة فتعرف كيفية تشخيصها، وأسباب حصولها، والأثار المترتبة عليها وهكذا.

وليس من الصعب تجميع الآيات المتعلقة بقضية معينة من خلال مراجعة معاجم وفهارس ألفاظ القرآن الكريم كفهرس الألفاظ الملحق بتفسير شير او تفسير المعين.

ثم تنتقل بنفس الطريقة إلى معاجم كلمات المعصومين ككتاب (غرر الحكم) و (ميزان الحكمة) لتأخذ منها ما يزيد الأمر وضوحاً.

---

(١) من حديث سماحة الشيخ اليعقوبي (دام ظله) مع حشد من طلبة كليتي الطب والقانون في جامعة البصرة، وطلبة جامعة الصدر الدينية في مدينة الصدر ببغداد ومعهد الإمام الصادق (دام ظله) للعلوم الدينية في الناصرية يوم الخميس ١٣/ج١٤٣٣/١ الموافق ٢٠١٢/٤/٥.

غفلة الإنسان عن نفسه:

وأشير اليوم إلى واحدة من هذه القضايا المهمة وهي غفلة الإنسان عن نفسه، فالإنسان في هذه الدنيا في غفلة (الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا)[1] وقد تحدثنا في خطاب سابق عن غفلة الإنسان عن قيادته الحقة وهو أمر متصور بسبب الجهل والتشويش والشبهات، ولكن أن يغفل الإنسان عن نفسه أعز الأنفس عليه وأثمن شيء عنده لأنه يستطيع أن يكتسب بها الجنان، فهذا أمر مستغرب.

التعاطي مع النفس:

ومن خلال الآيات الكريمة ستجد التباين الواسع بين البشر في التعاطي مع أنفسهم، فمن مستثمر لها كأفضل ما يكون يقول عنه الله تعالى (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ) (البقرة/٢٧٠) فتساعده نفسه على الطاعة والتثبيت على الاستقامة (يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ وَتَثْبِيتاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ) (البقرة/٢٦٥) فيخاطبهم الله تعالى (يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي) (الفجر/٢٧- ٢٨- ٢٩ - ٣٠).

إلى آخرين فشلوا في الاستفادة منها فكانوا كما وصفهم الله تعالى (وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ) (الأنعام/٢٦) (وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) (النحل/١١٨) (وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُم) (البقرة/٩) (قَدْ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ) (الأعراف/٥٣)، ويبيّن

(١) البحار: ج٤ ص٤٣.

القرآن الكريم سبب انحدارهم إلى هذه النتيجة وذلك لانهم (نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) (الحشر/١٩) (يُخَادِعُونَ اللّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُم وَمَا يَشْعُرُونَ) (البقرة/٩)، (انظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ) (الأنعام/٢٤) فهذه أسباب خسران الإنسان نفسه من خلال مخادعة الإنسان نفسه ونسيان الله تبارك وتعالى والركون إلى الدنيا، عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) (إن الصفاة الزلال الذي لا تثبت عليه أقدام العلماء الطمع)[١].

وتنتهي النتيجة إلى أعظم الخسارة وهي خسارة الإنسان نفسه، فيجعل ثمنها نار جهنم وكان يستطيع أن يجعلها سبباً لنيل جنات المقربين (قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) (الزمر/ ١٥) .

مواعظ عن النفس من كلمات أهل العصمة (عليهم السلام):

وإذا انتقلنا إلى أحاديث المعصومين (عليهم السلام) فسنجد مواعظ قيمة، فعن علي أمير المؤمنين (عليه السلام) (إنه ليس لأنفسكم ثمن إلا الجنة فلا تبيعوها إلا بها) وعنه (عليه السلام) (من باع نفسه بغير الجنة فقد عظمت عليه المحنة) وعنه (عليه السلام) (من باع نفسه بغير نعيم الجنة فقد ظلمها)[٢] وفي نهج البلاغة (عباد الله... الله الله في أعزّ الأنفس عليكم، وأحبّها إليكم، فإن الله قد أوضح لكم سبيل الحق، وأنار طرقه فشقوة لازمة، أو سعادة دائمة)[٣].

---

(١) ميزان الحكمة : ٢/ ١٧٤٠.

(٢) غرر الحكم

(٣) نهج البلاغة، خطبة ١٥٧.

وعن أمير المؤمنين (عليه السلام) (أما ترحم من نفسك، ما ترحم من غيرك، فلربما ترى الضاحي من حر الشمس فتظلله، أو ترى المبتلى بألم يمض جسده فتبكي رحمة له، فما صبرك على ذاتك، وجلدك على مصابك، وعزاك عن البكاء على نفسك، وهي أعز الأنفس عليك)[1].

وعن الصادق (عليه السلام): (كتب رجل إلى أبي ذر (رضي الله عنه): يا أبا ذر أطرفني بشيء من الحكمة، فكتب إليه أن العمل كثير، ولكن إن قدرت أن لا تسيء إلى من تحبّه فافعل.

قال: فقال الرجل: وهل رأيت أحداً يسيء إلى من يحبّه؟ فقال له: نعم، نفسك، أحب الأنفس إليك، فإذا أنت عصيت الله فقد أسأت إليها)[2].

وفي غرر الحكم عن أمير المؤمنين (عليه السلام) (عجبتُ لمن ينشد ضالته، وقد أضلَّ نفسه فلا يطلبها).

الواعظ الداخلي:

ولرحمة الله تعالى الواسعة بعباده فإنه لم يكتفِ بالواعظ الخارجي وهم الأنبياء والأئمة (صلوات الله عليهم أجمعين) وحملة علومهم، فجعل لهم واعظاً من داخل أنفسهم ينبِّههم إلى الخطأ وهو ما يعرف بـ(الضمير) يحذره من الخطأ قبل وقوعه، ويؤنبه بعد ارتكابه لردعه عن تكراره، بحيث انتشر مصطلح (وخز الضمير) أو (تأنيب الضمير) وهي عبارة عن حالة تألم ورفض داخل النفس تؤدي

(١) نهج البلاغة: خطبة ٢٣٣.

(٢) الكافي: ٤٥٨/٢.

إلى كربة في القلب، تدعو صاحبها لمراجعة نفسه والعودة إلى رشده.

ولكن الإنسان لسوء اختياره يصمّ أذنه عن سماع الواعظ الخارجي ويكبت واعظه الداخلي، اما بمخادعة نفسه وقلب الحقائق ليوهم نفسه إنه ليس على خطأ، وربما يحاول الهروب من صراعه الداخلي من خلال احتساء الخمر وتناول المخدرات، أو بالانزلاق أكثر في ارتكاب الأخطاء ليعتاد عليها ويميت ضميره.

قصة في من يخدع نفسه:

كثير من الناس يتصور أنه يخدع الآخرين ولكنه في الحقيقة يخدع نفسه، مثلاً شابٌ ينشئ علاقة غير شريفة مع فتاة فيتبجح أمام زملائه بذلك وكأنّه حقق انتصاراً واستدرج هذه الفتاة، ولا يعلم انها هي التي استدرجته وخدعه الشيطان بها لأنها سلبت منه دينه وخسر نفسه.

يروى أن أحد الوعّاظ في بلد مقدس يقصده الزوار من دول العالم جمع التجار والكسبة في السوق وقال لهم إنني أحذركم من هؤلاء الزوار أن يخدعوكم، قالوا: كيف ذلك وهم غرباء لا يعلمون شيئاً ونحن نخدعهم ونبيع إليهم الأشياء بأضعاف سعرها، قال لهم: هذا ما عنيته بكلامي فلا يخدعونكم ويورطونكم في المعصية.

وأنتم –أيها الشباب– أكثر المراحل العمرية عرضة للانخداع والغفلة عن النفس، فقد ورد في الحديث الشريف (السكر في أربعة) أحدها سكر الشباب، فمرحلة الشباب سبب للغفلة والطيش والغرور.

إن الشباب والفراغ والجده مفسدة للمرء أي مفسدة

ولا نغفل تأثير الجو الاجتماعي العام الذي يساهم بشكل كبير في هذا التمويه والخداع وقلب الحقائق فيقول لك أنت شاب وعليك أن تتمتع وتلهو وتلعب، ليس هذا وقت الجدِّ والعمل، وإذا أراد الموظف أن يكون نزيهاً قيل له: حشر مع الناس عيد، وهل تستطيع بنزاهتك أن تقضي على الفساد، وهكذا حتى يموت الضمير ويخمد بريقه.

القبس القرآني

٦٦

(ثمَّ لتسألنَّ يومئذٍ عن النعيم)[1]

[التكاثر : ٨]

الالتفات الى نعم الله تعالى:

قال الله تبارك وتعالى في أكثر من موضع من كتابه الكريم [وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا] (إبراهيم:٣٤) (النحل:١٨)، ولو أجهد الإنسان نفسه لإحصاء هذه النعم فإنه يعجز فعلاً، بل إن كل نعمة يذكرها –كصحة وسلامة البدن– هي في الحقيقة مجموعة من النعم لا تُعدّ ولا تحصى، فكل نفس من الهواء يستنشقه هو نعمة، وكل قطرة دم تسري في عروقه هي نعمة وكل نبضة من قلبه هي نعمة وهكذا، وإذا أراد الإنسان أن يعرف أهمية هذه النعم التفصيلية فليلتفت إلى ما يحصل لو حُرم منها.

وهكذا كل نعمة كرغيف الخبز الذي يأكله كل إنسان يومياً ويعتبره أمراً عادياً، فليتأمل كيف وصل إليه وكم نعمة اشتركت في إعداده، من الأرض التي جعلت صالحة للزراعة والماء الذي يسقيها، والحب الذي ينبت في تلك الأرض، والزارع الذي يصلح الأرض ويداري الزرع إلى أن يحصده ويخرج الحب من سنبله، ثم التاجر الذي ينقله، إلى الطحان والعجان والخباز والبائع، وأودع الله تعالى في هؤلاء غرائز تدفعهم إلى القيام بهذه الأعمال وتحمل المشاق

(١) كلمة سجّلها سماحة الشيخ اليعقوبي (دام ظله) إلى قناة النعيم الفضائية لمباركة انطلاقتها تزامناً مع حلول شهر رمضان المبارك يوم الجمعة ٢٧/شعبان/١٤٣٢ المصادف ٢٠١١/٧/٢٩.

والصعوبات كحب البقاء.

علينا أن نشكر الله تعالى على نعمه:

ولكن الإنسان يغفل عن هذه النعم، وحتى لو التفت إليها فإنه لا يشكرها ولا يؤدي حقها، قال تعالى في ذيل الآية في موضعها الأول من سورة إبراهيم [إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ] (إبراهيم:٣٤) فهو يظلم ربّه إذ لا يوفيه حقه، ويظلم نفسه لأنه يوقعها في الخسران العظيم، وهو كفار لأنه جاحد و متنكر لهذه النعم، لكن الله الرحمن الرحيم خالق هذا الإنسان والعالم بمكوناته غفر له هذا التقصير، قال تعالى في ذيل الآية في موضعها الثاني من سورة النحل [إِنَّ اللهَ لغفورٌ رحيم].

ومن رحمته أن جعل الاعتراف بالقصور والتقصير عن إحصاء النعم فضلاً عن شكرها هو حق الشكر له تبارك وتعالى، كما روي في أخبار الرسول الكريم موسى بن عمران (عليه السلام) أن الله تعالى أوحى إليه أن يا موسى اشكرني حق شكري، قال (عليه السلام) وأنّى لي أن أشكرك حقّ شكرك، فأوحى الله إليه: إن هذا الاعتراف بالعجز هو حق شكري.

وفي الكافي (كان الإمام علي بن الحسين (عليه السلام) إذا قرأ هذه الآية [وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا] يقول: سبحان الذي لم يجعل في أحد من معرفة نعمة إلا المعرفة بالتقصير عن معرفتها، كما لم يجعل في أحد من معرفة إدراكه أكثر من العلم أنه لا يدركه، فشكر جل وعز معرفة العارفين بالتقصير عن معرفة شكره فجعل معرفتهم بالتقصير شكراً، كما عَلِم عِلْم العالمين أنهم لا يدركونه فجعله علماً).

وفي مناجاة الشاكرين للإمام السجاد (عليه السلام) (فآلاؤك جمّة ضعف لساني عن إحصائها، ونعمائك كثيرة قصُر فهمي عن إدراكها، فضلاً عن استقصائها، فكيف لي بتحصيل الشكر وشكري إياك يفتقر إلى شكر، فكلّما قلتُ لك الحمد وجب عليّ لذلك أن أقول لك الحمد).

شكر النعم المعنوية:

هذا كله في النعم المادية -إذا أمكن تسميتها- وهي ملتفت إليها في الجملة، لكن ما لا نلتفت إليه إلا نادراً النعم المعنوية وعلى رأسها الإيمان بالله تعالى وبرسوله (صلى الله عليه وآله) وما جاء به، الذي هو وسيلة النجاة والفلاح في الحياة الباقية، وهو من أعظم النعم على الإنسان، بل به يصبح الإنسان إنساناً، أما غير المؤمنين فهم كالأنعام بل هم أضل سبيلاً.

نعمة الولاية لأمير المؤمنين (عليه السلام):

ثم نعمة ولاية أمير المؤمنين (عليه السلام) والأئمة من بنيه (صلوات الله عليهم أجمعين)، في الكافي وتفسير القمي (قال أمير المؤمنين (عليه السلام) في قوله [أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَةَ اللّهِ كُفْراً وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ، جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ] (إبراهيم:٢٨-٢٩).

قال (عليه السلام): ما بال أقوام غيّروا سنة رسول الله (صلى الله عليه وآله) وعدلوا عن وصيّه ولا يتخوّفون أن ينزل بهم العذاب: ثم تلا الآية ثم قال: نحن النعمة التي أنعم الله على

عباده وبنا يفوز من فاز يوم القيامة)[1] وورد في هؤلاء المبدلين لنعمة الله تعالى من طرق الفريقين عن علي بن أبي طالب (عليه السلام) وعمر بن الخطاب (هما الأفجران من قريش بنو أمية وبنو المغيرة، فقطع الله دابرهم يوم بدر وأما بنو أمية فمتعوا إلى حين) وعن الإمام الصادق (عليه السلام) (عنى بها قريش قاطبة الذين عادوا رسول الله ونصبوا له الحرب وجحدوا وصيه).

وهذا التفسير شاهد على أن النعمة المقصودة هي الإيمان بالله تعالى وبرسوله الكريم (صلى الله عليه وآله)، وقد جاءت الآية محل البحث في ختام هذا السياق من الآيات المباركة.

تذكير الناس:

وفي ضوء هذا فقد كان الأئمة (عليهم السلام) يصححون هذا الفهم لدى الناس وينبهونهم من غفلتهم، فقد ورد في تفسير قوله تعالى [ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ] (التكاثر:٨) عن أمير المؤمنين (عليه السلام) (إن النعيم الذي يُسأل عنه: رسول الله (صلى الله عليه وآله) ومن حلّ محله من أصفياء الله، فإن الله أنعم بهم على من أتبعهم من أوليائهم).

وفي تفسير العياشي عن الصادق (عليه السلام) (أنه سأله أبو حنيفة عن هذه الآية، فقال له: ما النعيم عندك يا نعمان؟ قال: القوت من الطعام والماء البارد، فقال: لئن أوقفك الله يوم القيامة بين يديه حتى يسألك عن كل أكلة أكلتها أو شربة شربتها

(١) تفسير الصافي ٤/٢٤٠ عن الكافي، باب أن النعمة التي ذكرها الله عز وجل في كتابه الأئمة (عليهم السلام).

ليطولّن وقوفك بين يديه، قال: فما النعيم جعلت فداك؟ فقال: نحن أهل البيت النعيم الذي أنعم الله بنا على العباد، وبنا ائتلفوا بعد أن كانوا مختلفين[١]، وبنا ألّف الله بين قلوبهم وجعلهم إخواناً بعد أن كانوا أعداءً. وبنا هداهم الله للإسلام، وهو النعمة التي لا تنقطع، والله سائلهم عن حق النعيم الذي أنعم به عليهم، وهو النبي (صلى الله عليه وآله) وعترته (عليهم السلام)).

وفي رواية: (انه (عليه السلام) قال له: بلغني انك تفسّر النعيم في هذه الآية بالطعام، والطيب، والماء البارد في اليوم الصائف؟ قال: نعم، قال: لو دعاك رجل وأطعمك طعاماً طيباً وسقاك ماءً بارداً ثم امتنّ عليك به إلى ما كنت تنسبه؟ قال: إلى البخل، قال (عليه السلام): أفيبخل الله تعالى؟ قال فما هو؟ قال(عليه السلام): حبنا أهل البيت (عليهم السلام))[٢].

وروايات أخر بهذه المضامين[٣].

---

(١) هذا تطبيق منه (عليه السلام) لقوله تعالى [وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً] (آل عمران:١٠٣).

(١) أقول: ذكر الإمام (عليه السلام) هذا لتصحيح فهم أبي حنيفة وإلا فإن الإنسان يُسأل عن ماله مم اكتسبه وفيم أنفقه، وعن أولاده كيف ربّاهم ومم أنفق عليهم وهكذا، نعم لا يُسأل عن ضرورات حياته وهذا وجه للجمع بين الروايات، ويشهد له صحيح الحلبي عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (ثلاثة أشياء لا يحاسب عليهن المؤمن: طعام يأكله، وثوب يلبسه، وزوجة صالحة تعاونه ويحصن بها فرجه) (وسائل الشيعة، أبواب مقدمات النكاح، باب٩، ح١).

(٣) نقلها تفسير الصافي: ٥٤٧/٧-٥٤٨ عن تفسير القمي والعياشي وعيون أخبار الرضا (عليه السلام) والكافي والمحاسن.

نعمة حسن الخلق:

ومن هذه النعم المعنوية حُسن الخلق وبها امتدح الله تعالى نبيه الكريم [وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ] (القلم:٤) والناس لا تلتفت إلى هذه النعم ولا تعيرها اهتماماً ولذا فإنهم لا يحسدون صاحبها عليها، وقد ورد في التواضع ما مضمونه انه نعمة لا يحسد عليها صاحبها، فهل يلتفت المجتمع إلى تهنئة من يكتسب خلقاً كريماً أو يؤدي طاعة عظيمة كصلاة الليل أو بر الوالدين أو قضاء حوائج الناس أو المواظبة على صلاة الجماعة في المساجد كما يهنئون من يرزق مالاً أو ولداً، وهل يعزّون أحداً على فوات شيء من ذلك كنومه عن صلاة الصبح أو عقوق الوالدين أو الإفطار في شهر رمضان كما يعزون على فقدان عزيز أو حصول خسارة.

نعمة الزوجة الصالحة:

ومن هذه النعم الزوجة الصالحة، ففي الحديث الشريف عن النبي (صلى الله عليه وآله) قال (ما استفاد امرؤ مسلم فائدة بعد الإسلام أفضل من زوجة مسلمة تسرّهُ إذا نظر إليها، وتطيعه إذا أمرها، وتحفظه إذا غاب عنها في نفسها وماله).[1]

علينا أن نتحدث بالنعم المعنوية:

هذه النعم المعنوية (الإيمان بالله وبرسوله وولاية أهل البيت (عليهم السلام) وحسن الأخلاق) هي الأوضح في عدم قبولها الإحصاء والاستقصاء لأنها تمتد إلى الحياة الباقية الخالدة، ولان بركاتها وأثارها واسعة، ولأنها مستمرة بالعطاء لا تنقطع كما

(١) وسائل الشيعة، كتاب النكاح، أبواب مقدماته وآدابه، باب٩، ح١٠.

عبّر الإمام (عليه السلام) في حديثه مع أبي حنيفة وهذه النعم هي التي طلب الله تعالى من عباده أن يتحدثوا بها وينشروها ويدعوا الناس إليها لتغمرهم سعادتها، قال تعالى [وأمّا بنعمةِ ربّك فحدّث].

عن الحسين بن علي (عليهما السلام) قال: (أمره أن يحدِّث بما أنعم الله عليه من دينه)[١].

ولا نتوقع أن المطلوب أن يتحدّث الإنسان بما عنده من أموال وعقارات وأولاد ونحوها، نعم ورد في تطبيق الآية على هذا المستوى أن يُظهر الإنسان نعمة الله عليه، لأن التظاهر بعكسها كذب في الفعل وإخفاء لنعمة الله عليه، ففي الكافي عن الصادق (عليه السلام) قال (إذا أنعم الله على عبده بنعمة فظهرت عليه سمي حبيب الله محدّثاً بنعمة الله، وإذا أنعم الله على عبده بنعمة فلم تظهر عليه، سمي بغيض الله مكذّباً بنعمة الله).[٢]

شهر رمضان: من النعم المعنوية:

ومن تلك النعم المعنوية التي أكرمنا الله تعالى بها شهر رمضان الذي أطلّ علينا. بفضل الله تبارك وتعالى، فاستقبلوه بمعرفة فضله، وعظيم نعمة الله تعالى به، وأنّى لنا أن نعرفه حق معرفته لولا رسول الله (صلى الله عليه وآله) وأهل بيته الكرام، فاعرفوا حقه وقدره من خطبة النبي (صلى الله عليه وآله) في آخر جمعة من شعبان[٣] وتأملوا فيها جيداً.

---

(١) تفسير الصافي: ٥٠٤/٧٠ عن المحاسن للبرقي.

(٢) المصدر نفسه عن الكافي: باب التجمّل وإظهار النعمة.

(٣) راجعها في مفاتيح الجنان في فضل شهر رَمضان وأعمالِه.

واعرفوه أيضاً من دعاء الإمام السجاد (عليه السلام) في استقباله، ودعائه في وداع شهر رمضان الذي نصحتُ مراراً بقراءته قبل دخول الشهر لنزداد بصيرة بعظمة هذا الشهر الشريف ونستعد له، والدعاءان موجودان في الصحيفة السجادية.

ومما ورد في ثانيهما في بيان عظيم نعمة الله تعالى بهذا الشهر الشريف قوله (عليه السلام) (ما أفشى فينا نعمتك، وأسبغ علينا منّتك، وأخصّنا ببرّك، هديتنا لدينك الذي اصطفيت، وملّتك التي ارتضيت، وسبيلك الذي سهّلت، وبصّرتنا الزلفة لديك، والوصول إلى كرامتك) ثم قال (عليه السلام) (اللهم وأنت جعلت من صفايا تلك الوظائف وخصائص تلك الفروض شهر رمضان الذي اختصصته من سائر الشهور، وتخيّرته من جميع الأزمنة والدهور، وآثرته على كل أوقات السنة، بما أنزلت فيه من القرآن والنور. وضاعفت فيه من الإيمان، وفرضت فيه من الصيام، ورغّبت فيه من القيام) إلى أن قال (عليه السلام) (وقد أقام فينا هذا الشهر مُقام حمد، وصحبنا صحبة مبرور، وأربحنا أفضل أرباح العالمين)، وقد شرح النبي (صلى الله عليه وآله) هذه الأرباح في خطبته التي اشرنا إليها، وهي حقاً أفضل أرباح العالمين.

وأمّا بنعمة ربّك فحدّث:

والتزاماً بالآية الشريفة (وأما بنعمة ربك فحدّث) ينبغي لنا أن نستقبل هذا الشهر الشريف وهذه النعمة المباركة بمعرفته والاستعداد له بالتوبة والاستغفار والعزم على مضاعفة الهمة في الطاعات والورع عما حرّم الله تعالى، وصيام الأيام الأخيرة من شعبان ولو للقضاء عما في الذمة، وأن نضع لنا برامج نقضي بها أيامه ولياليه الشريفة تتضمن أداء صلوات مستحبة وأدعية وتلاوة القرآن لأنه شهر

رمضان ربيع القرآن،وتتضمن حضور المساجد لأداء صلاة الجماعة والاستماع إلى محاضرات الوعظ والإرشاد مباشرة أو التي تنقلها الفضائيات بفضل الله تبارك وتعالى. وان نتحدث بفضل هذا الشهر وعظمته، وندعو الناس إلى أداء حق الله تعالى فيه أكثر مما في غيره من لزوم الطاعات واجتناب المعاصي، وان نقيم الفعاليات التي تحفّز المجتمع على طاعة الله تبارك وتعالى وذم معصيته بنشر اللوحات الجدارية والبوسترات التي تتضمن الأحاديث الشريفة.

ونذكركم بما قلناه سابقاً من وضع مكبرات الصوت على السيارات وتجوب شوارع المدن مرحّبة بالشهر الشريف ومبيّنة لعظمته وثواب الطاعة فيه وعقوبة المخالفين، إقامة المسيرات والمهرجانات الاحتفالية بقدوم هذا الشهر المبارك وتلبية الدعوة لضيافة الرحمن والتزوّد من الموائد الإلهية.

ماذا علينا تجاه النعم المعنوية؟

أقول كلامي هذا:

١- لنلتفت إلى النعم الحقيقية التي تبقى ونعمل على تحصيلها.

٢- ولنزهد في ما سواها من النعم الزائلة التي يفني الغافل عمره في جمعها والعناية بها ومتابعتها فيكون خادماً لها بدل أن تكون هي خادمة له، فصاحبها لا يحسد عليها حقيقة.

٣- وأن نبذل الوسع في التحدث بهذه النعم الحقيقية وندعو الناس إليها ونرغّبهم فيها.

٤- ولنتجنّب هذا التزاحم والتغالب والصراع على تلك الأمور الوهمية التي

يُخدع بها الغافلون.

قال تعالى في المقارنة بين النوعين من النعم [زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ، قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ] (آل عمران:١٤-١٥)

إن اختيار اسم (النعيم) لهذه الفضائية التي أنطلق بثها تزامناً مع حلول شهر رمضان المبارك، يحملّها مسؤولية التحدث بهذه النعم العظيمة.

أسأل الله تعالى أن يجعل هذه القناة منبراً لبيان النعم الحقيقية ودعوة الناس إليها وخلق الحوافز لديهم للتمسك بها مع عدم إهمال الحديث عن النعم المادية كسعة المال وصحة البدن والأمن والعافية والولد والاستقرار وكيفية استثمارها في طاعة الله تبارك وتعالى.

وأن تكون هذه القناة نافذةً يُطلّ منها العلماء والمفكرون والعاملون المخلصون على الدنيا لتسمع منهم وتهتدي بهم ويحققوا أمل الأئمة الأطهار (عليهم السلام) عندما حثوا شيعتهم على إيصال صوتهم للبشرية جمعاء وقالوا (عليهم السلام) (فإن الناس لو علموا محاسن كلامنا لاتبعونا) فلتتحدث القناة بهذه النعم الإلهية وتدعو الناس إليها، فإن اختيار الاسم للقنّاة جاء منسجماً مع هذه المسؤولية [وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ] (المطففين:٢٦).

القبس القرآني

٦٧

﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾[1]

[القدر : ٣]

كيف تكون ليلة القدر خيرا من ألف شهر؟

قال الله تبارك وتعالى في فضل وشرف ليلة القدر التي هي أفضل ليالي السنة: [لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ] (القدر:٣) والمشهور في فهمها أن العمل فيها يتضاعف برحمة الله تعالى وفضله ليكون خيراً من عمل ألف شهر، وهو معنى صحيح مَنَّ الله تعالى به على عباده ليزيدهم من عطائه كرماً منه، وقد دلت عليه الروايات ففي الكافي عن أبي عبد الله الصادق (عليه السلام)، (قال له بعض أصحابنا: كيف تكون ليلة القدر خيراً من ألف شهر؟ قال: العمل فيها خير من العمل في ألف شهر ليس فيها ليلة القدر)، ويدلّ عليه وصفها بالمباركة في قوله تعالى: [إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ] (الدخان:٣) ومن بركاتها زيادة الأجر على الأعمال عن غيرها من الليالي والأيام.

من معاني ليلة القدر:

وهذا المعنى مأخوذ من اسمها؛ لأن القدر –الذي هو بمعنى الشأن العظيم فيقال عالي القدر– متحقق فيها فلها قدر عظيم، كما أنه متحقق في غيرها

(١) أصل الكلمة تقرير لحديث سماحة المرجع الديني الشيخ اليعقوبي (دام ظله) مع جمع من زوار أمير المؤمنين (عليه السلام) مساء يوم ٢١/رمضان/١٤٣١ ثم أضاف إليها سماحته ليتحدث بها من خلال قناة النعيم الفضائية في رمضان /١٤٣٢ الموافق آب/٢٠١١.

بدرجات

متفاوتة من الفضل في أمكنة وأزمنة متعددة كالصلاة في المساجد الأربعة وعند أمير المؤمنين (عليه السلام) فإنها بآلاف الصلوات، وفي ليلة الجمعة ويومها وليالي شريفة متعددة تتضاعف الأعمال أيضاً.

وهناك معنى آخر لهذه الليلة مأخوذ من اسمها بالمعنى الآخر وهو القدر بمعنى التقدير أي اتخاذ القرار والبت في الأمر وقد ورد هذا التفسير في الكافي بإسناده عن الإمام الباقر(عليه السلام) في رواية جاء فيها: (يقدّر في ليلة القدر كل شيء يكون في تلك السنة إلى مثلها من قابل: خير وشر وطاعة ومعصية ومولود وأجل أو رزق فما قدّر في تلك الليلة وقضي فهو المحتوم ولله عز وجل فيه المشيئة).

ويكون معنى الآية حينئذٍ، أن الله تعالى يقدِّر في ليلة القدر مصائر العباد وأرزاقهم وأمورهم المستقبلية قال تعالى: [فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ] ومعنى كونها خيراً من ألف شهر أن العبد قد يحظى بالتفاتة من ربه وينالـه لطف خاص فيقدّر الله تبارك وتعالى له في هذه الليلة أمراً يساوي حياته كلها التي تمتد في المعدل ألف شهر وهي حوالي ٨٣ سنة.

ولذا ورد في أدعية هذه الليلة (وإن كنت من الأشقياء فامحني من الأشقياء واكتبني من السعداء فإنك قلت في كتابك المنزل على نبيك المرسل صلواتك عليه وآله: [يَمْحُو اللّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ] فمثل هذا التغيير في القضاء إذا حصل في هذه الليلة فإنه يعادل العمر كله؛ لأن غاية سعي الإنسان في حياته هو بلوغ السعادة الحقيقية بفضل الله تبارك وتعالى.

إحياء ليالي القدر:

وكان الأئمة (عليهم السلام) يعطون لهذه الليلة أهمية خاصة ويوجّهون شيعتهم لإحيائها بما يقرّبهم إلى الله تبارك وتعالى. روى الشيخ الطوسي (قدس سره) في التهذيب بسند معتبر عن زرارة عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: (سألته عن ليلة القدر، قال: هي ليلة إحدى وعشرين أو ثلاث وعشرين، قلت: أليس إنما هي ليلة؟ قال: بلى، قلت: فأخبرني بها، قال: وما عليك أن تفعل خيراً في ليلتين)[١].

وعن الفضيل بن يسار قال: (كان أبو جعفر (عليه السلام) إذا كانت ليلة إحدى وعشرين وليلة ثلاث وعشرين أخذ في الدعاء حتى يزول الليل، فإذا زال الليل صلّى)[٢].

وروي عن الإمام الباقر (عليه السلام) أنه قال: (أتى رسولَ الله (صلى الله عليه وآله) رجلٌ من جهينة فقال: يا رسول الله إن لي إبلاً وغنماً وغُلمة وعمَلةً فأحب أن تأمرني بليلة أدخل فيها فأشهد الصلاة، وذلك في شهر رمضان، فدعاه رسول الله (صلى الله عليه وآله) فسارّه في أذنه، فكان الجهني إذا كانت ليلة ثلاثة وعشرين دخل بإبله وغنمه وأهله فبات تلك الليلة بالمدينة فإذا أصبح خرج بمن دخل به فرجع إلى مكانه)[٣].

وعن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (إن ليلة الثالث والعشرين من شهر رمضان هي ليلة الجهني فيها يفرق كل أمر حكيم وفيها تثبت البلايا والمنايا والآجال والأرزاق والقضايا، وجميع ما يُحدث الله عز وجل فيها إلى مثلها من الحول، فطوبى لعبد

---

(١) التهذيب: ٥٨/٣.

(٢) الكافي: ١٥٥/٤، الخصال: ٥١٩.

(٣) التهذيب: ٣٣٠/٤، الدعائم: ٢٨٢/١، بحار الأنوار: ١٢٨/٨٣.

أحياها راكعاً وساجداً ومثّل خطاياه بين عينيه ويبكي عليها فإذا فعل ذلك رجوت أن لا يخيب إن شاء الله تعالى)[1].

حول أعمال ليلة القدر:

ولذلك ينبغي للمؤمن أن يلح في مثل هذا الطلب في ليلة القدر لعله يحظى بالقبول، فإن رحمة الله واسعة وفضله مبذول لمن سأله وأن يكون دعاؤه بالحال الذي وصفه رسول الله (صلى الله عليه وآله) (فاسألوا الله ربكم بنيات صادقة وقلوب طاهرة) وينبغي أن يقوم بالأعمال التي تحقق له أهلية الاستجابة والقبول في ليلة القدر – كالإكثار من الصلوات المستحبة كصلاة مائة ركعة والدعاء والرحمة بالآخرين وسماع الموعظة وذكر فضائل أهل البيت (عليهم السلام) ومصائبهم- مما يحيي القلب وينقيه ويخلص النية، ومن أعمالها المؤكدة زيارة الإمام الحسين (عليه السلام) ولو من بُعد لمن يتعذر عليه زيارة تربته المقدّسة فقد وردت فيها روايات عديدة منها ما في التهذيب عن الإمام الصادق (عليه السلام) وفيها: (نادى منادٍ تلك الليلة من بطنان العرش إن الله قد غفر لمن أتى قبر الحسين (عليه السلام) في هذه الليلة).

وإذا وجد في عمل رتابة وملل فلينوِّع ولينتقل إلى عمل آخر، فإن الأعمال المذكورة لهذه الليالي كثيرة ومتنوعة، وأحد أهداف تنوعها هو منع الكسل والملل والرتابة، ولإحداث الحيوية، ولإعطاء الفرصة لكل شخص أن يأخذ ما يناسبه ويتفاعل معه من أعمال الجوارح والجوانح.

---

(١) دعوات الراوندي: ٢٠٧.

بماذا نستعد لليلة القدر؟

وينبغي الاستعداد لليلة القدر من قبلها بالورع عن معاصي الله تبارك وتعالى والإقبال على طاعته، ومن أشكال الاستعداد أن يأتي بأعمالها منذ ليلة التاسع عشر كما هو مقرَّر مع أنها لا يحتمل أن تكون ليلة القدر لأن المروي أن ليلة القدر تقع في العشر الأواخر من شهر رمضان لكن ليلة التاسع عشر جعلت منها وشملت بأعمالها ليوفّق المؤمن لليلة القدر، ومن يتهاون بها فلعله يحرم من شيء من فضل ليلة القدر إلا أن يتداركه الله تعالى بفضله وكرمه.

ولتوضيح مسألة دخول ليلة التاسع عشر في أعمال ليالي القدر –مع أن الليلة متعينة في العشر الأواخر من شهر رمضان- نقول: إن أي طلب يمر بعدة مراحل من النظر فيه ثم دراسة كيفية تلبية وتهيئة ظروف استجابته، ثم اتخاذ القرار بالاستجابة له، ثم تنفيذ هذا القرار وتحقيق المراد، ففي الليلة التاسعة عشرة يبدأ المؤمنون بتقديم طلباتهم ويُنظر في تلبيتها لهم، وفي الليلة الحادية والعشرين: تتخذ القرارات بالاستجابة لمن يشمله اللطف الإلهي الواسع، لكن يبقى قلم المحو والإثبات لم يجفّ، وفي الليلة الثالثة والعشرين: تمضى تلك الأوامر نفياً أو إثباتاً، ولذا تكرر وصف القضاء الإلهي في ليلة القدر بأنه لا يرد ولا يبدَّل كما في دعاء الإمامين الصادق والكاظم (عليهما السلام) بعد كل فريضة، وفيه: (اللهم إني أسألك في ما تقضي وتقدّر من القضاء الذي لا يرد ولا يبدل) إلى آخر الدعاء.

وهذا المعنى ورد في رواية ذكرها الشيخ الكليني في الكافي بإسناده عن زرارة قال: (قال أبو عبد الله (عليه السلام): التقدير في تسع عشرة، والإبرام في إحدى وعشرين، والإمضاء في ليلة ثلاث وعشرين).

ويكفي دليلاً على عظمة التغييرات التي تحصل للفرد وللبشرية جميعاً في ليلة القدر أن نزول القرآن كان فيها، القرآن الذي قلَبَ حياة البشرية وسما بها من حيوانية الجاهلية إلى قمة التوحيد وفتح آفاقاً واسعة للعلوم والمعارف والحضارات وأرسى أسس الحياة السعيدة، فكانت تلك الليلة خيراً من آلاف الشهور والسنين –لأن الألف لم تذكر للتحديد وإنما للتعبير عن الكثرة – التي قضتها البشرية في ظلمات الجاهلية.

وتبقى الأمة سعيدة ما دامت ملتفتة إلى عظمة ليلة القدر والقرآن الذي نزل فيها وملتزمة به ومستفيدة منه، وإلا فإنه لا يغنيها ما أصابته من عرض الدنيا وحطامها.

علاقة الزهراء (عليها السلام) بليلة القدر:

وبهذا المعنى كان من ألقاب الصدّيقة الطاهرة فاطمة الزهراء (عليها السلام) أنها ليلة القدر؛ لأن موقفها صحّح مسيرة الأمة إلى قيام يوم الساعة، فهذا الانقلاب الإيجابي المضاد الذي أحدثته الزهراء (عليها السلام) بموقفها يعدل عمل الأمة آلاف السنين إلى آخر عمرها فيما لو لم تهتدِ إليه.

وكان لليلة القدر مكانة في قلب الزهراء (عليها السلام)، فقد روي (أن فاطمة (عليها السلام) كانت لا تدعْ أحداً من أهلها ينام تلك الليلة (ليلة القدر) وتداويهم بقلة الطعام وتتأهب لها من النهار، وتقول: محروم من حُرِمَ خيرها)[1].

وعلى أي حال فإن الاهتمام بليلة القدر والتركيز على إحيائها لا يعني أن

(١) بحار الأنوار: ١٠/٩٧.

الإنسان يتكاسل في أيامه كلها ويتهاون ويفرّغ نفسه في الليالي المحتملة لليلة القدر، فهذا لا يناسب العاملين الراغبين فيما عند الله تبارك وتعالى، ولا أن ييأس إذا لم يشعر أنه قد وفق لإحياء ليلة القدر؛ لأن هذه الليلة وشهر رمضان وغيرها من أبواب اللطف الإلهي فإذا انقضت فإن رب شهر رمضان ورب ليلة القدر باقٍ ورحمته واسعة.

تفكر ساعة خير من عبادة ستين سنة:

إنَّ نفس هذا المعنى الذي شرحنا به الآية ورد في موضوع آخر ففي الرواية (تفكر ساعة خير من عبادة ستين سنة) وهو مضافاً إلى معناه المنسبق إلى الذهن وهو أن التفكير والتأمل والفهم هو حقيقة العمل والغاية المنشودة منه لا الحركات الخارجية التي إنما تكتسب قيمتها من محتواها وهو التفكر والتأمل المنتج للخشوع والحب والرغبة والرهبة.

فإن للحديث معنى آخر كالذي ذكرناه عن ليلة القدر وهو أن الإنسان قد يقف ساعة للتفكر والمراجعة والتحقيق في مسيرة حياته وهدفه الذي يريد أن يصل إليه، ونيته في أعماله، والقيادة التي يرجع إليها في أموره، وإذا به يتخذ قراراً يقلب كل مسيرة حياته ويغير وجهتها إلى الهدف الصحيح، فتكون هذه الساعة من المراجعة والتأمل خيراً من كل ما يؤديه خلال حياته عن غير بصيرة وهدى وكان يظن أنه يحسن صنعاً.

وأوضح مثال على هذه الحالة الحر الرياحي الذي أمضى ستين سنة من عمره بعيداً عن ولاية أهل البيت (عليهم السلام) وإتباع منهجهم، فوقف ساعة يوم عاشوراء

وتأمل في حاله وأرجع نفسه واتخذ القرار الشجاع بالانتقال إلى معسكر الحسين (عليه السلام) وتحول من الشقاوة الأبدية إلى السعادة الأبدية، فقد كانت هذه الساعة هي كل حياته وليس تلك السنين الطويلة التي قضاها بعيداً عن الحق.

ليلة القدر مرتبطة بصاحب ليلة القدر:

ومما ينبغي التركيز عليه في هذه الليلة الدعاء للإمام صاحب العصر (أرواحنا له الفداء) لأنه صلوات الله عليه وسلامه هو صاحب هذه الليلة ويزداد فيها شرفاً وكرامة، سُئل الإمام الباقر (عليه السلام) عما إذا كان يعرف ليلة القدر؟ قال (عليه السلام): (كيف لا نعرف والملائكة تطوف بنا فيها)[1]، وعليه (عليه السلام) تنزَّل الملائكة وتعرض عليه ما قضى الله تبارك وتعالى به على العباد في تلك الليلة إلى العام المقبل فينظر (عليه السلام) فيها ويدعو لأصحابها بما يناسبهم، لأنه حجة الله تعالى الفعلية على المخلوقات، ويستحب الإكثار من دعاء (اللهم كن لوليّك الحجة بن الحسن) عسى أن نحظى بنظرة كريمة منه نستكمل بها الكرامة عند الله تبارك وتعالى ثم لا يصرفها عنا بجوده وكرمه.

تنبيه عن أعمال ليلة القدر:

وينبغي الالتفات أيضاً إلى أن أعمال ليلة القدر منتشرة في كتب السنن والمستحبات كـ(مفاتيح الجنان) و(مصابيح الجنان) تحت أكثر من عنوان، فتوجد أعمال خاصة بالليلة وتوجد غيرها تحت عنوان (الأعمال المشتركة لليالي القدر وأخرى تحت عنوان العشر الأواخر من شهر رمضان وأخرى تحت عنوان الأعمال

(١) تفسير البرهان: ٤٨٨/٤، ح٢٩.

العامة لشهر رمضان، فالتهيؤ والاستعداد يشمل تجميع هذه المفردات في برنامج عمل يأخذ منه كل شخص بما يناسبه وما ييسّره الله تبارك وتعالى.

نسأل الله تعالى أن يجعلنا من أهل ليلة القدر وأن يقسم لنا فيها خير ما قسم لأحد من عباده الصالحين إنه واسع كريم.

القبس القرآني

٦٨

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا) [١]
الاستقامة

[الأحقاف : ١٣]

الحمد لله الذي هدانا لحمده، وجعلنا من أهله، لنكون لإحسانه من الشاكرين، وليجزينا على ذلك جزاء المحسنين، والحمد لله الذي حَبانا بدينه، واختصنا بملّته، وسبَّلنا في سُبُل إحسانه، لنسلكها بمنّه إلى رضوانه، حمداً يتقبله منّا، ويرضى به عنّا، وصلى الله على سيدنا أبي القاسم محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين.

لنستفد من القرآن الكريم:

البعض يقرأ القرآن بلسانه طلباً للثواب الذي أفادته الروايات الكثيرة، والبعض يقرأ القرآن بعقله ليستخرج منه نظرية علمية أو يستدل به على مطلب ما، كاستدلال الأصولي بآية النفر[٢] على حجية خبر الواحد، أو استدلال النحوي على بعض القواعد الإعرابية، والبعض يقرأ القرآن ليتدبر في آياته، ويثير

(١) الخطبة الأولى التي ألقاها سماحة آية الله العظمى الشيخ محمد اليعقوبي (دام ظله) لصلاة عيد الفطر السعيد عام ١٤٣٢ يوم الأربعاء الموافق ٢٠١١/٨/٣١ م

(٢) يعني بها سماحة الشيخ (دام ظله) قوله تعالى: [فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ] (التوبة:١٢٢) والاستدلال بها مذكور في كتب أصول الفقه.

مكنوناته ليأخذ منه علاجاً لأمراضه المعنوية، وبرنامجاً لسيره التكاملي لنيل رضا الله تعالى.

فالذي يريد أن يكون من المفلحين الفائزين بما عند الله تبارك وتعالى يجد وصفة العلاج المتضمنة لعدة فقرات في قوله تعالى في أول سورة المؤمنون: [قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ، الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ..] إلى قوله تعالى: [أُوْلَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ، الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ] (المؤمنون: ١-١١).وهكذا الآيات التي تصف عباد الرحمن أو المتقين وغيرهم.

مفردة الاستقامة:

واليوم نقف عند آية مباركة تتحدث عن امتيازات جليلة ومنن عظيمة وهي قوله تعالى: [إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ، نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ، نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ] (فصلت ٣٠-٣١-٣٢) ووردت بتفصيل أقل في موضع آخر [إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ] (الأحقاف: ١٣) فنحن أما مفردة قرآنية هي (الاستقامة) تتحقق بها آثار عظيمة نطقت بها آية سورة فصلت.

تتنزل عليهم الملائكة فتطمّئنهم أن لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون، وقد قيل في الفرق بين الخوف والحزن أن الأول من الأمور القادمة والثاني من الأسى على ما مضى، فلا يخافون من القادم في القبر أو أهوال يوم القيامة أو مما

يخوفونهم به في الدنيا بسبب رفضهم الانصياع لما سوى الله تعالى من طواغيت أو تقاليد اجتماعية وغيرها، ولا يحزنون على ما فاتهم في الدنيا من أمورها الزائلة؛ لأنهم سيجدون أن الله تعالى قد عوّضهم بكرمه بما هو خير وأبقى. وقيل إن ((الخوف إنما يكون من مكروه متوقع كالعذاب الذي يخافونه والحرمان من الجنة الذي يخشونه، والحزن إنما يكون من مكروه واقع وشر لازم كالسيئات التي يحزنون من اكتسابها، والخيرات التي يحزنون لفوتها عنهم، فتطيّب الملائكة أنفسهم أنهم في أمن من أن يخافوا شيئاً أو يحزنوا لشيء فالذنوب مغفورة لهم والعذاب مصروف عنهم))[1].

ثمرات الاستقامة:

وتبشّرهم الملائكة بالجنة التي وُعدوا بها على لسان القرآن الكريم والناطقين به (صلوات الله عليهم أجمعين) بما تتضمن من نِعم وما لا عين رأت ولا أذن سمعت خالدين فيها.

وتتولى أمورهم الملائكة بإذن الله تعالى مدبر الأمور وليسوا هم البشر الضعيف الجاهل الضال العاجز عن أن يتولى أموره، وإذا تولّتها الملائكة فإنها لا تأتي إلا بالخير وترعاهم وتداريهم أكثر مما تداوي الأم الشفيقة ولدها،وتجنّبهم كل سوء، في كل المواطن التي يحتاج فيها إلى المعونة حيث لا ناصر إلا الله تعالى في صعوبات الدنيا وعند سكرات الموت وعندما يترك وحيداً في قبره وفي أهوال القيامة وعتباتها، وتعوّضهم عما سيفقدونه من إخوان وأصدقاء وأصحاب

(١) الميزان في تفسير القرآن، تفسير الآية ٣٠ من سورة فصلت.

بسبب استقامتهم على الحق وسقوط الآخرين وابتعادهم عن الاستقامة، كما نُسِب إلى أبي ذر (رضي الله عنه): (ما ترك الحق لي صديقاً)[١].

لهم في الجنة ما تشتهي أنفسهم بل أوسع من ذلك فلهم كل ما يتمنون من النعم المعنوية والحسّية من دون أن يطلبها، عن الإمام الباقر (عليه السلام) من حديث عن نعم الله تعالى في الجنة قال (عليه السلام) فيه: (فإذا دعا وليُّ الله بغذائه أُتي بما تشتهي نفسه عند طلبه الغذاء من غير أن يسمي شهوته)[٢] وهكذا ما يدّعي.

وأعظم النعم التي ذكرتها الآية الكريمة لهم أنهم يَحُلُّون ضيوفاً عند الله الغفور الرحيم معززين مكرمين مرَحَّباً بهم وتكون النُزُل التي تقّدم للضيوف كما يليق بأي ضيف كريم عند الرب العظيم.

هذه المواهب الجليلة لا تُعطى للإنسان لمجرد أن يؤمن بالله تعالى بلسانه من دون استقامة على التوحيد ورفض الخضوع والانقياد لكل الآلهة المصطنعة من دونه، وأولها النفس الأمّارة بالسوء، وهذا أمر طبيعي، إذ لا يبقى للتوحيد معنى إذا لم يستقم عليه، ويلتزم بمتطلباته.

والإيمان الحقيقي يدعو إلى الاستقامة وهي من ثمراته كما يدعو إلى العمل الصالح، قال أمير المؤمنين (عليه السلام) بعد أن تلا الآية الشريفة المتقدمة: (وقد قلتم [رَبُّنَا اللهُ] فاستقيموا على كتابه، وعلى منهاج أمره، وعلى الطريقة الصالحة من عبادته، ثم لا تمرقوا منها، ولا تبتدعوا فيها، ولا تخالفوا عنها، فإن أهل المروق

---

(١) بحار الأنوار: ١٨٠/٣١.

(٢) الكافي: ٩٩/٨.

منقطع بهم عن الله يوم القيامة)[١].

معنى الاستقامة:

وفي ضوء كلمة أمير المؤمنين (عليه السلام) يظهر أن الاستقامة تتضمن عدة معانٍ:

(أولها) الثبات وعدم الميلان والانحراف تحت ضغط الشهوة أو الخوف أو الحرص على منصب أو المجاملة أو التقليد ونحوها فيخرج عن حد الاستقامة، في حديث عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) بعد أن تلا هذه الآية قال (صلى الله عليه وآله): (قد قالها الناس – أي كلمة الإيمان – ثم كفر أكثرهم فمن قالها حتى يموت فهو ممن استقام عليها)[٢]، فعلامة الاستقامة عدم الزيغ والانحراف باتجاه المعصية أو التقصير في الطاعة، يقول الإمام الصادق (عليه السلام) في معنى قوله تعالى: [اهدِنَا الصِرَاطَ المُستَقِيمَ] يعني أرشدنا إلى لزوم الطريق المؤدي إلى محبّتك، والمبلّغ إلى جنتك، والمانع من أن نتبع أهواءنا فنعطب، أو أن نأخذ بآرائنا فنهلك)[٣].

(ثانيها) المداومة على الطاعة وعمل الخير والاستمرارية فيه؛ إذ لا يصل الإنسان إلى الهدف بمجرد وضع قدمه على الطريق الصحيح بل لا بد من الحركة الصحيحة باستمرار على الطريق الصحيح، عن علي (عليه السلام) في معنى قوله تعالى: [اهدِنَا الصِرَاطَ المُستَقِيمَ]: (يعني أدِم لنا توفيقك الذي أطعناك به في

(١) نهج البلاغة: الخطبة (١٧٦).

(٢) مجمع البيان في ذيل تفسير آية (٣٠) من سورة فصلت.

(٣) معاني الأخبار: ص٣٣.

ماضي أيامنا، حتى نطيعك كذلك في مستقبل أعمارنا)[1].

(ثالثها) الاعتدال فلا إفراط ولا تفريط، لأن كلاً منهما ابتعاد عن الاستقامة، قال تعالى: [فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلاَ تَطْغَوْاْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ] (هود: ١١٢) والطغيان هو الخروج عن حد الاعتدال.

(رابعها) الوضوح في الإيصال إلى الهدف فلا شبهات ولا شكوك ولا غموض ولا التفاف ولا حيرة أو تردد، كما أن من صفات استقامة الطريق ذلك ليتحقق المطلوب منه بشكل كامل ولا يضل السائر عليه.

(خامسها) الإخلاص، فالاستقامة لا تكون إلا إذا كانت لله تبارك وتعالى وعلى الصراط الذي أمر باتباعه، وليس لنيل غاية معينة من شهرة أو مال أو منصب أو جاه، قال تعالى: [فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ] لا كما تشتهي ولا أي نحو آخر.

صعوبة الاستقامة:

إن الوصول إلى النجاح أو القمة أيسر من الثبات عليها والمحافظة على التمسك بها، وهذا معروف لدى المتنافسين في كل المجالات وهو أمر شاق لا ينال إلا بلطف من الله تبارك وتعالى؛ لذا يظهر من الآية الشريفة أن الخطوة الأولى من العبد بأن يستقيم وحينئذٍ يستحق مزيداً من اللطف الإلهي فتنزل عليه الملائكة لتتولى أمره وتقوده إلى الخير، وتثبته على الاستقامة، قال تعالى: [وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً] (النساء: ٦٦).

ويكون الأمر أشق حينما يكلَّف الإنسان بأن يأخذ بيد من معه في طريق

(١) معاني الأخبار: ص٣٣.

الاستقامة، قال تعالى: [فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلاَ تَطْغَوْاْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ] (هود: ١١٢)، روى في الدر المنثور بسنده عن الحسن (عليه السلام) قال: (لما نزلت هذه الآية [فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ] قال (صلى الله عليه وآله): شمِّروا شمِّروا، فما رؤي ضاحكاً) وفي مجمع البيان في قوله تعالى [فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ] ((قال ابن عباس: ما نزل على رسول الله (صلى الله عليه وآله) آية كانت أشدَّ عليه ولا أشقّ من هذه الآية، ولذلك قال لأصحابه -حيث قالوا له: أسرعَ إليك الشيب يا رسول الله-: (شيّبتني هود والواقعة))[1].

وأرجع البعض سبب ذلك إلى تكليفه بمن معه؛ لأن آية أخرى أمرت بالاستقامة وليس فيها هذا الذيل فلم يذكرها رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وهو قوله تعالى: [فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ] (الشورى:١٥).

فالمسؤوليات شاقة وعديدة، إذ عليه الاستقامة في كل لحظة وفي كل قول وفعل، وهو أمر شاق، وأن يكون كل ذلك خالصاً لله تعالى وهو أشق، ثم عليه أن يقوّم الآخرين على هذا الطريق على اختلاف طباعهم وتباين مستوياتهم وتنوع اتجاهاتهم، وتتسع هذه المسؤولية وتزداد المشقة بسعة من كلّف بقيادتهم، حتى تكون بمستوى ولاية أمر المسلمين، وبمستوى المواجهة التي نشهدها اليوم حيث برز الشرك والكفر والفسوق والظلم والاستبداد بكامل عدته وعدده.

---

(١) سورة الواقعة ليس فيها أمر بالاستقامة ومما قيل في وجه الاشتراك مع سورة هود أنها متشابهة في ذكر أهوال يوم الفصل وأحوال القيامة الأمر الذي يخشاه رسول الله (صلى الله عليه وآله) على أمته لما علمه من عدم استقامة الكثير منهم على الصراط من بعده رغم أنهم أقروا بالإيمان بالله لساناً).

لنحقق الاستقامة:

هذه الاستقامة على الصراط الذي ارتضاه الله تعالى وسار عليه الصالحون من عباده، علّمنا الله تبارك وتعالى أن نسأله إياها ونطلبها منه يومياً عشر مرات على الأقل في صلاتنا، لأنه متضمن لكل خصال الخير قال تعالى: [اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ] (الفاتحة:٦)، ويعرفنا الله تبارك وتعالى بهذا الصراط ويدلنا على معالمه فيصفه بأنه: [صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ] (الفاتحة:٧) ومَن هؤلاء الذين أنعم الله عليهم؟، قال تعالى: [وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـئِكَ رَفِيقاً] (النساء:٦٩).

فالاستقامة تتحقق بطاعة الله تبارك وتعالى ورسوله (صلى الله عليه وآله) ومَن أمر بطاعته بعده وهم الأئمة المعصومون (عليهم السلام) ثم نوّابهم بالحق، فاتباع القيادة الدينية الحقة ضمان للبقاء على الاستقامة على الصراط المستقيم، وفي مجمع البيان عن الرضا (عليه السلام) (أنه سُئل: ما الاستقامة؟ قال: هي والله ما أنتم عليه) وفي تفسير القمي في تفسير قوله تعالى: [إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا] قال: ثم استقاموا على ولاية علي أمير المؤمنين)، وفي الكافي بسنده عن محمد بن مسلم قال: (سألت أبا عبد الله (عليه السلام) عن قول الله عز وجل [إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا] فقال أبو عبد الله (عليه السلام): استقاموا على الأئمة واحداً بعد واحد [تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ..].وفي معاني الأخبار في تفسير قوله تعالى [اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ] (الفاتحة:٦) عن الصادق (عليه السلام) (وهي الطريق إلى معرفة الله، وهما صراطان: صراط في الدنيا، وصراط في الآخرة، وصراط في الأخرى، فأما الصراط الذي في الدنيا فهو الإمام المفترض الطاعة من عرفه بالدنيا واقتدى بهداه

مَّر على الصراط الذي هو جسر جهنم في الآخرة، ومن لم يعرفه في الدنيا زلت قدمه عن الصراط في الآخرة فتردّى في نار جهنم[١].

إن الإنسان إذا استقام على طاعة الله ورسوله (صلى الله عليه وآله) والأئمة الطاهرين (عليهم السلام) من بعده يتنعم في الدنيا فضلاً عن امتيازات الآخرة التي ذكرناها، قال تعالى: [وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُم مَّاء غَدَقاً] (الجن:١٦) في الكافي بسنده عن الباقر (عليه السلام) (في قوله تعالى [وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُم مَّاء غَدَقاً] قال: يعني لو استقاموا على ولاية علي بن أبي طالب أمير المؤمنين والأوصياء من وُلدِه (عليهم السلام) وقبلوا طاعتهم في أمرهم ونهيهم لأسقيناهم ماءً غدقاً، يقول: لأشربنا قلوبهم الإيمان، والطريقة هي الإيمان بولاية علي والأوصياء.

كيف نحقق الاستقامة؟

أيها الأحبة:

إن تحقق الاستقامة والثبات عليها التي نطلبها يومياً في صلاتنا –مما يعني أنها شيء يجب السعي لتحصيله– تتطلب أموراً:

١– العزم والإرادة الصادقة والشجاعة في اتخاذ القرارات والمواقف وإنجاز الأعمال المطلوبة.

٢– الوعي والمعرفة والمطالعة الواسعة لروايات المعصومين (عليهم السلام) وآثار السلف الصالح لأن أي عمل لا بد أن تسبقه معرفة، وبعد العمل يكتسب معرفة جديدة.

---

(١) معاني الأخبار: ص٢ ح١، تفسير الصافي: ١٢٦/١.

٣- الالتفات إلى موجبات الانحراف عن صراط الاستقامة مقدمة لاجتنابها وهي اتباع الشهوات والركون إلى الدنيا بزخارفها الباطلة أو الخوف من فقدان شيء أو القلق من فوات أمور، ومن موجبات الانحراف أيضاً أمور تبدو خارجة عن إرادة الإنسان، لكن مقدماتها بيده فيستطيع تجنبها بإزالة مقدماتها كالجهل والنسيان والغفلة والسهو فقد يشذّ الإنسان عن الصراط المستقيم لا عن عمدٍ بل جهلاً وغفلة، وبالنتيجة فقد فاته خير كثير.

ولذلك فإن الإنسان يدعو يومياً عشر مرات على الأقل في صلواته بعد طلب الهداية للصراط المستقيم أن يعصمه الله ويحميه من كلا النوعين من موجبات الانحراف عن الاستقامة، ابتداءً واستدامة لأنه معرض في أي لحظة للزلل والانحراف والإغواء إلا أن يمدَّه الله تعالى بلطفه ونوره.

مفردات عملية لتحقيق الاستقامة:

ولتحصيل الاستقامة مفردات عملية وبرامج ذكرتها الآيات الكريمة والروايات الشريفة، ولو التفتنا فإن الآيات التالية لقوله تعالى: [فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ] تتضمن مفردات أساسية لهذا البرنامج وهي عدم الركون إلى الظالمين والمحافظة على الصلاة في أوقاتها والصبر، قال تبارك وتعالى: [وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّهِ مِنْ أَوْلِيَاء ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ، وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ، وَاصْبِرْ فإن اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ] (هود: ١١٣-١١٥).

موعظة وتذكير:

وأُورد هنا للموعظة والتذكير روايتين تتضمنان وصفتين مهمتين لتطهير القلب وتهذيب النفس لمن أراد الكمال على طريق تحقيق الاستقامة.

(الأولى): رواية صحيحة رواها الثقات في كتبهم جميعاً كالكليني والصدوق والشيخ الطوسي (قدس الله أسرارهم والبرقي في المحاسن عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) قال: (قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) لعلي (عليه السلام): يا علي أوصيك في نفسك بخصال فاحفظها، ثم قال: اللهم أعنه، أما الأولى: فالصدق لا يخرجن من فيك كذبة أبداً، والثانية: الورع لا تجترين على خيانة أبداً، والثالثة: الخوف من الله كأنك تراه، والرابعة: كثرة البكاء من خشية الله عز وجل يبنى لك بكل دمعة بيت في الجنة، والخامسة: بذل مالك ودمك دون دينك، والسادسة: الأخذ بسنتي في صلاتي وصيامي وصدقتي، أما الصلاة فالخمسون ركعة، وأما الصوم فثلاثة أيام في كل شهر خميس في أوله، وأربعاء في وسطه، وخميس في آخره، وأما الصدقة فجهدك حتى يقال: أسرفت ولم تسرف، وعليك بصلاة الليل وعليك بصلاة الليل وعليك بصلاة الليل، وعليك بصلاة الزوال، وعليك بقراءة القرآن على كل حال، وعليك برفع يديك في الصلاة، وتقليبهما، عليك بالسواك عند كل وضوء وصلاة، عليك بمحاسن الأخلاق فاركبها، عليك بمساوي الأخلاق فاجتنبها، فإن لم تفعل فلا تلومنّ إلا نفسك)[1].

(الثانية) وصية الإمام الصادق (عليه السلام) لعنوان البصري وكان شيخاً كبيراً حضر

(١) وسائل الشيعة: كتاب الجهاد، أبواب جهاد النفس وما يناسبه، باب ٤، ح٢.

عند مالك بن أنس ثم هداه الله إلى الإمام الصادق (عليه السلام) وجاء في الرواية (ثم قال (عليه السلام): ما مسألتك؟ فقلت: سألت الله أن يعطف قلبك علي ويرزقني من علمك، وأرجو أن الله تعالى أجابني في الشريف ما سألته، فقال: يا أبا عبد الله (وهي كُنية عنوان البصري أيضاً) ليس العلم بالتعلم، إنما هو نور يقع في قلب من يريد الله تبارك وتعالى أن يهديه، فإن أردت العلم فاطلب أولاً في نفسك حقيقة العبودية، واطلب العلم باستعماله، واستفهم الله يفهمك. قلت: يا شريف فقال: قل يا أبا عبد الله، قلت: يا أبا عبد الله ما حقيقة العبودية؟ قال: ثلاثة أشياء: أن لا يرى العبد لنفسه فيما خوّله الله ملكاً، لأن العبيد لا يكون لهم ملك يرون المال مال الله يضعونه حيث أمرهم الله به، ولا يدبّر العبد لنفسه تدبيراً، وجملة اشتغاله فيما أمره تعالى به ونهاه عنه، فإذا لم يرَ العبد لنفسه فيما خوّله الله تعالى ملكاً هان عليه الإنفاق فيما أمره الله تعالى أن ينفق فيه، وإذا فوض العبد تدبير نفسه على مدبره هان عليه مصائب الدنيا، وإذا اشتغل العبد بما أمره الله تعالى ونهاه لا يتفرغ منهما إلى المراء والمباهاة مع الناس، فإذا أكرم الله العبد بهذه الثلاثة هان عليه الدنيا، وإبليس، والخلق، ولا يطلب الدنيا تكاثراً وتفاخراً، ولا يطلب ما عند الناس عزاً وعلوّاً، ولا يدع أيامه باطلاً، فهذا أول درجة التقى، قال الله تبارك وتعالى: [تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الأَرْضِ وَلا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ]. قلت: يا أبا عبد الله أوصني، قال: أوصيك بتسعة أشياء فإنها وصيتي لمريدي الطريق إلى الله تعالى، والله أسأل أن يوفقك لاستعماله، ثلاثة منها في رياضة النفس، وثلاثة منها في الحلم، وثلاثة منها في العلم، فاحفظها وإياك والتهاون بها، قال عنوان: ففرغت

قلبي له. فقال: أما اللواتي في الرياضة: فإياك أن تأكل ما لا تشتهيه[١] فإنه يورث الحماقة والبله، ولا تأكل إلا عند الجوع، وإذا أكلت فكل حلالاً وسمّ الله، واذكر حديث الرسول (صلى الله عليه وآله): ما ملأ آدمي وعاءً شرّاً من بطنه فإن كان ولا بد فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه.

وأما اللواتي في الحلم: فمن قال لك: إن قلت واحدة سمعت عشراً فقل: إن قلت عشراً لم تسمع واحدة، ومن شتمك فقل له: إن كنت صادقاً فيما تقول فأسأل الله أن يغفر لي، وإن كنت كاذباً فيما تقول فالله أسأل أن يغفر لك، ومن وعدك بالخنى[٢] فعده بالنصيحة والرعاء.

وأما اللواتي في العلم: فاسأل العلماء ما جهلت، وإياك أن تسألهم تعنتاً و تجربة وإياك أن تعمل برأيك شيئاً، وخذ بالاحتياط في جميع ما تجد إليه سبيلاً، و اهرب من الفتيا هربك من الأسد، ولا تجعل رقبتك للناس جسراً.

قم عني يا أبا عبد الله فقد نصحت لك ولا تفسد علي وِردي، فإني امرؤٌ ضنين بنفسي)[٣].

(١) أي لا تأكل شيئاً قبل أن تجوع فتشتهي.

(٢) الخنى: الفحش في الكلام.

(٣) بحار الأنوار: ٢٢٤/١.

القبس القرآني

٦٩

﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾[1] [الفتح : ٢]

معنى استغفار المعصومين عليهم السلام من الذنوب

إثارة لإشكال:

عند تلاوة هذه الآية يُثار سؤال أو إشكال من جهة المنافاة ظاهراً بين ما نعتقده من عصمة النبي صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام وعدم صدور الذنب والمعصية منهم، وبين ما يظهر من الآية من الأخبار عن صدور الذنب من النبي صلى الله عليه وآله ويكون الإشكال أوضح في الإقرار والاعتراف الوارد في الأدعية والمناجاة عن الأئمة (سلام الله عليهم).

مثلاً ما ورد في دعاء الإمام الحسين (عليه السلام) يوم عرفة: (ثم إني يا إلهي المعترف بذنوبي فاغفرها لي، أنا الذي أخطأت أنا الذي هممت، أنا الذي جهلت..) إلى أن يقول (عليه السلام): (إلهي أمرتني فعصيتك ونهيتني فارتكبت نهيك).

ومثل هذا الاعتراف بالذنب بين يدي الله تبارك وتعالى تكرر كثيراً في أدعيتهم ومناجاتهم (سلام الله عليهم) كقول الإمام السجاد (عليه السلام) في دعاء أبي حمزة: (أنا يا رب الذي لم أستحيك في الخلاء ولم أراقبك في الملأ أنا صاحب الدواهي العظمى أنا الذي على سيده اجترا، أنا الذي عصيت جبار السما، أنا الذي أعطيت على معاصي الجليل الرُشى، أنا الذي حين بُشرت بها خرجت إليها أسعى،

(١) الخطبة الأولى لصلاة عيد الأضحى السعيد لعام ١٤٣٢ الموافق ٢٠١١/١١/٧م.

أنا الذي أمهلتني فما ارعويت وسترت عليَّ فما استحييت وعملت بالمعاصي فتعديت).

جواب الإشكال:

ويقال في الجواب أحياناً أنهم إنما يتحدثون بلسان الناس الآخرين لأنهم (عليهم السلام) في مقام التعليم للناس فيلقنونهم ما يقولون عندما يقفون بين يدي الله تبارك وتعالى، كما علّم الله تعالى عباده في سورة الحمد ما يقولون عندما يقفون بين يدي الله تبارك وتعالى في الصلاة وغيرها.

وهذا الجواب قد يناسب صدور بعض تلك الأدعية لكنه لا يفسّرها كلها، لأن الإمام (عليه السلام) يعبر فيها فعلاً عن وجدانه وعن مشاعره تجاه الخالق العظيم.

ويروى هذا الجواب عن ابن طاووس، فقد قال الأربلي في كشف الغمة: (كنت أرى الدعاء الذي كان يقوله أبو الحسن موسى (عليه السلام) في سجدة الشكر وهو (ربِّ عصيتك بلساني ولو شئت وعزّتك لأخرستني، وعصيتك ببصري ولو شئتَ وعزتك لأكمهتني.. وعصيتك بجميع جوارحي التي أنعمتَ بها عليّ لم يكن هذا جزاك مني) فكنت أفكر في معناه وأقول كيف يتنزل على ما تعتقده الشيعة من القول بالعصمة وما اتضح لي ما يدفع التردد الذي يوجبه).

فاجتمع بالسيد علي بن طاووس (قدس الله روحه) وسأله عن ذلك فقال: (إن الوزير مؤيد الدين العلقمي رحمه الله سألني عنه فقلت كان يقول هذا ليعلم الناس، ثم إني فكرت بعد ذلك فقلت هذا كان يقوله في سجدته في الليل وليس عنده من يعلّمه).

(ومات السيد ابن طاووس ﵀ فهداني الله إلى معناه ووفقني على فحواه فكان الوقوف عليه والعلم به وكشف حجابه بعد السنين المتطاولة والأحوال المحرمة والأدوار المكررة من كرامات الإمام موسى بن جعفر (عليه السلام) ومعجزاته ولتصح نسبه العصمة إليه (عليه السلام) وتصدق على آبائه وأبنائه البررة الكرام وتزول الشبهة التي عرضت من ظاهر هذا الكلام.

وتقريره أن الأنبياء والأئمة عليهم السلام تكون أوقاتهم مشغولة بالله تعالى وقلوبهم مملوءة به وخواطرهم متعلقة بالملأ الأعلى وهم أبداً في المراقبة كما قال (عليه السلام) اعبد الله كأنك تراه فإن لم تره فإنه يراك.

فهم أبداً متوجهون إليه ومقبلون بكلهم عليه فمتى انحطوا عن تلك الرتبة العالية والمنزلة الرفيعة إلى الاشتغال بالمأكل والمشرب والتفرغ إلى النكاح وغيره من المباحات عدوه ذنباً واعتقدوه خطيئة واستغفروا منه.

ألا ترى أن بعض عبيد أبناء الدنيا لو قعد وأكل وشرب ونكح وهو يعلم أنه بمرأى من سيده ومسمع لكان ملوماً عند الناس ومقصراً فيما يجب عليه من خدمة سيده ومالكه فما ظنك بسيد السادات وملك الأملاك. وإلى هذا أشار (عليه السلام) أنه ليران على قلبي وأني لأستغفر بالنهار سبعين مرة ولفظه السبعين إنما هي لعد الاستغفار لا إلى الرين وقوله حسنات الأبرار سيئات المقربين)[1].

ثم قال: (ونزيده إيضاحاً من لفظه ليكون أبلغ من التأويل ويظهر من قوله (عليه السلام): (وعصيتك بفرجي ولو شئت وعزتك لأعقمتني) أعقمتني والعقيم

(١) كشف الغمة في معرفة الأئمة: ٤٧/٣-٤٨.

الذي لا يولد له والذي يولد من السفاح لا يكون ولداً فقد بان بهذا أنه كان يعد اشتغاله في وقت ما بما هو ضرورة للأبدان معصية يستغفر الله منها وعلى هذا فقس البواقي وكلما يرد عليك من أمثالها).

وجوه أخرى لجواب الإشكال:

وقد ذكر العلامة المجلسي (قدس سره) هذا الوجه ووجوهاً أخرى لفهم صدور هذه الأقوال منهم (عليهم السلام)، قال (قدس سره): ((فأما ما يوهم خلاف ذلك -أي عصمتهم (عليهم السلام)- من الأخبار والأدعية وهي مؤولة بوجوه:

١- أن ترك المستحب وفعل المكروه قد يسمى ذنباً وعصياناً بل ارتكاب بعض المباحات أيضا بالنسبة إلى رفعة شأنهم وجلالتهم ربما عبروا عنه بالذنب لانحطاط ذلك عن سائر أحوالهم كما مرت الإشارة إليه في كلام الأربلي رحمه الله.

٢- إنهم بعد انصرافهم عن بعض الطاعات التي أُمروا بها من معاشرة الخلق وتكميلهم وهدايتهم ورجوعهم عنها إلى مقام القرب والوصال ومناجاة ذي لجلال ربما وجدوا أنفسهم لانحطاط تلك الأحوال عن هذه المرتبة العظمى مقصرين، فيتضرعون لذلك وإن كان بأمره تعالى، كما أن أحداً من ملوك الدنيا إذا بعث واحداً من مقربي حضرته إلى خدمة من خدماته التي يحرم بها من مجلس الحضور والوصال فهو بعد رجوعه يبكي ويتضرع وينسب نفسه إلى الجرم والتقصير لحرمانه عن هذا المقام الخطير.

٣- إن كمالاتهم وعلومهم وفضائلهم لما كانت من فضله تعالى، ولولا ذلك لأمكن أن يصدر منهم أنواع المعاصي، فإذا نظروا إلى أنفسهم وإلى تلك

الحال أقروا بفضل ربهم وعجز نفسهم بهذه العبارات الموهمة لصدور السيئات فمفادها أني أذنبت لولا توفيقك، وأخطأت لولا هدايتك)).

أقول: هذا المعنى ذكره الأئمة (عليهم السلام) في أدعيتهم كما في دعاء الصباح عن أمير المؤمنين (عليه السلام): (إلهي إن لم تبتدئني الرحمة منك بحسن التوفيق، فمن السالك بي إليك في واضح الطريق؟ وإن أسلمتني أناتك لقائد الأمل والمنى فمن المقيل عثراتي من كبوات الهوى؟ وإن خذلني نصرك عند محاربة النفس والشيطان فقد وكلني خذلانك إلى حيث النصب والحرمان).

٤- (إنهم لما كانوا في مقام الترقي في الكمالات والصعود على مدارج الترقيات في كل آن من الآنات في معرفة الرب تعالى وما يتبعها من السعادات فإذا نظروا إلى معرفتهم السابقة وعملهم معها اعترفوا بالتقصير وتابوا منه، ويمكن أن ينزل عليه قول النبي صلى الله عليه وآله: (وإني لاستغفر الله في كل يوم سبعين مرة)).

أقول: هذا معنى مجرَّب في حياتنا فالعالم أو الباحث الذي ينضجّ علمه ويتعمق ويتسع تدريجياً عندما يراجع ما كتبه وما قدّمه قبل سنين فإنه يخجل منه ويعترف بالتقصير إزاءه وربما يطلب إتلافه وتغييبه مع أنه كان يمثل قدراته في ذلك الوقت وكان مقتنعاً به، إلا أنه لما ترقّى صار يراه موجباً للخجل والاعتذار.

أما كونهم (صلوات الله عليهم أجمعين) في ارتقاء وزيادة حتى بعد وفاتهم فهذا ما نطقت به الروايات لذا ورد الحث على الدعاء لهم بطلب الوسيلة والفضيلة والمقام المحمود والصلاة عليهم، وورد في ذلك قول الإمام الصادق (عليه السلام): (لولا

أنّا نزداد لأنفدنا)[١].

٥- إنهم عليهم السلام لما كانوا في غاية المعرفة لمعبودهم فكل ما أتوا به من الأعمال بغاية جهدهم ثم نظروا إلى قصورها عن أن يليق بجناب ربهم عدوا طاعاتهم من المعاصي واستغفروا منها كما يستغفر المذنب العاصي.

ومن ذاق من كأس المحبة جرعة شائقة لا يأبى عن قبول تلك الوجوه الرائقة، والعارف المحب الكامل إذا نظر إلى غير محبوبه أو توجه إلى غير مطلوبه يرى نفسه من أعظم الخاطئين، رزقنا الله الوصول إلى درجات المحبين)[٢].

وهذا المعنى عرفي أيضاً فإن من حلّ به ضيف عالي الشأن وقدّم له غاية جهده إلا أنه يواصل اعتذاره عن التقصير؛ لأنه يرى أن ما قدّمه وإن كان كل ما يستطيع تقديمه إلا أنه بلحاظ مقام ذلك الضيف يرى كل ما قدّمه موجباً للخجل والاعتذار.

وجوه أخرى لفهم معنى استغفارهم عليهم السلام من الذنوب:

ونضيف وجوهاً أخرى إلى ما ذكره (قدس سره) مع المحافظة على الترتيب:

٦- إنهم (عليهم السلام) يستغفرون من الذنوب التي تحسب عليهم بما اجترح أتباعهم، وهذا معنى أخلاقي جرت عليه السيرة العقلائية، فإن المرجع يتحمل أوزار أتباعه إذا أساؤوا، والأب يعتبر نفسه مسؤولاً عما جناه ابنه، والمدير لمؤسسةٍ ما يعتبر نفسه مسؤولاً عن تقصير أحد موظفيه، أو خيانتهم، فيقدم الاعتذار

(١) أصول الكافي: ج١، كتاب الحجة، باب: لو أن الأئمة يزدادون لنفد ما عندهم.

(٢) بحار الأنوار: ٢١٠/٢٥.

ويتحمّل التبعة وقد يستقيل من موقعه.

فالمعصومون (عليهم السلام) يستغفرون الله تعالى من التبعات التي لحقتهم بسبب سوء تصرفات أتباعهم بل هم آباء لهذه الأمة بنص الحديث النبوي الشريف: (يا علي أنا وأنت أبوا هذه الأمة)، فما يصدر من الأمة يحسب عليهم.

ووردت في بعض الروايات كما في تفسير القمي بسنده عن عمر بن يزيد قال: (قلت لأبي عبد الله (عليه السلام) قول الله عز وجل في كتابه [لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ] قال (عليه السلام): ما كان له ذنب ولا همَّ بذنب ولكن الله حمّله ذنوب شيعته ثم غفرها له)[1].

لذا وردت الوصايا عن المعصومين (عليهم السلام) لشيعتهم: (كونوا لنا زيناً، ولا تكونوا علينا شيناً).

٧- إنهم (عليهم السلام) يعتبرون أنفسهم مذنبين ومقصّرين ما دام يوجد فرد في هذه الدنيا لم يتكامل ولم يحقق العبودية الكاملة في حياته؛ لأن هذا يعني أنهم (عليهم السلام) لم يحققوا هدفهم ولم تنجح وظيفتهم بشكل كامل وهي بسط التوحيد الخالص في الأرض، فكيف إذا كانت أكثر البشرية ضالة [وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ] (يوسف: ١٠٣).

وهذا النقص في تحقيق الغرض وإن كان بسبب خارج عنهم وهو سوء اختيار المتلقي من الناس وعدم استجابتهم لداعي الحق، أي في قابلية القابل وليس في فاعلية الفاعل كما يعبّرون، إلا أنهم (عليهم السلام) على أي حال يشعرون بالذنب

(١) تفسير القمي: ٢٩٠/٢ وأوردها عنه العلامة المجلسي في البحار: ٨٩/١٧ ح١٩.

والتقصير وحرقة القلب لعدم اكتمال أهداف رسالتهم، ويطلبون من الله تعالى العفو والصفح.

ولذا وردت تطمينات من الله تبارك وتعالى لنبيه وعفو عن مسؤولية هذه النتائج المؤسفة، وتطييب لقلبه (صلى الله عليه وآله)، قال تعالى: [فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ[1] نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً] (الكهف:٦) وقال تعالى: [لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ] (الشعراء:٣).

٨- في ضوء الحديث المروي عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) قال: (قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): لم يُعبد الله عز وجل بشيء أفضل من العقل، ولا يكون المؤمن عاقلاً حتى يجتمع فيه عشر خصال) إلى أن قال (صلى الله عليه وآله): (والعاشرة وما العاشرة: لا يرى أحداً إلا قال: هو خير مني وأتقى، إنما الناس رجلان فرجلٌ هو خير منه وأتقى، وآخر هو شر منه وأدنى، فإذا رأى من هو خير منه وأتقى تواضع له ليلحق به، وإذا لقي الذي هو شرٌّ منه وأدنى قال: عسى خير هذا باطن وشره ظاهر، وعسى أن يختم له بخير، فإذا فعل ذلك فقد علا مجده، وساد أهل زمانه)[2].

أقول: عقول المعصومين (عليهم السلام) هي أكمل العقول فهذا التواضع وهذا الشعور بأنه أقل الخلق أمام الله تعالى في أعلى درجاته عندهم (عليهم السلام)؛ لأنهم لا ينظرون إلى أنفسهم ولا يتّكلون على أعمالهم مهما عظمت وخلصت ولا يأمنون مكر الله تعالى وهم يتلون خطاب الله لجدهم المصطفى (صلى الله عليه وآله) سيد الخلق: [وَلَقَدْ أُوحِيَ

(١) باخع: أي قاتل.

(٢) الخصال للشيخ الصدوق (رضوان الله عليه): ٤٣٣/٢ أبواب العشرة، ح١٧.

إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ] (الزمر:٦٥) ويقول (صلى الله عليه وآله): (لو عصيت لهويت).

والحكاية المروية عن كليم الله موسى بن عمران (عليه السلام): (إن الله سبحانه أوحى إلى موسى (عليه السلام): إذا جئت للمناجاة فاصحب معك من تكون خيراً منه، فجعل موسى لا يعترض (يعرض) أحداً إلا وهو لا يجسر (يجتري) أن يقول: إني خير منه، فنزل عن الناس وشرع في أصناف الحيوانات حتى مر بكلب أجرب فقال: أصحب هذا فجعل في عنقه حبلا ثم جرّ به فلما كان في بعض الطريق شمر الكلب من الحبل وأرسله، فلما جاء إلى مناجاة الرب سبحانه قال: يا موسى أين ما أمرتك به؟ قال: يا رب لم أجده فقال الله تعالى: وعزتي وجلالي لو أتيتني بأحد لمحوتك من ديوان النبوة)[1].

٩- إن استغفار المعصومين (عليهم السلام) إنما هو من وجود مقتضيات الذنب والمعصية فيهم فعندهم شهوة جنسية وقوة غضبية وحاجة للطعام ونحو ذلك وإن كانت عندهم الملكة القدسية الرادعة عن توظيفها إلا في طاعة الله تبارك وتعالى، فتعتبر الشهوة الجنسية شراً بمعنى من المعاني، وكذا الغضب لأنها مناشئ الذنوب، ففي الخصال بسنده عن هشام بن الحكم في تفسير عصمة الإمام قال: ((إن جميع الذنوب لها أربعة أوجه لا خامس لها: الحرص والحسد والغضب والشهوة فهذه منتفية عنه))[2].

(١) عدة الداعي لابن فهد الحلي: ٢٠٤

(٢) الخصال: ٢١٥/١ أبواب الأربعة، ح٣٦.

فالأئمة يستغفرون من وجود هذه المقتضيات للذنوب عندهم وإن كانوا بلطف الله تبارك وتعالى لا يستعملونها إلا في ما يرضي الله تبارك وتعالى كما في معاني الأخبار بسنده عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (المعصوم وهو الممتنع بالله من جميع محارم الله وقد قال تبارك وتعالى: [وَمَن يَعْتَصِم بِاللّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ] (آل عمران:١٠١))[١].

١٠- إن الله تعالى يقول: [وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا] (إبراهيم:٣٤) فإذا كان الإنسان عاجزاً عن معرفة نعم الله وعدّها فكيف يتسنى له شكرها فهو عن أداء الشكر أعجز وفي ذلك ورد في دعاء للإمام السجاد (عليه السلام): (ونعماؤك كثيرة قصُر فهمي عن إدراكها فضلاً عن استقصائها، فكيف لي بتحصيل الشكر وشكري إياك يفتقر إلى شكر، فكلما قلت لك الحمد وجبَ عليَّ لذلك أن أقول لك الحمد)[٢].

فإذا ضممنا إلى ذلك مقدمة أخرى مأخوذة من وصية الإمام الكاظم (عليه السلام) المشهورة لهشام بن الحكم وفيها (يا هشام إن كل نعمة عجزت عن شكرها بمنزلة سيئة تؤاخذ بها)[٣] ينتج وجه جديد لفهم الذنوب وهو العجز عن أداء شكر النعم، ويكون الشعور بالذنب أكبر كلما كانت النعم أكثر، ولذا يشعر الأئمة المعصومون (عليهم السلام) أنهم أكثر الخلق ذنوباً كقوله (عليه السلام): (وما في الورى شخص جنا كجنايتي)

(١) معاني الأخبار: ١٣٢ باب ٦٤، ح٢.

(٢) مفاتيح الجنان: ١٩٨ مناجاة الشاكرين.

(٣) تحف العقول: ٣٨٣-٤٠٢.

لأنهم حُبوا بأعظم النعم فقد أعطاهم الله تعالى منزلة يغبطهم عليها الأولون والآخرون وخلق الكون لأجلهم.

ما الذي استفدناه من هذه الإثارات:

أيها الأحبة: حينما نذكر هذه الوجوه التي هي صحيحة وقد يناسب بعضها بعض الموارد وبعضها موارد غيرها، فإنما نريد تحصيل عدة أمور:

١- دفع هذا الإشكال والدفاع عن عقيدتنا في عصمة النبي وأهل البيت (صلوات الله عليهم) التي هي ثابتة بأدلة قطعية تفوق الحصر والاستقصاء، وفهم الآية الكريمة وفق هذه العقيدة.

٢- أن نتعرف على طبيعة العلاقة مع الله تبارك وتعالى من خلال التأسّي بما كان يقوم به المعصومون (عليهم السلام).

٣- أن نستشعر المسؤولية تجاه أفعالنا بل أفعال كل من يمكن أن تُحسب تصرفاته علينا، وتزداد سعة التبعة بسعة دائرة المسؤولية، فلا بد أن نكون مراقبين متابعين محاسبين حازمين والله المستعان.

القبس القرآني

٧٠

﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين﴾[١] وجوب التحاق النخب بالحوزات العلمية

[التوبة: ١٢٢]

من معاني شكوى القرآن الكريم:

يشكو النبي (صلى الله عليه وآله) من أمته يوم القيامة لهجرهم كتاب الله تعالى، قال تعالى: [وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً] (الفرقان: ٣٠)، وورد مثله في الحديث الشريف عن الإمام الصادق (عليه السلام): (ثلاثة يشكون إلى الله عز وجل: مسجد خراب لا يصلي فيه أهله، وعالم بين جهال، ومصحف معلّق قد وقع عليه غبارٌ لا يُقرأ فيه)[٢]، والهجران الذي يشكو منه رسول الله (صلى الله عليه وآله) ليس فقط من ترك قراءته وتلاوته، بل الأخطر من ذلك هو هجران العمل به، قال الإمام الباقر (عليه السلام) وهو يذكر أنواع قرّاء القرآن: (ورجل قرأ القرآن فحفظ حروفه وضيّع حدوده وأقامه إقامة القدح[٣]، فلا كثّر الله هؤلاء من حملة القرآن)[١].

---

(١) الخطبة الثانية لصلاة عيد الأضحى المبارك سنة ١٤٣٢.

(٢) الخصال: ١٤٢/١ باب الثلاثة، ح١٦٣.

(٣) القِدْح هو السهم، وكان العرب يستقسمون بالأزلام باستعمال القِداح، وقال الطريحي في المجمع (كأنه الذي يستقسم ويلعب به –يعني القرآن في الحديث أعلاه– كما يستقسم بالقداح، والله العالم) ولعل استعمال الإمام (عليه السلام) للتشبيه من باب أن السهم يوضع بالمقلوب في جفير السهام. وربما يكون اللفظ (القَدَح) وهو الإناء الكبير قال الطريحي: (وفي حديث النبي صلى الله عليه وآله (لا تجعلوني كقَدَح الراكب) يعني لا تؤخروني في الذكر، لأن الراكب يعلق قدحه في آخر رحله

وليس فقط القرآن ككل يشكو بل تشكو كل آية من آياته التي لم يُعمل بمضمونها، فتشكو آية [قُل لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى] (الشورى:٢٣) من الذين تتبعوا عترة النبي (صلى الله عليه وآله) تحت كل حجر ومدر قتلاً وسجناً وتعذيباً وتشريداً أو أقصوهم عن مقامهم الذي يستحقونه.

وتشكو آية [يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ] (المائدة: ٦٧) من الذين انقلبوا على الأعقاب ولم يعملوا بوصية رسول الله (صلى الله عليه وآله) في الأئمة من بعده.

وتشكو آية [وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَاْ أُولِيْ الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ] (البقرة:١٧٩) من الذين عطلوا هذا الحكم ولم يوقّعوا على إعدام الإرهابيين القتلة رغم ثبوت الجرائم الفظيعة عليهم بحجة معاهدات حقوق الإنسان ونحوها. وهكذا بقية الآيات الشريفة.

شكوى آية النفر:

ونحن اليوم بين يدي شكوى آية كريمة وهي قوله تعالى: [فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ] (التوبة:١٢٢).

عند فراغه من رحاله ويجعله خلفه) مجمع البحرين: ٤٦٢/٣، وجميع المعاني المحتملة مقبولة في وصف شأن الناس مع القرآن.

(١) الوسائل: ج٦ ص١٨٢.

ففي الآية دعوة لنخب من الأمة لكي ينفروا لطلب العلم والتفقه في الدين ثم التحرك بهذا العلم والفقه إلى سائر الناس ليرشدوهم ويعلموهم ويأخذوا بأيديهم إلى ما فيه صلاحهم، ففي الآية تكليفان الأول لعموم الأمة، والثاني للنخبة الذين التحقوا بمعاهد العلم والحوزوات الدينية ليؤدوا الرسالة التي تحملوها، والتقصير متحقق بكلا الاتجاهين، وسنتحدث هنا عن التكليف الأول وهو حث الأمة على التفقه في الدين؛ لأن الثاني نوجهه إلى الحوزة العلمية.

وإنما قلت للنخب من الأمة لأنه ليس الكل مؤهلين لهذه الوظيفة الإلهية وهذا التشريف المبارك، كالآية الأخرى في الدعوة إلى الله تبارك وتعالى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قال تعالى: [وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ] (آل عمران:١٠٤) ثم شرحت الرواية صفات هذه الجماعة المكلفة بهذه الوظيفة[١].

إن هذا الحث الإلهي [فَلَوْلاَ نَفَرَ] مصداق لقوله: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ] (الأنفال:٢٤) والتفقه في الدين هو الذي يحيي العقول ويطهر القلوب ويهذب النفوس ويسمو بالروح، فلا يسع الأمة إلا الاستجابة لهذه الدعوة.

عدد النافرين الى الحوزات:

وتحدد الآية النسبة المعقولة لعدد النافرين إلى الحوزات العلمية للتفقه في الدين بطائفة من كل فرقة والطائفة في اللغة أقلها ثلاثة، ومعدل الفرقة ثلاثة

(١) راجع وسائل الشيعة: كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أبواب الأمر والنهي، باب٢.

آلاف، فالنسبة المعقولة هي واحد من كل ألف، وأن لا يقتصر الانضمام إلى الحوزة العلمية على فئة أو شريحة أو مدينة أو أسرة بل المطلوب أن تنفر طائفة من كل فرقة من المسلمين سواء أكانت الفرقة عشيرة أو أهل مدينة أو ريف أو حي سكني ونحوها.

وما زالت الأمة بعيدة كل البعد عن تحقيق الاستجابة لهذه الدعوة على صعيد شعبنا في العراق فكيف إذا لاحظنا مسؤوليتها عن حركة الإسلام في العالم كله لأن النجف الأشرف والعراق عاصمة الإسلام ومنطلق الدعوة العالمية لدولة الحق والعدل.

ألسنا جميعاً ندعوا بما علمنا به الإمام المهدي (عليه السلام) في زمان الغيبة أن ندعوا: (اللهم إنا نرغب إليك في دولة كريمة) وفيه (وتجعلنا فيها من الدعاة إلى طاعتك والقادة إلى سبيلك)[1] فكيف نكون من طالبي هذه الدولة الكريمة والممهدين لها والدعاة إلى طاعة الله تعالى والقادة إلى سبيله من دون التفقه في الدين وتحصيل العلوم الدينية الشريفة؟

وتتحدث الآية عن تكليف موجه للنخب من الأمة ليتفقهوا في الدين وهو غير تكليف عموم الأمة بمعرفة أساسيات دينها، حيث تحفل كتب الحديث بالروايات التي تلزم الناس بالتفقه في الدين، والحد الأدنى منه الذي لا يعذر فيه أحد هو التفقه في العقائد والأحكام الابتلائية كأحكام الطهارة والصلاة والصوم والخمس ونحوها، والأحكام المختصة بالعمل الذي يعمل فيه كالتاجر في

(١) انظر مفاتيح الجنان، دعاء الافتتاح من أعمال شهر رمضان المبارك.

تجارته، والمعلم في مدرسته والطبيب في مستشفاه والسياسي عند ممارسة عمله المليء بالمزالق والمرديات وهكذا.

حث أهل البيت (عليهم السلام) على التفقه:

في الكافي بسنده عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (عليكم بالتفقه في دين الله ولا تكونوا أعراباً فإن من لم يتفقه في دين الله لم ينظر الله إليه يوم القيامة، ولم يزكِّ له عملاً)[١].

وعنه (عليه السلام) قال: (لوددت أن أصحابي ضُربت رؤوسهم بالسياط حتى يتفقهوا)[٢].

وروي أنه (قال له رجل: جُعلتُ فداك رجل عرف هذا الأمر -إمامتهم (عليهم السلام)- لزم بيته ولم يتعرف إلى أحدٍ من إخوانه، قال: فقال: كيف يتفقه هذا في دينه؟)[٣].

وسُئل الإمام الكاظم (عليه السلام) (هل يسع الناس ترك المسألة عما يحتاجون إليه؟

فقال: لا)[٤].

وروى الإمام الصادق (عليه السلام) عن جده رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: (قال رسول الله

---

(١) الكافي: ج١ ص٣١.

(٢) السابق.

(٣) السابق.

(٤) انظر الكافي: ج١، كتاب فضل العلم، باب ١.

(ﷺ): أُفٍّ لرجل لا يُفرِّغ نفسه في كل جمعة لأمر دينه فيتعاهده ويسأل عن دينه)[١].

وعن الإمام الباقر (عليه السلام) قال: (تذاكر العلم دراسةٌ والدراسة صلاةٌ حسنةٌ).

وورد في لزوم تفقه التاجر في أعمال السوق قول الإمام الصادق (عليه السلام): (من أراد التجارة فليتفقه في دينه ليعلم بذلك ما يحل له مما يحرم عليه، ومن لم يتفقه في دينه ثم اتجر تورط في الشبهات)[٢] وبحسب مناسبة الحكم والموضوع يُعلم أن الوجوب متوجه لكل شخص لكي يتفقه في عمله.

مستويات التفقه:

فهذا هو النحو من التفقه الذي يشمل بوجوبه كل الناس وله مستويان، عام: أي في المسائل الابتلائية التي يشترك فيها كل الناس كالطهارة والصلاة والصوم والخمس، وخاص: أي بخصوص مسؤولياته كعمله أو إدارة أسرته كالعلاقة مع الوالدين أو الزوجة أو الأبناء وتربيتهم وهكذا.

ومن نعم الله تعالى على أهل هذا الزمان وجود منافذ كثيرة لهذه المعرفة

كالمحاضرات الدينية في المساجد وخطب الجمعة والمجالس الحسينية والكتب والنشرات وما تعرضه الفضائيات الدينية من برامج نافعة.

---

(١) هذا الحديث والذي يليه في أصول الكافي، ج١، كتاب فضل العلم، باب سؤال العالم وتذاكره، ح٥، ٩.

(٢) وسائل الشيعة: كتاب التجارة، أبواب آداب التجارة، باب ١، ح٤.

أما النحو الآخر من التفقه وهو الالتحاق بالحوزات العلمية لتحصيل علوم أهل البيت (عليهم السلام) في العقائد والأخلاق وأحكام الشريعة ثم إيصالها إلى عموم الناس لهدايتهم فهو تكليف نخب من الأمة.

وقد ذكرنا أن العدد الذي يريده الله تبارك وتعالى لم يتحقق بعد ولا زالت الحاجة على أشدها لالتحاق النخب المخلصة الواعية المثقفة العارفة بأمور زمانها بالحوزة العلمية، حتى لو قلنا أنه وجوب كفائي كما قيل فإنه لا يسقط حتى يتحقق الواجب وإلا يأثم الجميع وقد اتضح أن العدد لم يتحقق، فهل نفر من المحافظة التي سكانها مليونان ألفان لطلب العلم؟ إذن لا زالت المسافة بعيدة لنخرج من عهدة هذا التكليف.

ولقد اتخذنا هنا عدة خطوات لتوسيع هذه الفرصة أمام الجميع فنشرنا فروع جامعة الصدر الدينية في لمحافظات حتى تجاوزت عشرين فرعاً، فمن لم يتيسر له الإقامة في النجف للدراسة نقلنا حوزة النجف إليه ووفرنا المتطلبات التي تُيَسِّر الدرس والتحصيل، مع تشجيع المؤهلين لمواصلة الدراسة في النجف الأشرف، كما تتوفر الأقراص المدمجة التي تضم دروس أساتذة متخصصين لجميع مراحل الدراسة ولكل مفرداتها، وهذا أسلوب آخر ميسّر لتحصيل العلوم الدينية والارتقاء فيها.

اللطف خاص:

وينبغي الالتفات إلى أن سلوك هذا الطريق لا يتيسر لكل أحد إلا بلطف خاص من الله تعالى، وليس كل أحد يوفق إليه ويوفق فيه، فألحّوا في الدعاء

والطلب من الله تعالى وأصلحوا أنفسكم وأخلصوا نياتكم كي يختاركم الله تعالى لحمل هذه الأمانة الإلهية العظيمة، لما ورد من الفضل العظيم والدرجة الرفيعة لحملة العلم، وأنقل لكم رواية واحدة تغنيكم عن الباقي وهي كافية لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

ففي رواية صحيحة عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنة وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً به، وإنه يستغفر لطالب العلم مَنْ في السماء ومن في الأرض حتى الحوت في البحر، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر النجوم ليلة البدر، وإن العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورّثوا ديناراً ولا درهماً ولكن ورّثوا العلم، فمن أخذ منه أخذ بحظ وافر)[1].

منزلة بكير بن أعين:

وأنقل لكم رواية في منزلة أحد حملة علوم أهل البيت (عليهم السلام) ورواة أحاديثهم لتكونوا كلكم مثله وفي منزلته ولا يكلفكم ذلك شيئاً كما كلفهم في ذلك الزمان، ففي رواية صحيحة أن الإمام الصادق (عليه السلام) لما بلغه وفاة بكير بن أعين قال: (أما والله لقد أنزله الله بين رسول الله وأمير المؤمنين صلوات الله عليهما) وعن عبيد بن زرارة بن أعين قال: (كنت عند أبي عبد الله (عليه السلام) فذكر بكير بن أعين فقال: رحم الله بكيراً، وقد فعل، فنظرت إليه وكنت يومئذٍ حديث السن،

(١) أصول الكافي: ج١، كتاب فضل العلم، باب ثواب العالم والمتعلم.

فقال: إني أقول إن شاء الله)[١].

التفقه في كل الدين:

إن مسؤوليتنا لا تقف عند حدود تلقّي العلوم المتعارفة في الحوزة العلمية والتي تختص بالأحكام الشرعية وما يرتبط بها، مع أن المطلوب في الآية الشريفة هو التفقه في الدين كل الدين[٢] كالعقائد وتفسير القرآن والمعرفة بالله تعالى وتهذيب النفس بالأخلاق الفاضلة وسيرة المعصومين (عليهم السلام) وكل ما يتصل بالدين من علوم ومعارف وما نحتاجه في حركة الإسلام العالمية ونشره وإقناع البشرية به والدفاع عنه ورد الشبهات ومواجهة الفتن والحوار مع الأديان والحضارات والأيديولوجيات الأخرى، وهذا باب واسع ينكشف منه بوضوح الجهل والتقصير اللذان يكتنفان الأمة بكل طبقاتها.

إن أيسر شيء اليوم وأبخس الأشياء ثمناً هو الكتاب ووسائل التثقيف والتعلم

والاطلاع متيسرة وبتقنيات عالية، فلا عذر لأي أحد في عدم التفقه في الدين، في حين كان أحدهم في الأزمنة السابقة يدفع حياته ثمناً للحصول على كتاب ديني وكانوا يتبعون مختلف أساليب التمويه والتستر للوصول إلى المعلومة.

---

(١) الروايتان أوردهما الكشي في رجاله ونقلهما السيد الخوئي (قدس سره) في معجم رجال الحديث: ٣٥٣/٣.

(٢) شرحنا معنى مفردة (الفقه) بحسب المصطلح القرآني في تفسير الآية الكريمة: ﴿إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان : ٣٠] وسيأتي بيانها في هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

أهمية العلم والعلماء في الإسلام:

إن للمسلمين أن يفخروا بأن دينهم سبق المجتمع البشري بقرون في الاهتمام بالعلم والعلماء وتفضيلهم ولزوم طلب العلم وإلزام العلماء بتعليم الأمة وإرشادها مما يعرف اليوم بالتعليم الإلزامي ومكافحة الأمية.

إن وظائف المرجعية والحوزة العلمية المرتبطة بالمرجعية ليست علمية فقط بل هي مسؤولة عن قيادة الأمة والدفاع عن كيانها وهويتها وتحقيق مصالحها وحل مشاكلها ورفع الحيف والظلم عنها مضافاً إلى الدور العالمي في إعلاء كلمة الله تبارك وتعالى ونشر الإسلام وتعاليم أهل البيت (عليهم السلام) وهذا يتطلب قاعدة واسعة من العاملين الرساليين المخلصين، ولذا قلنا بعدم الاستغناء بوسائل تحصيل العلوم الدينية عن الالتحاق بالحوزات العلمية.

وهذا كله يكشف عن فظاعة التقصير في تطبيق هذه الآية الشريفة ويدعونا إلى يقظة وحركة نحو رفد الحوزات العلمية بالكفاءات المخلصة الواعية ونشر الكتاب الديني وتحبيب مطالعته إلى الناس والله الموفق.

القبس القرآني

٧١

﴿وإنكَ لعلى خلقٍ عظيم﴾[1] [القلم : ٤]

معجزة لرسول الله (صلى الله عليه وآله):

روى لنا أمير المؤمنين (عليه السلام) معجزة تحققت لرسول الله (صلى الله عليه وآله) وكان شاهداً عليها، نذكرها تبركاً وإحياءاً لهذه المنقبة العظيمة ولنأخذ منها بعض الخصائص النفسية والسمو الأخلاقي عند رسول الله (صلى الله عليه وآله)، فمن خطبة جليلة لأمير المؤمنين(عليه السلام) تسمى القاصعة قال (ولَقد كُنتُ مَعَهُ صلى اللّه عليه و آله لَمّا أتاهُ المَلأُ مِن قُرَيشٍ، فَقالوا لَهُ: (يا مُحَمَّدُ، إنّكَ قَدِ ادَّعَيتَ عَظيما لَم يَدَّعِهِ آباؤكَ، ولا أحَدٌ مِن بَيتِكَ، ونحنُ نَسأ لُكَ أمرا إن أنتَ أجَبتَنا إلَيهِ، وأرَيتَناهُ عَلِمنا أ نّكَ نَبِيٌّ ورسولٌ، وإن لَم تَفعَل عَلِمنا أ نّكَ ساحِرٌ كَذّابٌ). فَقالَ صلى اللّه عليه و آله: (وما تَسألونَ؟) قالوا: (تَدعو لَنا هذهِ الشّجَرَةَ حَتّى تَنقَلِعَ بِعُروقِها وتَقِفَ بَينَ يَدَيكَ)، فَقالَ صلى اللّه عليه و آله: (إنّ اللّهَ عَلى كُلّ شَيءٍ قَديرٌ، فَإن فَعَلَ اللّهُ لَكُم ذلِكَ أتُؤمنونَ وتَشهَدونَ بِالحَقّ؟) قالوا: (نَعَم). قالَ: (فَإنّي سَأُريكُم ما تَطلُبونَ، وإنّي لَأعلَمُ أ نّكُم لا تَفيؤونَ إلى خَيرٍ، وإنّ فيكُم مَن يُطرَحُ فِي القَليبِ، ومَن يُحَزِّبُ الأحزابَ) ثُمّ قالَ صلى اللّه عليه و آله: (يا أيَّتُها الشّجَرَةُ إن كُنتِ

---

(١) من حديث سماحة الشيخ اليعقوبي (دام ظله) مع عدد من الوفود، بينهم مدرسة الإمام الصادق (عليه السلام) في مدينة الصدر ببغداد ومدرسة أئمة البقيع للفتيان يوم الثلاثاء ٢١/ع١/١٤٣٣هـ المصادف ٢٠١٢/٢/١٤م.

تُؤمنينَ بِاللّهِ وَاليَومِ الآخِرِ، وتَعلَمينَ أَنّي رَسولُ اللّهِ، فَانقَلِعي بِعُروقِكِ حَتّى تَقِفي بَينَ يَدَيَّ بِإذنِ اللّهِ!).

فَوَالّذي بَعَثَهُ بِالحَقِّ لَانقَلَعَت بِعُروقِها، وجاءَت ولَها دَوِيٌّ شَديدٌ، وقَصفٌ كَقَصفِ أجنِحَةِ الطّيرِ، حَتّى وَقَفَت بَينَ يَدَي رَسولِ اللّهِ صلى اللّه عليه و آله مُرَفرِفَةً، وألقَت بِغُصنِها الأعلى عَلى رَسولِ اللّهِ صلى اللّه عليه و آله، وبِبَعضِ أغصانِها عَلى مَنكِبي، وكنتُ عَن يَمينِهِ صلى اللّه عليه و آله. فَلَمّا نَظَرَ القَومُ إلى ذلِكَ قالوا عُلُوّا وَاستِكبارا: (فَمُرها فَليَأتِكَ نِصفُها ويَبقى نِصفُها)، فَأمَرَها بِذلِكَ، فَأقبَلَ إلَيهِ نِصفُها كَأعجَبِ إقبالٍ وأشَدِّهِ دَوِيّا، فَكادَت تَلتَفُّ بِرَسولِ اللّهِ صلى اللّه عليه و آله، فَقالوا كُفرا وعُتُوّا: (فَمُر هذا النِّصفَ فَليَرجِع إلى نِصفِهِ كَما كانَ، فَأمرَهُ صلى اللّه عليه و آله فَرَجَعَ، فَقُلتُ أنا: (لا إلهَ إلا اللّهُ، إنّي أوّلُ مُؤمنٍ بِكَ يا رَسولَ اللّهِ، وأوّلُ مَن أقرَّ بِأنَّ الشَّجَرَةَ فَعَلَت ما فَعَلَت بِأمرِ اللّهِ تَعالى تَصديقا بِنُبُوَّتِكَ، وإجلالا لِكَلِمَتِكَ)، فَقالَ القَومُ كُلُّهُم: (بَل ساحِرٌ كَذّابٌ، عَجيبُ السِّحرِ خَفيفٌ فيهِ، وهَل يُصَدِّقُكَ في أمرِكَ إلا مِثلُ هذا؟) (يَعنونَني))[1].

ما الذي نستفيده؟

أقول: مما نستفيده منها باختصار:-

١- **أدبه (صلى الله عليه وآله) مع ربه تبارك وتعالى ومعرفته التامة بالله تعالى** وأنه لا يملك شيئاً أمام ربّه وأنّه (لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم) فيقول للمشركين لما سألوه (فإن فعل الله لكم ذلك) ولم ينسب الفعل إلى نفسه

(١) نهج البلاغة: ٤١٢/٢ الخطبة/ ١٩٠.

فما من شيء يتحقق له إلا بلطف الله تعالى وفضله وكرمه، بعكس منطق الغافلين والبعيدين عن الله تعالى فإنّهم يرون لأنفسهم شيئاً ويتبجحون به ويتفاخرون ويطغون، كما حكى الله تعالى عن قارون قوله (قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي) (القصص/٧٨)، ويأتي التعليق الإلهي (أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ) (القصص/٧٨).

والقرآن الكريم حرص كثيراً على ترسيخ هذه المعرفة قال تعالى (وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللّهَ رَمَى) (الأنفال/١٧) وقال تعالى في فرعون وقومه (فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ*وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ) (الشعراء/٥٧-٥٨) مع أن فرعون وجيوشه هم الذين قرروا الخروج لكن بتدبير إلهي.

٢- **عدم اليأس من هداية الناس** والدعوة إلى الله تبارك وتعالى وإصلاح الأمة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والوعظ والإرشاد والتوجيه، حتى لو كان يعلم بعناد الآخر وإصراره على الخطأ فيقول (ﷺ) (وإني لأعلم أنكم لا تفيئون إلى خير) فلم يتوقف ويقول ما الفائدة من دعوة هؤلاء وهم لا يُرجى منهم خير؟ لأن الأمور والنتائج والعواقب بيد مدبّرها الحقيقي، وليس على الإنسان إلا السعي الحثيث بكل ما أتاه الله تعالى، وقد مدح الله تعالى قوماً وأنجاهم من العذاب لأنّهم لم يتقاعسوا عن أداء وظائفهم الإلهية مع اليأس ظاهراً من هدايتهم، قال تعالى (وَإِذَ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) (الأعراف/١٦٤).

٣- **اعتماد لغة الحوار والحجة** والبينة مع الآخر لتحصيل القناعة بالأمر

وعدم إكراههم على شيء أو استخدام وسائل العنف والضغط لإجبارهم على اعتناق ما تعتقد به، ولو كنت تملك القوى الخارقة الغيبية، وهذا هو منطق القرآن الكريم (لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ) (البقرة/٢٥٦) (اِئْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) (الأحقاف/٤).

٤- **قساوة القوم الذين بُعث لهم رسول الله** (ﷺ) وهمجيتهم بحيث يجري لهم كل هذه المعجزات وهم يصرّون على عنادهم واستكبارهم قال تعالى فيهم (ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ) (البقرة/٧٤) وقلوب أولئك كانت من القسوة بحيث لم تسمح بتفجير شيء من ينابيع المعرفة والإيمان فيها، فالجبل يتصدع من هذه الكلمات وهم موتى لا حراك فيهم (لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ) (الحشر/٢١) وإلى اليوم نرى مثل هؤلاء الأقوام الذين تقام عليهم الحجج والبيّنات الدامغة، ولا جواب لهم إلا العناد والاستكبار والمضي على منهجهم المنحرف ومثل هؤلاء أتذكرهم عندما أصل إلى قوله تعالى (أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) (البقرة/٧٥).

٥- **شفقة رسول الله** (ﷺ) التي لا حدود لها وقلبه الكبير بحيث لا يتوانى عن تقديم أي عمل ما دام يُرجى منه صلاح الآخرين وهدايتهم رحمةً بهم لانقاذهم مما هم فيه من الضلال حتى لو كانوا من أسوأ خلق الله تعالى وأقساهم فلم يكن (ﷺ) كأسلافه الصالحين من الأنبياء الذين دعوا على أقوامهم بالهلاك (لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً) (نوح/٢٦) وغاية ما

كان يقول (صلى الله عليه وآله) عندما يصيبوه بالأذى والتكذيب (اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون) ولم يثنه (صلى الله عليه وآله) عن المضي معهم استهزاؤهم وسخريتهم الواضحة من مطلبهم التعجيزي وكأنهم يتهكمون برسول الله (صلى الله عليه وآله) ويسفّهون دعوته.

إن وجود مثل هذا القلب الشفيق الرحيم خير حافز على العمل الإنساني النبيل، وهو موجود لدى الكثيرين ولكنه يحتاج إلى تحريك وإثارة والدليل على ذلك انه عندما يوجد انسان مبتلى أو مصاب بنكبة أو عاهة أو معدم يحتاج إلى مساعدة فإن الكثيرين تهتز قلوبهم بالشفقة والرحمة ويهبون لنجدته ومساعدته، وهذا عمل عظيم ولكن أليس أهم منه أن نهَّب لهداية الضّال وفاقد البصيرة والمنحرف والجاهل وهؤلاء أولى بالمساعدة والشفقة والرحمة، لأن حياتهم الباقية الدائمة في خطر، وهي أهم من حياتهم الدنيا.

٦- **والدرس الأخير** نأخذه من أمير المؤمنين (عليه السلام) بروايته لهذه المنقبة النبوية الشريفة، ولعلها كانت تضيع علينا لو لم ينقلها لنا أمير المؤمنين (عليه السلام)، فلنتعلم منه أن لا نبخل على الناس بما نتعلمه من مسألة شرعية أو موعظة أو نصيحة أو منقبة وفضيلة لأهل البيت (عليهم السلام) أو شيء من سيرتهم الصالحة وأخلاقهم السامية، أو كلمات العلماء ومواقفهم ومآثرهم وبذلك تنتشر الهداية ويزكو العلم والعمل الصالح وينمو ففي الحديث (العلم يزكو بالإنفاق)[1].

(١) البحار: ج٧٥ ص٧٦.

القبس القرآني

٧٢

(مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لا إِلَى هَـؤُلاءِ وَلا إِلَى هَـؤُلاءِ)[1] [النساء : ١٤٣]

التذبذب في المواقف

العلم وحده لا يكفي:

لا شكّ أن الحديث عن فضل العلم وطلبه، وفضل العلماء ودرجاتهم لا ينقضي، والأقلام التي تكتب عنه لا تجف ولن تجف إن شاء الله تعالى، لكنّ الحديث عن العلم وحده لا يكفي، لأنّ العلم وحده لا يكفي، ولا بد أن ينضم إليه الحديث عن العمل بهذا العلم، وإلاّ فإن الكثير ممن ضلوا وانحرفوا وأضلّوا لم تكن مشكلتهم في نقص العلم، بالعكس فقد كان لديهم علم كثير، وما استطاعوا أن يخلقوا فتنة في المجتمع، ويضلّوا أمة كثيرة من الناس إلاّ من جهة أنّ عندهم علماً فاستطاعوا التأثير في الناس، وبدون ذلك العلم لم يكن أحدٌ يعبأ بهم.

فالعلم قد يكون وبالاً على صاحبه، والأحاديث في ذلك كثيرة حتى جعلت أشد الناس حسرة يوم القيامة شخصاً حمل علماً ونقله إلى الآخرين فاستفادوا منه، لكنّه هو لم ينتفع منه ولم يعمل به.

نماذج من علماء السوء:

وقد ذكرنا في حديث سابق مثالاً على ذلك وهو علي بن أبي حمزة البطائني الذي تزعّم انشقاقاً على الإمام الرضا عليه السلام، وكان عنده علمٌ كثير ورواياته

(١) من حديث سماحة الشيخ اليعقوبي (دام ظله) مع إدارة وطلبة جامعة الصدر الدينية فرع الحسينية في بغداد يوم الأربعاء ١٢/ج١/١٤٣٣ المصادف ٢٠١٢/٤/٤.

تملأ الكتب وشبّهه الإمام الكاظم عليه السلام هو وأصحابه بالحمير ليذّكره بالآية الشريفة [مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ] (الجمعة:٥).

ميادين العلم:

والعمل بالعلم له ميادين (أولها) النفس فيصلحها ويهذبها ويكاملها (ثمّ) المجتمع فينقل ما تعلمه وعمل به إلى الآخرين ليساعدهم على الصلاح والهداية، فإن زكاة العلم إنفاقه وبذله للآخرين، والعلم يزكو وينمو ويباركُ فيه بالإنفاق.

مُذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء:

ومع وضوح هذه المقدّمة، إلاّ إننا نشهد اليوم أمثلة كثيرة على عدم العمل بالعلم وعدم تحويله إلى واقع نعيشه ونتمثله في حياتنا، في أوساط من يسمَونَ بالمتدينين فضلاً عن غيرهم، والمورد الذي أريد أن أذكره محاولة البعض منهم أن يخوض في الدنيا ويمعن في طلبها مع زعمه المحافظة على دينه وآخرته، وهو أعجز من تحقيق ذلك؛ لأن الآخرة والدنيا بهذا الشكل ضرّتان لا تجتمعان كما ورد في الأحاديث الشريفة، وكان يمكنه أن يجعل الدنيا مزرعة للآخرة، فإن الكمالات والجنان لا تنال إلاّ بهذه الدُنيا.

فتوجد فئة من الناس تحاول أن تنال الدنيا التي فتحت أبواب كثيرة لها اليوم من الامتيازات والمصالح من خلال العمل مع جهة ما، لها نفوذها وتسلطها ومواقعها ومناصبها، مع الاعتراف بأنها لا توصل للآخرة بل تصد عنها،

ويقول إنني ما زلت أرجع في الأمور الدينية إلى الجهة الفلانية التي يعتقد أنها مبرئة للذمة أمام الله تعالى، وكأنّه لا تنافي بين الأمرين، وأنّه يمكن أن يكون مع جهة في دينه، ومع جهة أخرى في دنياه، وهو بذلك يخدع نفسه [يُخَادِعُونَ اللّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ] (النساء:١٤٢) فهم ممن وصفهم الله تعالى [مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لاَ إِلَى هَـؤُلاء وَلاَ إِلَى هَـؤُلاء وَمَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً] (النساء:١٤٣).

فمثل هذا الشخص يسقط ولا يستطيع المقاومة حتى النهاية، فإذا أراد الخير لنفسه فليحزم أمره وليتخذ موقفاً حاسماً بأن يجعل الله تعالى نصب عينيه ويختار ما فيه سلامة دينه ويتّبع الجهة التي تبرأ ذمته وتوصله إلى الفلاح فيما يحب ويكره، فيأتمر بأمرها وينتهي بنهيها ويعمل ضمن إطارها.

كربلاء: نموذج لصراع الدنيا والآخرة:

وأمامنا مثالان من كربلاء وهُما يعبّران عن حالة التنازع هذه والنتيجة التي انتهوا إليها.

أحدهما: عمر بن سعد فقد حاول أن يتجنّب قتال الحسين عليه السلام ويبتعد عن هذه الجريمة العظمى بالتوجه إلى إحدى الولايات، لكنّه بقي محباً للدنيا مع ابن زياد وله طمعٌ في نيل ولاية الري وجرجان، حتى وصل إلى مفترق الطريق عندما كلّفه ابن زياد بقيادة الجيش الذي خرج لقتال الحسين عليه السلام، وبات تلك الليلة في حيرة وترددٍ شديدين كما يظهر من أبياته الشعرية التي قالها:

أأترك ملك الري والري مُنيتي أم ارجع مأثوماً بقتل حسين

وخرج إلى كربلاء على رأس الجيش ولكنّه ظلّ يتأمل أن يأخذ الدنيا بيد

من دون أن يخسر الآخرة باليد الأخرى وبقي أياماً في كربلاء يجتمع مع الحسين عليه السلام في خيمة نصبت لهما ويتبادلان الأحاديث، والإمام عليه السلام يبذل المحاولات لإقناعه بالعدول عن هذا الخسران المبين، حتى جاء الشمر بكتابٍ من ابن زياد يأمره بمناجزة الحسين عليه السلام الحرب أو ترك قيادة الجيش للشمر، وهنا سقط ابن سعد واختار الدنيا فخسر آخرته ودنياه ولم يستطع الجمع بينهما.

ثانيهما: الحرّ الرياحي الذي كان قائداً في الجيش الأموي وخرج على رأس ألف فارس لاعتراض الإمام عليه السلام في الطريق بعد دخوله العراق والمجيء به إلى الكوفة، وحاول أيضاً أن يحتفظ بموقعه وامتيازاته من دون أن يتورّط في دم الحسين عليه السلام، فنفّذ أوامر قيادته بمنع الحسين عليه السلام من الرجوع إلى الحجاز، إلاّ أنّه طلب منه عليه السلام أن يذهب باتجاه لا يمر بالكوفة فاختار عليه السلام طريق كربلاء وظلّ الحر يسايره، وهو يتمنى العافية والسلامة وأن لا تنتهي الأمور إلى القتال ويبقى محتفظاً بامتيازاته، إلاّ أنه في النهاية وصل إلى ساعة الحسم يوم عاشوراء حينما وقع القتال، فعاش صراعاً قاسياً ومريراً جعله يرتعد ويرتجف بدرجة استغربها من حوله وظنوا أنّه جبنٌ من المواجهة، فقال له أحدهم: لو قيل من أشجع أهل الكوفة لما عدوناكَ فما هذا الخوف؟ قال: ويلك إنّي أخيّر نفسي بين الجنة والنار ولا أختار على الجنة شيئاً، وأدركه اللطف الإلهي واستنقذه من النار ونقله إلى حيث السعادة الأبدية، ولم يستطع أي أحد غيره أن يتخذ نفتس الموقف لشدته وصعوبته.

ولو كان كل من هذين النموذجين قد ترك طلب الدنيا وتخلّى عن زينتها

الزائفة ليضمن آخرته من أول الأمر لما وقع في هذا المأزق الكبير الذي لا ينجح فيها إلاّ من عصم الله تعالى.

كونوا من السابقين:

وهنا تبرز الفئة الثالثة التي حسمت أمرها من البداية واتبعت الحق ولم تؤثر عليه شيئاً كعلي بن الحسين الأكبر (صلوات الله عليهما) الذي يجيب أباه لما علم منه أنّهم سائرون إلى الموت قال: أو لسنا على الحق، إذن لا نبالي أوقعنا على الموت أم وقع الموت علينا.

فمثل هذا الفريق نجح من أول الأمر ولا يعاني ولا يجد صعوبة ولا تردداً ويمضي قدماً.

فعلينا –أيّها الأحبة– أن نحذر أنفسنا ثم الآخرين من الإقدام على ما يوجب زلل الأقدام ويقرّب من حافة الهاوية مغترين بالقدرة على النجاة في ساحة الحسم والامتحان، فإنّها مجازفة غير مأمونة العواقب حينما نضع رجلاً هنا ورجلاً هناك، والدنيا مليئة بالامتحانات والفتن.

وهذا ما حاوله من قبل أبو هريرة فينقل أنّه كان يصلّي مع علي عليه السلام ويأكل من موائد معاوية فإذا وقعت المعركة انحاز إلى الجبل، فقيل له في ذلك قال: الصلاة مع علي أتم والأكل مع معاوية أدسم والجبل أسلم، وحاول بحسب زعمه أن يحصل على الآخرة مع علي عليه السلام وعلى الدنيا مع معاوية، لكن هذا غير ممكن وما كان لمعاوية أن يدعه يتمتع بدنياه بلا ثمن وهو أن يبيع له دينه كعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة.

وعلينا أن نستفيد من علمنا لأنفسنا وللآخرين ونحسم أمرنا باتباع الحق وسوف يجمع الله تعالى لنا الدنيا والآخرة بفضله وكرمه.

القبس القرآني

٧٣

(وثبّت أقدامنا)[1]

[آل عمران : ١٤٧]

معنى الثبات:

إن مفردة الثبات والتثبيت من القضايا التي اهتم القرآن الكريم بمعالجتها لأن الإنسان يتعرض في هذه الدنيا إلى ابتلاءات كثيرة ومزالق خطيرة لا ينجيه منها إلا طلب التثبيت من الله تعالى والعمل على تحصيل ذلك، لذا كان مطلب المؤمنين **في ساحات المواجهة مع الشيطان والنفس الأمّارة بالسوء والأعداء من الناس هو [رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ] (البقرة:٢٥٠) [وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا اسْتَكَانُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ، وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ] (آل عمران:١٤٧).**

وكانت صفة الثبات عند مزالّ الأقدام هي من الصفات البارزة في رسول الله (صلى الله عليه وآله) التي وصفه بها أمير المؤمنين (عليه السلام) في دعاء الصباح: (والثابت القدم على

(١) من الخطاب السنوي الذي يلقيه سماحة آية الله العظمى الشيخ محمد اليعقوبي (دام ظله) على عشرات الآلاف من المؤمنين الذين توافدوا لإحياء شعائر الزيارة الفاطمية عند أمير المؤمنين (عليه السلام) في النجف الأشرف يوم ٣/جمادى الثانية/ ١٤٣٣ الموافق ٢٠١٢/٤/٢٥.

زحاليفها في الزمن الأول)[١]، وجسّد هذا الثبات في حياته الشريفة حيث لم يجامل ولم يداهن ولم يضعف ولم يقصّر، والشواهد على ذلك كثيرة.

وتأسى به أهل بيته (صلوات الله عليهم أجمعين) والصالحون من أتباعه، وكان ديدنهم الثبات والمداومة والصبر والمصابرة حتى آخر نفس ولا معنى لـ(التقاعد) في حياتهم، وبهذا أمرت الأحاديث الشريفة بحيث جاء عن رسول الله (صلى الله عليه وآله): (إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليغرسها)[٢].

حاجتنا الى الثبات والاستقامة:

ونحن في هذا الزمان بأمسّ الحاجة إلى التثبيت لكثرة الشبهات وانتشار الضلال والفساد واجتماع الأعداء وتفرّق الإخوان، ولا يتحقق الفوز وحسن الخاتمة إلا بالثبات على الاستقامة، عن الإمام زين العابدين (عليه السلام) قال: (من ثبت على ولايتنا في غيبة قائمنا أعطاه الله أجر ألف شهيد، مثل شهداء بدر وأحد) وعن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: والذي بعثني بالحق بشيراً، إن الثابتين على القول به في زمان غيبته لأعز من الكبريت الأحمر)[٣].

---

(١) الزحاليف: جمع زحلوفة وهو المكان شديد الزلق لانحداره وملسه، والزمن الأول بحسب الظاهر هو زمن الخلق والإشهاد وأخذ العهد [وإذْ أخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِم ذُرِّيَّتَهُم وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِم أَلَستُ بِرَبِّكُم قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أنْ تُقُولُوا يَومَ القِيَامَةِ إنّا كُنَّا عَن هذا غَافِلِينَ] (الأعراف:١٧٢).

(٢) ميزان الحكمة: ١٤١٠/٢.

(٣) الحديثان في ميزان الحكمة: ١٨٠/١.

ولا ينال ذلك إلا بالألطاف الإلهية الخاصة والعمل الجاد لتحصيلها، عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (إن الله عز وجل إن شاء ثبّتك فلا يجعل لإبليس عليك طريقاً)[١]، وفي الرواية عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (ستصيبكم شبهة فتبقون بلا علم يرى ولا إمام هدى، لا ينجو منها إلا من دعا بدعاء الغريق قلت: وكيف دعاء الغريق؟ قال: تقول: يا الله يا رحمن يا رحيم، يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك)[٢]، ومن أدعية القرآن الكريم [**رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا**] (آل عمران:٨) وفي مجمع البيان: (قيل: لما نزلت آية [**وَلَوْلا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ**] (الإسراء: ٧٤) قال النبي (صلى الله عليه وآله): اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عينٍ أبداً)[٣].

فلا يجوز لنا أن نغترّ بمقدار الإيمان الذي نحن عليه والالتزامات الظاهرية التي نؤديها ما لم تقترن بالثبات على الإيمان والاستقامة في موارد الامتحان والابتلاء عندما تتعرض الأقدام للانزلاق بسبب اتباع الهوى والركون إلى الدنيا والتفرّق عن الهادين إلى الحق.

طريق الاستقامة:

وقد دلّتنا الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء (عليها السلام) على ما يثبّت الإيمان في قلوبنا ويدفعنا إلى العمل الصالح **وهو اتباع أمير المؤمنين** (عليه السلام) والسير على نهجه والتمسك بولايته، عن النبي (صلى الله عليه وآله) قال: (ما ثَبَّتَ الله حبَّ علي في قلب مؤمن

(١) الكافي: ٤٢٥/٢.

(٢) ميزان الحكمة: ١٨١/١.

(٣) تفسير الصافي: ٤٣٦/٤.

فزلَّت به قدم إلا ثبَّتَ الله قدماً يوم القيامة على الصراط)[١].

وعنه (صلى الله عليه وآله): (أثبتُكم على الصراط أشدُّكم حباً لأهل بيتي)[٢]، وورد عن الإمامين الباقر والصادق (عليهما السلام) في تفسير قوله تعالى: [**وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً**] (النساء:٦٦) عن الصادق (عليه السلام): (ولو أن أهل الخلاف فعلوا ما يوعظون به في علي (عليه السلام))[٣].

ولقد أمرنا الله تعالى بالثبات والصمود على الدوام ودعانا إلى تحصيل أسباب الثبات والاستقامة على الإيمان، **بطاعة الله تبارك وتعالى وطاعة رسوله (صلى الله عليه وآله) والصبر وترك التنازع** والخلاف المؤدي إلى الانهيار والفشل والإحباط [**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ وَاذْكُرُواْ اللّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلَحُونَ، وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**] (الأنفال: ٤٥-٤٦) [**وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً**] (النساء:٦٦).

كيف نحصل الاستقامة؟

ومن الوسائل الوثيقة لتحصيل الثبات هي **التقوى**، قال أمير المؤمنين (عليه السلام): (إنما هي نفسي أروضها بالتقوى لتأتي آمنة يوم الخوف الأكبر، وتثبت على

---

(١) ميزان الحكمة: ١٣٦/١.

(٢) ميزان الحكمة: ١٦١٠/٢.

(٣) تفسير الصافي: ٢٦٦/٢ عن أصول الكافي.

جوانب المزلق)[١].

والورع عن محارم الله تعالى، عن الإمام الصادق (عليه السلام) وقد سئل عما يثبت الإيمان في العبد، قال: (الذي يثبته فيه الورع، والذي يخرجه منه الطمع)[٢].

ولا يثبت الإيمان ويؤتي ثماره إلا **بالعمل الصالح**، عن الإمام الصادق (عليه السلام): (ولا يثبت الإيمان إلا بعمل)[٣] وعن أبي جعفر (عليه السلام) قال: (مرّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) برجل يغرس غرساً في حائط له، فوقف له وقال: ألا أدُلّك على غرس أثبت أصلاً وأسرع إيناعاً وأطيب ثمراً وأبقى؟ قال: بلى فدُلَّني يا رسول الله، فقال: إذا أصبحت و أمسيت فقل: سبحان الله والحمد الله ولا إله إلا الله والله أكبر، فإن لك إن قلته بكل تسبيحة عشر شجرات في الجنة من أنواع الفاكهة وهن من الباقيات الصالحات)[٤].

وعن أمير المؤمنين (عليه السلام): (من زهد في الدنيا، ولم يجزع من ذلها، ولم ينافس من عزها، هداه الله بغير هداية من مخلوق، وعلمه بغير تعليم، وأثبت الحكمة في صدره وأجراها على لسانه) وفي الحديث (من زار الحسين في بقيعه ثبته الله على الصراط يوم تزل فيه الأقدام)[٥].

---

(١) نهج البلاغة: ١٧١/٣ من كتاب له (عليه السلام) إلى عثمان بن حنيف الأنصاري وهو عامله على البصرة وقد بلغه أنه دعي إلى وليمة قوم من أهلها فمضى إليها.

(٢) ميزان الحكمة: ٢٠٠/١.

(٣) الفصول المهمة في أصول الأئمة للحر العاملي: ٤٣٤/١.

(٤) الكافي: ٥٠٦/٢.

(٥) الحديثان في ميزان الحكمة: ١١٧٢/٢.

التثبيت لطف ينطلق من النفس:

إن التثبيت على الإيمان والاستقامة **لطفٌ يؤتيه الله** من يشاء من عباده [**وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً**] (الإسراء:٧٤) [**قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ**] (النحل:١٠٢) [**وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ**] (الأنفال:١١) [**كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ**] (الفرقان: ٣٢).

ولكنه مع ذلك ينطلق من داخل النفس المطمئنة بالإيمان والمحبة لله تبارك وتعالى الذين ذكرهم في كتابه الكريم ووصفهم بأنهم يقومون بأفعال الخير انطلاقاً من رغبتهم النفسية في التثبيت والمداومة على الطاعة: [**وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ وَتَثْبِيتاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فإن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**] (البقرة: ٢٦٥).

فإذا صدق العبد مع ربّه وسعى بالدعاء والعمل للثبات على الإيمان والهدى ثبّته الله تعالى وآمنه وأسعده في الدنيا والآخرة [**يُثَبِّتُ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللّهُ مَا يَشَاءُ**] (إبراهيم: ٢٧)، وورد في تفسيرها عن الإمام الصادق (عليه السلام): (إن الشيطان ليأتي الرجل من أوليائنا عند موته عن يمينه وعن شماله ليضلّه عما هو عليه فيأبى الله عز وجل له ذلك)[١].

---

(١) تفسير الصافي: ٢٣٩/٤ عن الفقيه وتفسير العياشي.

دور الاستقامة:

وهذا الخير للأمة هو ما أرادته الصديقة فاطمة الزهراء (عليها السلام) في خطبتيها فدعتهم إلى أن يأووا إلى الركن الشديد الثابت أمير المؤمنين (عليه السلام) وحذَرت من مخالفته: (ويحهم أنّى زعزعوها عن رواسي الرسالة، وقواعد النبوة والدلالة، ومهبط الروح الأمين، والطِبين بأمور الدنيا والدين، ألا ذلك هو الخسران المبين) [**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ وَلَـكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ**] (الأعراف:٩٦) وقد حذّرتهم من عاقبة انقلابهم وأنهم بذلك يؤسسون لواقع فاسد وفتنة عظيمة تحرق بشررها كل الأجيال اللاحقة: (أما لعمري لقد لَقِحت، فَنَظِرَةٌ ريثما تُنتج[1]، ثم احتلبوا ملء القُعْب[2] دماً عبيطاً وزعافاً مبيداً، هنالك يخسر المبطلون، ويعرف التالون غبَّ ما أسس الأولون).

وأنتم أيها الفاطميون الموالون بإحيائكم للشعائر الفاطمية ونصرتكم لله تعالى ورسوله (صلى الله عليه وآله) وإظهار المودة لأهل البيت (عليهم السلام) تتمسكون بحبل وثيق من التثبيت الإلهي عند المزالق في الدنيا، وعلى الصراط في الآخرة، قال تعالى: [**إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ**] (محمد:٧).

وأي نصرة لله تعالى أعظم من نصرة أوليائه وإظهار حقّهم، وإنصافهم من

---

(١) تنتج أي تلد والنتاج هو الوضع أو الولادة للبهائم. لسان العرب: مادة (نتج).

(٢) القُعْب: القدح الضخم، وقيل: قدح من خشب مقعّر، وقيل: هو قدح إلى الصغر. لسان العرب: مادة (قعب)، واللوحة التشبيهية التي رسمتها الزهراء (عليها السلام) بليغة للغاية صورّت فيها الفتنة وكأنها دابة ستولد بعد حين من لقاح الفتنة ثم يكون جميع ما يجنونه ويحتلبونه منها الدم العبيط.

ظالميهم، فنصرة الزهراء (عليها السلام) وإنصافها من أعظم موارد الحديث الشريف عن رسول (صلى الله عليه وآله): (من مشى مع مظلوم حتى يثبت له حقه، ثبّت الله تعالى قدميه يوم تزل الأقدام)[١].

وقد منّ الله تعالى عليكم بسبب فاعل آخر للتثبيت وهو انتظار فرج إمامنا المهدي المنتظر (أرواح العالمين له الفداء) والأمل بإقامة الدولة الكريمة على يديه، روى علي بن يقطين عن الإمام الكاظم (عليه السلام) قال: (قال لي أبو الحسن (عليه السلام): الشيعة تُربّى بالأماني منذ مائتي سنة) وشرحها علي بن يقطين بقوله: (فلو قيل لنا: إن هذا الأمر لا يكون إلى مائتي سنة أو ثلاث مائة سنة لقست القلوب ولرجع عامة الناس عن الإسلام، ولكن قالوا: ما أسرعه وما أقربه تألّفاً لقلوب الناس وتقريباً للفرج))[٢].

ولكم أيها الثابتون على الحق في زمان الغيبة وردت البشرى من رسول الله (صلى الله عليه وآله) في كتب الشيعة والسنة قال: (سيأتي قومٌ من بعدكم، الرجل الواحد منهم له أجر خمسين منكم، قالوا: يا رسول الله نحن كنّا معك ببدر وأُحُد وحنين ونزل فينا القرآن! فقال: إنكم لو تُحمَّلون ما حُمِّلوا لم تصبروا صبرهم)[٣].

---

(١) ميزان الحكمة: ٦٥٩/١.

(٢) الكافي: ٣٦٩/١ والغيبة للطوسي: ٢٠٧ وعنهما البحار: ١٠٢/٥٢.

(٣) الغيبة للطوسي: ٢٧٥ والخرائج: ٢٨٤ وعن الطبراني الكبير: ٢٢٥/١٠ وسنن أبي داود: ١٢٣/٤ وابن ماجة: ١٣٣٠/٢ والترمذي: ٢٥٧/٥ وغيرها.

القبس القرآني

٧٤

(وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا)[1] [الإسراء : ١٩]

الأمور بخواتيمها:

مما يوجب حذر المؤمن في هذه الحياة الدنيا ويجعله في توجّس ويدفعه إلى مزيد من الاعتصام بالله تعالى، هو أن لا يختم له بخير، وإن كان عمله بحسب الظاهر صالحاً الآن إلاّ أنه لا تعرف خاتمته والأمور بخواتيمها، روي عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قوله (لا يزال المؤمن خائفاً من سوء العاقبة لا يتيقن الوصول إلى رضوان الله حتى يكون وقت نزع روحه وظهور ملك الموت له)[2].

وقد ينجح الإنسان في امتحانات عديدة لكنه يسقط في أحدها سقوطاً نهائياً والعياذ بالله، عن النبي (صلى الله عليه وآله): (أن العبد ليعمل عمل أهل الجنة فيما يرى الناس وإنه لمن أهل النار، وإنه ليعمل عمل أهل النار فيما يرى الناس وإنه لمن أهل الجنة وإنما الأعمال بالخواتيم)[3] وعنه (صلى الله عليه وآله): (الأمور بتمامها والأعمال بخواتيمها).

---

(١) كلمة سماحة المرجع اليعقوبي (دام ظله الشريف) في الاحتفال الذي أقامه في مكتبه يوم الجمعة ٨/شعبان/١٤٣٣ الموافق ٢٠١٢/٦/٢٩ لتكريم الطلبة المتفوقين في الامتحان المركزي الذي أجري في النجف لطلبة فروع جامعة الصدر الدينية في المحافظات، وحضر الاحتفال مدراء فروع الجامعة، وقد استمع سماحته إلى مداخلاتهم بعد الكلمة.

(٢) بحار الأنوار: ٣٦٦/٧١ ح١٣.

(٣) كنز العمال ح ٩٥٠.

قصة أحمد بن هلال العبرتائي:

وهذه الحقيقة لها شواهد قرآنية تاريخية كثيرة، ولنذكر مثالاً (حوزوياً) وهو أحمد بن هلال العبرتائي من كبار العلماء والرواة فقد قال عنه الشيخ الطوسي (روى أكثر أصول أصحابنا) ناهز التسعين من العمر (١٨٠-٢٦٧)، حجّ (٥٤) حجة، عشرون منها ماشياً على قدميه، قال عنه الكشي (وقد كان رواة أصحابنا بالعراق لقوه، وكتبوا منه) وقال العلامة (قد) أنه سمع منه (جل أصحاب الحديث واعتمدوه فيها).

وكان من أصحاب الإمامين الهادي والعسكري (عليهما السلام) إلاّ أنّه مرّ بامتحان بعد استشهاد الإمام العسكري (عليه السلام) ففشل فيه وغلبه هواه وحسده وحبّه للرئاسة والزعامة فورد التحذير أولاً من الإمام المهدي (عليه السلام) من الانخداع بظاهره فقد كتب الإمام (عليه السلام) إلى نوابه (قوّامه) بالعراق في ابتداء أمره (احذروا الصوفي المتصنّع) ثم جاء لعنه من الإمام المهدي (عليه السلام)، فقد ورد في كتاب الغيبة في ذكر المذمومين الذين ادّعوا البابية (قال أبو علي بن همام: كان أحمد بن هلال من أصحاب أبي محمد(عليه السلام)، فأجمعت الشيعة على وكالة محمد بن عثمان (رضي الله عنه) بنص الحسن (عليه السلام) في حياته، ولما مضى الحسن (عليه السلام)، قالت الشيعة الجماعة له: ألا تقبل أمر أبي جعفر محمد بن عثمان، وترجع إليه، وقد نصّ عليه الإمام المفترض الطاعة؟ فقال لهم لم أسمعه ينصّ عليه بالوكالة، وليس أنكر أباه، يعني عثمان بن سعيد، فأمّا أن أقطع أنّ أبا جعفر وكيل صاحب الزمان فلا أجسر عليه، فقالوا: قد سمعهُ غيرك، فقال: أنتم وما سمعتم، ووقف على أبي جعفر، فلعنوه وتبرئوا منه، ثم ظهر التوقيع على يد أبي القاسم حسين بن روح، بلعنه،

وبالبراءة منه في جملة من لُعن).

ولم يتحمل كثير من الأصحاب هذا الخبر في حق ابن هلال لما ذكرنا من منزلته عندهم وأنكروا ما ورد في مذمّته (فحملوا القاسم بن العلاء على أن يُراجع في أمره فخرج إليه توقيع طويل جاء فيه (ونحن نبرأ إلى الله تعالى من ابن هلال لا رحمه الله وممن لا يبرأ منه، فأعلم الإسحاقي وأهل بلده مما أعلمناك من حال هذا الفاجر، وجميع من كان سألك ويسألك عنه)[1].

أهمية حسن الخاتمة:

فهذا وأمثاله كثير ممن كان له ظاهر تمتد إليه الأعناق، لكن قدمه زلّت ولم يتب ولم يصلح خطأه وأصرّ عليه فكان من الملعونين لذا ورد في الحديث النبوي الشريف (لا عليكم أن تُعجبوا بأحدٍ حتى تنظروا بما يُختمُ له، فإنّ العاملَ يعمل زماناً من عمره أو بُرهة من دهره بعملٍ صالحٍ لو مات عليه دخل الجنة، ثمّ يتحوّل فيعمل عملاً سيئاً)[2] وعنه (صلى الله عليه وآله): (إنّ الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل الجنة، ثمّ يختم له بعمل أهل النار)[3].

ولأهميّة حسن الخاتمة فقد أشير إليها كثيراً في الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة، وتكرّر طلبها في الأدعية المباركة، وأجاب القرآن الكريم باختصار عن كيفية ضمان الفوز بحسن الخاتمة في قوله تعالى (تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ

(١) هذه النصوص نقلها من مصادرها: السيد الخوئي (قدس سره) في معجم رجال الحديث: ٣٦٧/٢-٣٧٠.

(٢) منتخب ميزان الحكمة: ٢٠٦ عن كنز العمّال: ٥٤٥، ٥٨٩.

(٣) السابق.

لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ) (القصص/٨٣) وبتفصيل أكثر قال تعالى (وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً) (الإسراء/١٩).

متطلبات الفوز بالآخرة:

فالفوز بالآخرة يتطلب بحسب الآية الشريفة:

١- إرادة جديّة وقصد حقيقي لنيل رضوان الله تبارك وتعالى وليس مجرد لقلقة لسان كما وصفهم الإمام الحسين (عليه السلام) (الناس عبيد الدُنيا، والدين لعقٌ على ألسنتهم يحيطونه ما درّت معائشهم، فإذا مُحصّوا بالبلاء قلّ الديانون)، وأن تكون إرادته مبنية على قصد الوصول إلى الهدف الحقيقي وهو رضا الله تبارك وتعالى وليس طاعة لغيره أو لأي هدفٍ آخر سواه.

٢- السعي الجاد الدؤوب بما يصلح الآخرة ويضمن الفوز فيها، فقوله تعالى (وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا) يتضمن عدة خصائص لهذا السعي منها كونه حثيثاً ودؤوباً فقد قيل في معنى السعي أنّه (المشي السريع ويستعمل للجد في الأمر)، (وأكثر ما يُستعمل السعي في الأفعال المحمودة)) ولتأكيد ذلك فقد أضافت الآية السعي إلى الآخرة أي أن يكون السعي مناسباً للآخرة بكل ما يعني ذلك، لتختصر كل ما تطلبه الآخرة من نوع السعي ومقداره وخصوصياته، قال السيّد صاحب الميزان ((والمعنى وسعى وجدّ للآخرة السعي الذي يختص بها ويُستفاد منه أنّ سعيه لها يجب أن يكون سعياً يليق بها ويحقّ لها كأن يكون يبذل كمال الجهدِ

في حسن العمل وأخذه من عقل قطعي أو حجة شرعية)[١].

٣- أن يقترن ذلك بالإيمان بالله تعالى وبرسول الله (صلى الله عليه وآله) لأنّه شرط القبول ونيل الجزاء لأنّ باب الله الذي لا يُؤتى إلاّ منه (وَأْتُواْ الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا) (البقرة/١٨٩) وأن يتعزز الإيمان بالمعرفة بالله تعالى وإخلاص النية له سبحانه، وهذا الإيمان والمعرفة لابد أن تكون لها حقيقة، فيعتقد أن هذا كله لطفٌ من الله تعالى وأنّه لا يستقل بشيء عن ربّه، وأن يكون خائفاً مشفقاً إذا نظر إلى العمل من زاويته الشخصية، فإذا قُبل عمله بفضل الله ورحمته وهذا ما أكدته الآية اللاحقة (كُلاًّ نُّمِدُّ هَـؤُلاء وَهَـؤُلاء مِنْ عَطَاء رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاء رَبِّكَ مَحْظُوراً) (الإسراء/٢٠) ونحو ذلك من المعاني.

ما يؤمنك من سوء العاقبة:

وقد بيّنت الروايات الشريفة بعض مظاهر هذه المعرفة وهذه الأعمال الصالحة: عن أمير المؤمنين (عليه السلام): (إذا أردت أن يؤمنك الله سوء العاقبة فاعلم أن ما تأتيه من خير فبفضل الله وتوفيقه، وما تأتيه من سوء فبإمهال الله وإنظاره إياك وحلمه وعفوه عنك).[٢] ومن كلام الإمام الصادق (عليه السلام) لبعض الناس (إن أردت أن يُختم بخير عملك حتّى تُقبض وأنت في أفضل الأعمال فعظّم لله حقّه أن تبذل نعمائه في معاصيه، وأن تغتر بحلمه عنك، وأكرم كلّ من

(١) الميزان في تفسير القرآن: ٦٥/١٣.

(٢) بحار الأنوار: ٣٩٢/٧٠ ح ٦٠.

وجدته يذكر منّا أو ينتحل مودّتنا).[١] عن الإمام الكاظم (عليه السلام): (إنّ خواتيم أعمالكم قضاء حوائج اخوانكم والإحسان إليهم ما قدرتم وإلاّ لم يُقبل منكم عمل، حنّوا على اخوانكم وارحموهم تُلحقوا بنا)[٢].

فمثل هؤلاء يكون سعيهم مشكوراً، وقد أطلق لفظ الشكر ليكون لا حدود له لأنّ صفات الله تبارك وتعالى لا حدود لها، ومن أسمائه الشكور.

لا بد أن يقترن الدعاء بالسعي:

وشدّدت الآية على أن الجزاء لا يتخلف عن السعي بل يكون نتيجة حتمية له، بعكس من يطلبون الدُنيا الذين ذكرتهم الآية السابقة على هذه، قال تعالى (مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاء لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُوماً مَّدْحُوراً) (الإسراء/١٨) فلا يتحقق له ما يريد بل ما يريده الله تبارك وتعالى، وليس لكل أحدٍ بل لمن يشاء الله تعالى أن يعطيه.

وبهذا المعنى الذي شرحناه لسعي الآخرة لابد أن نفهم معنى انتظار الإمام صاحب الأمر (عليه السلام) والدعاء بقيام دولته المباركة، فلابد أن يقترن بالسعي الخاص به والمناسب له، فتقيّد أحاديث ثواب الانتظار والمنتظرين بأن يُسعى له سعيه.

وهكذا كل قضية في حياتنا يُراد تحقيقها فلابد أن يسعى لها سعيها المناسب لها كمن يريد أن يصبح طبيباً أو مهندساً فلابد أن يبذل الجهد المطلوب كماً

---

(١) عيون أخبار الرضا (عليه السلام): ٤/٢ ح٨.

(٢) بحار الأنوار، ٣٧٩/٧٥.

ونوعاً ويسير وفق الآليات التي توصله إلى هدفه، ولا ينال كل ذلك إلاّ بلطف الله تعالى وتوفيقه ومدده.

القبس القرآني

٧٥

(ربَّنا اغفِر لنا ذنوبنا)[١]

الذنوب: أصولها وكيفية الاحتراز منها وكفاراتها

[آل عمران : ١٤٧]

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا أبي القاسم محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين.

موعظة:

قال الله تعالى: [وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ] (البقرة:١٩٧).

وقال أمير المؤمنين (عليه السلام): (عبادَ الله، الله الله في أعزِّ الأنفس عليكم، وأحبِّها إليكم، فإن الله قد أوضح لكم سُبُل الحق، وأنار طُرُقَه، فَشَقْوَةٌ لازمة، أو سعادةٌ دائمة، فتزودوا في أيام الفناء لأيام البقاء، قد دُللتم على الزاد، وأمرتم بالظعن، وحثثتم على المسير، فإنما أنتم كركبٌ وقوف، لا يدرون متى يؤمرون بالسير، ألا فما يصنع بالدنيا من خُلق للآخرة، وما يصنع بالمال من عمّا قليل يُسلَبُه، وتبقى عليه تبعته وحسابه.

عبادَ الله، احذروا يوماً تُفحص فيه الأعمال، ويكثُر فيه الزلزال، وتشيب فيه الأطفال)[٢].

---

(١) خطبتا عيد الفطر السعيد للعام ١٤٣٣ المصادف ٢٠١٢/٨/٢٠.

(٢) نهج البلاغة: الخطبة (١٥٧).

ومن خطبة له (عليه السلام): (أوصيكم عباد الله بتقوى الله التي هي الزاد وبها المعاذ، زاد مبلغ، ومعاذ منجح) (فبادروا العمل، وخافوا بغتة الأجل، فإنه لا يرجى من رجعة العمر ما يرجى من رجعة الرزق، ما فات اليوم من الرزق رُجي غداً زيادته، وما فات أمس من العمر لم يُرجَ اليوم رجعته، الرجاء مع الجائي، واليأس مع الماضي فـ[اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ] (آل عمران:١٠٢))[١].

سُئل الإمام الصادق (عليه السلام) عن معنى التقوى وتفسيرها، فاختصر (عليه السلام) الجواب بقوله: (أن لا يفقدك الله حيث أمرك، ولا يراك حيث نهاك)[٢].

فللتقوى ركنان:

(الأول) ترك ما يكره الله تبارك وتعالى ويسخطه، وهو أوسع من المحرمات فيشمل المكروهات المؤثرة في تكامل الإنسان وتقربه من الله تعالى.

(الثاني) فعل ما يحبه الله تعالى ويرضاه وهو أعم من الواجبات فيشمل المستحبات الموجبة لرضا الله تبارك وتعالى ومحبته.

فمن أراد الكمال سار بهذين الطريقين معاً، ولا يغني أحدهما عن الآخر، فمن قام ببعض الطاعات لكنه لم يجتنب المعاصي والعياذ بالله، فإنه يهدم ما بناه بتلك الطاعات وسوف لا يقوم له بناء أبداً، روي عن المعصومين (عليهم السلام) قولهم: (جدّوا واجتهدوا، وإن لم تعملوا فلا تعصوا، فإن من يبني ولا يهدم يرتفع

(١) نهج البلاغة: الخطبة (١١٤).

(٢) بحار الأنوار: ٢٨٥/٧٠، ح٨.

بناؤه وإن كان يسيراً، وإن من يبني ويهدم يوشِك أن لا يرتفع بناؤه)[١].

ونفس المعنى يجري في الأمراض البدنية، فإن من ابتلي بمرض معين – كالسكري أجاركم الله تعالى منه- فإن الطبيب يأمره بأخذ بعض العلاجات وينهاه عن ارتكاب بعض الأفعال أو تناول أطعمة تضره بكميتها أو نوعها، فإذا أراد الحفاظ على صحته فلا بد أن يأخذ بهما معاً.

ولو حاولنا ترجيح أحد الركنين على الآخر أو قل بيان أيهما أهم وأكثر تأثيراً في تحصيل التكامل فإن الجواب يكون لصالح الاجتناب عما يسخطه الله تبارك ويكرهه، وقد دلّت عليه بعض الأحاديث الشريفة كقول أمير المؤمنين (عليه السلام): (اجتناب السيئات أولى من اكتساب الحسنات)[٢]، ومنها ما ورد في خطبة النبي (صلى الله عليه وآله) في آخر جمعة من شعبان لاستقبال شهر رمضان، وسأله علي (عليه السلام) عن أفضل الأعمال في هذا الشهر قال (صلى الله عليه وآله): (الورع عن محارم الله).

معرفة الذنوب:

فمعرفة الذنوب –بمداها الواسع ومراتبها الكثيرة بحسب مستويات الأشخاص- وتحصيل القدرة على اجتنابها –صغيرها وكبيرها- مما يهتم به الساعون إلى الكمال، لذا فقد شُغل حيز كبير من القرآن الكريم ببيان الذنوب وآثارها في الدنيا وعاقبتها في الآخرة والتحذير منها وبيان ما يكفّرها ويزيل

(١) بحار الأنوار: ٢٨٦/٧٠، ح٨.

(٢) غرر الحكم: ١٥٢٢.

آثارها، وقصص الأمم التي عكفت على المعاصي ولم تجتنبها وما حلّ بها من العذاب بسبب ذلك، والحياة السعيدة لمن اجتنبها، ولو حاولنا جمعها لوجدنا أن القرآن الكريم كله يعالج هذه القضية بشكل مباشر أو غير مباشر.

لماذا يذنب العبد؟

لا يمكن التقليل من قوة ضغط الذنوب والخطايا على الإنسان حتى يندفع إلى ارتكابها مع كثرة ما يعرف عن آثارها الوخيمة في الدنيا وعاقبتها الفظيعة في الآخرة، يقول أمير المؤمنين (عليه السلام): (ألا وإن الخطايا خيلٌ شُمُسٌ حُمل عليها أهلها وخُلعت لُجُمها فتقحّمت بهم في الناس)[1] فالخطايا كالخيول العنيدة المتمردة على صاحبها ولا لجام لها ليمسك بها فتقتحم بصاحبها إلى المخاطر.

وهنا يأتي السؤال: من أين جاءت هذه القوة للخطايا؟ أو قل: إذا كانت الذنوب بهذه الخطورة وهذا التأثير المدمر في حياة الإنسان فلماذا يرتكبها، وهذا بحث نفسي واجتماعي وقد يحتاج إلى إجراء استبيان، ولكن يمكن استفادة بعض مناشئ الذنوب مما ورد في الروايات الشريفة، ينفع الالتفات إليها في اجتنابها وتوقيها، عن الإمام الباقر (عليه السلام): (توقّي الصرعة خير من سؤال الرجعة)[2]:

١- **الجهل بمقام الربوبية ووظائف العبودية**، فإن من يعرف الله تعالى يتجنب المعاصي بمقدار تلك المعرفة ويؤتيه الله تعالى فرقاناً يميز به بين الحق والباطل [إِنْ تَتقوا اللهَ يَجعَل لَكُم فُرقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنكُم سَيئَاتِكُم وَيَغفِرْ لَكُم وَاللهُ ذُو

(١) بحار الأنوار: ٣/٧٨، ح٥١.

(٢) بحار الأنوار: ١٨/٧٨، ح٣١.

الفَضلِ العَظِيمِ] (الأنفال:٢٩)، حتى إذا اكتملت عنده المعرفة كالمعصومين (عليهم السلام)- أصبح عبداً خالصاً لله تعالى ينفر بطبعه من المعصية ويتقزز منها، فمن رأى الغيبة على حقيقتها ووجدها أكلاً للحم أخيه ميتاً هل يقدم عليها؟ ومن رأى الدنيا جيفة قد اجتمعت عليها الكلاب هل يتنافس عليها، وهكذا.

ثم الجهل بأمور الدين، فما دام الإنسان لم يتفقه في دينه ولم يتعرف على ما يقربه إلى الله تعالى ويجنبه سخطه فإنه يتورط في المعاصي من حيث يعلم أو لا يعلم، عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: (جهل المرء بعيوبه من أكبر ذنوبه)[١]؛ وكتطبيق لهذا المبدأ فقد ورد في التجارة قول الإمام الصادق (عليه السلام): (من أراد التجارة فليتفقه في دينه ليعلم بذلك ما يحلُّ له مما يحرم عليه، ومن لم يتفقه في دينه ثم اتجر تورط في الشبهات)[٢].

والتحذير لا يختص بالتجارة وإنما يعم كل شؤون الحياة؛ لأنها كلها مقنَّنة بأحكام في الشريعة، فالجهل بها يوقع في المعصية كجهل ربِّ الأسرة بأن كثيراً مما يفعله في البيت هو ظلم لزوجته وأسرته، والظلم ذنب لا يغفر

حتى يرضى المظلوم.

٢- وجود الدوافع وأصول الذنوب في النفس الإنسانية المعبَّر عنها بالغرائز والشهوات والتي خلقت أصلاً لتؤدي أدواراً إيجابية في حياة الإنسان ولتكمّل قواه الأخرى كالعقلية والجسدية والقلبية، لكنها إذا خرجت عن حدّها

(١) بحار الأنوار: ٩١/٧٨، ح ٩٥.

(٢) وسائل الشيعة: ٢٨٣/١٢، كتاب التجارة، أبواب،/ آداب التجارة، باب ١، ح٤.

إلى جانب الإفراط أو التفريط كان سبباً للوقوع في المعاصي، أشار إلى هذه القوى هشام بن الحكم في ما نقل عنه ابن أبي عمير في الاستدلال على عصمة الإمام (عليه السلام) قال: (إن جميع الذنوب لها أربعة أوجه لا خامس لها: الحرص والحسد والغضب والشهوة، فهذه منتفية عنه –أي المعصوم– ثم بيّن ذلك) فراجعه[1].

٣- ويعاضدها الشيطان بالتزيين والإغواء والتطمين والتهوين من الأمر حتى يقارف الذنب والمعصية قال تعالى حاكياً عن إبليس: [قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ، إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ] (الحجر: ٣-٤٠). وفي دعاء للإمام السجاد (عليه السلام): (فلولا أن الشيطان يختدعهم عن طاعتك ما عصاك عاصٍ، ولولا أنه صوَّر لهم الباطل في مثال الحق ما ضلَّ عن طريقك ضال)[2]. وقد ورد التحذير من إغراء الشيطان وإغوائه كثيراً في القرآن الكريم والروايات الشريفة مما لا يخفى على أحد.

هذا التزيين الشيطاني وهذه الموافقة لأهواء النفس وشهواتها جعل للخطايا تأثيراً ساحراً يسكر صاحبه حتى يتورط فيها، قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (احذروا سكر الخطيئة، فإن للخطيئة سكراً كسكر الشراب، بل هي أشدُّ سكراً منه، يقول

(١) بحار الأنوار: ١٩٢/٢٥، ح١ عن كتب الشيخ الصدوق (قدس سره) معاني الأخبار والعلل والأمالي والعيون.

(٢) الصحيفة السجادية: الدعاء ٣٧.

الله تعالى: [صُمٌّ بُكمٌ عميٌّ فهم لا يرجعون] (البقرة: ١٨))[١].

٤- **الاغترار بالستر الإلهي** على العاصين وعدم فضح الإنسان بذنبه (فلو اطلع اليوم على ذنبي غيرك ما فعلته ولو خفتُ تعجيل العقوبة لاجتنبته، لا لأنك أهون الناظرين إليّ وأخفُّ المطلعين عليّ بل لأنك يا ربِّ خير الساترين.. وأكرم الأكرمين .. تستر الذنب بكرمك وتؤخر العقوبة بحلمك) (الحمد لله الذي يحلم عني حتى كأني لا ذنب لي)[٢].

وذلك كله لسعة رحمة الله وطول أناته على ذنوب عباده رحمة بالعباد وإعطاءهم مزيداً من الفرص للندم والرجوع والإقلاع عن الذنب، وحبّاً من الله لعباده وشفقة عليهم، فيتمادى الإنسان ويغتر، ظاناً أن الفرصة مفتوحة على الدوام، ولا يعلم أنه قد يوصله تماديه واغتراره إلى حد هتك الستر وانغلاق الباب وسدّ الفرصة، قال تعالى: [إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً، وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً] (النساء: ١٧-١٨).

٥- **استصغار الذنب والاستخفاف به** لما ارتكز في الذهن من أن الذنوب الموعود بها النار هي الكبائر أما غيرها فيمكن ارتكابها، وهذا التفكير بحد ذاته من الكبائر لما فيه من الجرأة على الله تعالى وعدم الاعتبار بعظمته وعلو شأنه

---

(١) بحار الأنوار: ١٠٢/٧٧، ح١.

(٢) المقطعان من دعاء الإمام السجاد (عليه السلام) المعروف بدعاء أبي حمزة الثمالي.

وهو موجب لسخط الله وسلب اللطف عن العبد فتؤدي به هذه الصغائر إلى الوقوع في الكبائر والعياذ بالله.

لذا كثر التحذير من استصغار أي ذنب، قال أمير المؤمنين (عليه السلام): (لا تستصغروا قليل الآثام فإن الصغير يُحصى ويرجع إلى الكبير)[١]، وروي عن الإمام الصادق (عليه السلام) أنه قال: (إن رسول الله (صلى الله عليه وآله) نزل بأرض قرعاء فقال لأصحابه: ائتوا بحطب، فقالوا: يا رسول الله نحن بأرض قرعاء ما بها من حطب، قال: فليأت كل إنسان بما قدر عليه، فجاؤوا به حتى رموا بين يديه بعضه على بعض، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): هكذا تجتمع الذنوب، ثم قال: إياكم والمحقرات من الذنوب، فإن لكل شيء طالباً، ألا وإن طالبها يكتب ما قدموا وآثارهم وكلّ شيء أحصيناه في إمام مبين)[٢]، وعن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: أعظم الذنوب عند الله سبحانه ذنب صغر عند صاحبه)[٣] وعنه (عليه السلام): (إن الله أخفى سخطه في معصيته، فلا تستصغروا شيئاً من معصيته، فربما وافق سخطه وأنت لا تعلم)[٤].

٦- **الغفلة**، فإن كثيراً من الذنوب –وبعضها من الكبائر- ترتكب لا للجهل بها وإنما للغفلة كالغيبة التي يُعلم أنها من الكبائر ووصفها الله عز وجل بأشنع الأوصاف وهي إدام أهل النار، ومع ذلك فقد أصبحت الغيبة فاكهة المجالس والمادة الرئيسية للأحاديث، فينبغي للمؤمن أن يتجنب الغفلة بترك المقدمات

(١) الخصال: ٦١٦، ح١٠.

(٢) الكافي: ٢٨٨/٢، ح٣.

(٣) غرر الحكم: رقم ٣١٤١.

(٤) بحار الأنوار: ٣٤٩/٧٣، ح٤٣.

الموجبة لها، وإذا عرضت عليه فليخرج منها فور التفاته؛ بذكر الله تعالى، قال عز وجل: [إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ] (الأعراف:٢٠١) وعن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: (الغفلة ضلالة)[١] وعنه (عليه السلام): (إياك والغفلة والاغترار بالمهلة، فإن الغفلة تفسد الأعمال)[٢]

ومن وصايا النبي (صلى الله عليه وآله) لأبي ذر: (هُمَّ بالحسنة وإن لم تعملها لكيلا تكتب من الغافلين)[٣].

٧- **سوء الخلق**، عن النبي (صلى الله عليه وآله): (لكل ذنب توبة إلا سوء الخلق، فإن صاحبه كلما خرج من ذنب دخل في ذنب)[٤].

٨- **الاختلاط الكثير مع الناس ومجالسة البطّالين، والخوض في فضول الكلام**، فهذه الأمور كلها مظنة الوقوع في الذنوب والمحرمات؛ لذا ورد التحذير من حضور هذه المجالس والمشاركة في اللغو الباطل [وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ] (المدثر:٤٥)، عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: (مجالسة أهل الهوى منسأة[٥] للإيمان ومحضرة للشيطان)[٦]، وفي الحديث عن رسول الله (صلى الله عليه وآله):

---

(١) غرر الحكم: ١٩٦، ٢٧١٧.

(٢) ميزان الحكمة: ٢٢٨٧/٣.

(٣) مكارم الأخلاق: ٣٧٨/٢.

(٤) بحار الأنوار: ٤٨/٧٧، ح٣.

(٥) منسأة بفتح الميم والهمزة: أي تأخير وتأجيل.

(٦) نهج البلاغة: الخطبة: ٨٦.

(أكثر الناس ذنوباً أكثرهم كلاماً في ما لا يعنيه)[١] وعن أمير المؤمنين (عليه السلام): (إياك والهذر، فمن كثر كلامه كثرت آثامه)[٦] وعنه (عليه السلام): (الكلام في وثاقك ما لم تتكلم به، فإذا تكلمت به صرت في وثاقه، فاخزن لسانك كما تخزن ذهبك وورِقك، فرُبّ كلمة سلبت نعمة وجلبت نقمة)[٧].

٩- سوء فهم بعض ما ورد في الروايات الشريفة من الثواب على بعض الأفعال كدخول الجنة بالبكاء على الحسين (عليه السلام) وإقامة شعائره وشفاعة أهل البيت (عليهم السلام)، فقد أعطى الله تعالى هذه الكرامات لأهل البيت (سلام الله عليهم) رحمة بالعباد لكي تسدّ الخلل والتقصير والقصور مع حسن النية والعزم على فعل الخير والطاعة وبذل الوسع في ذلك، وليس بأن تكون سبباً للتمادي والجرأة والعناد واللجاجة، قال تعالى: [وَلا يَشْفَعُونَ إِلا لِمَنِ ارْتَضَى] (الأنبياء:٢٨) وقال تعالى: [وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ] (الأعراف: ١٥٦)، وكما عبّر الإمام الرضا (عليه السلام) عن إعطاء هذه الدرجات أنه (بشرطها وشروطها) في حديث سلسلة الذهب المعروف.

وقد حذّر الإمام الصادق (عليه السلام) في وصيته عند وفاته وقد جمع أقرباءه ومتعلقيه: (إن شفاعتنا لا تنال مستخفاً بالصلاة)[٢] وقال الإمام الباقر (عليه السلام): (لا تتهاون بصلاتك، فإن النبي (صلى الله عليه وآله) قال عند موته: ليس مني من استخف

(١) و (٦) و (٧) منتخب ميزان الحكمة: ٥٥٢.

(٢) مستدرك الوسائل: ٢٥/٣، ح٢٩٢٣.

بصلاته)[1].

تلخيص بأسباب الذنوب:

وقد لخّص الإمام السجاد (عليه السلام) ذكر هذه الأسباب لمقارفة الذنوب بما ورد عنه في الدعاء المعروف بدعاء أبي حمزة الذي يدعى به في أسحار شهر رمضان، قال (عليه السلام): (إلهي لم أعصك حين عصيتك وأنا بربوبيتك جاحد ولا بأمرك مستخف ولا لعقوبتك متعرض ولا لوعيدك متهاون، لكن خطيئة عرضت وسوّلت لي نفسي وغلبني هواي وأعانني عليها شقوتي، وغرّني سترك المرخى عليّ) وقال (عليه السلام): (إلهي ما لي كلما قلت قد صلحت سريرتي، وقرب من مجالس التوابين مجلسي، عرضت لي بلية أزالت قدمي ... سيدي لعلك عن بابك طردتني، وعن خدمتك نحيتني، أو لعلك رأيتني مستخفاً بحقك فأقصيتني أو لعلك رأيتني معرضاً عنك فقليتني، أو لعلك وجدتني في مقام الكاذبين فرفضتني، أو لعلك رأيتني غير شاكر لنعمائك فحرمتني، أو لعلك فقدتني من مجالس العلماء فخذلتني، أو لعلك رأيتني في الغافلين فمن رحمتك آيستني، أو لعلك رأيتني آلف مجالس البطالين فبيني وبينهم خليتني أو لعلك لم تحب أن تسمع دعائي فباعدتني، أو لعلك بجرمي وجريرتي كافيتني أو لعلك بقلة حيائي منك جازيتني..)[2].

---

(١) الكافي: ٢٦٩/٣، ح٧.

(٢) دعاء أبي حمزة الثمالي، تجده في مفاتيح الجنان، أعمال أسحار شهر رمضان.

كيف نحصل القدرة على اجتناب الذنوب؟

إن اجتناب الذنوب يحتاج **أولاً إلى معرفة تفصيلية بها** لأن بعضها وإن كان معلوماً كالكبائر إلا أن الكثير منها غير معلوم وبعضها لا يلتفت إليها أحد كعدم قضاء حوائج المؤمنين والاهتمام بها، ففي رواية عن الإمام الصادق وولده الكاظم (عليهما السلام): (من أتاه أخوه في حاجة يقدر على قضائها فلم يقضها له سلّط عليه شجاعاً ينهش إبهامه في قبره إلى يوم القيامة مغفوراً له أو معذباً)[1] وهكذا غيرها مما ذكرناه في خطاب سابق وذكرنا أمثلة عليها من دعاء الإمام السجاد (عليه السلام) في الاستغفار من كل نعمة لم يشكرها أو ظُلم أحدٌ عنده فلم ينصره وهكذا، ناهيك بالمحرمات المعروفة، وهذا يتطلب تفقهاً واطلاعاً مستمراً على كتب السلف الصالح والاستماع دائماً إلى المحاضرات الإرشادية والوعظية.

ومما يقلل فرصة ارتكاب الذنب **زيادة المعرفة بالله تعالى وتقوية العلاقة به تبارك وتعالى**، كتذكر أنه محسن إلينا بما لا يعد ولا يحصى من النعم، و [هَلْ جَزَاء الإِحْسَانِ إِلا الإِحْسَانُ] (الرحمن:٦٠) و[أَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ] (القصص:٧٧) وفي ذلك يقول أمير المؤمنين (عليه السلام): (لو لم يتوعد الله على معصيته لكان يجب ألا يُعصى شكراً لنعمته)[2]، وعن الإمام الرضا (عليه السلام) في حديث قال: (ولو لم يخوِّف الله الناس بجنة ولا نار لكان الواجب عليهم أن يطيعوه ولا يعصوه لتفضله عليهم

(١) وسائل الشيعة: كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أبواب فعل المعروف، باب ٢٥، ح٥، ٩، ١٠.

(٢) نهج البلاغة: الحكمة ٢٩٠.

وإحسانه إليهم وما بدأهم به من إنعامه الذي ما استحقوه)[١].

أو الالتفات إلى أن الذنوب تمنع بعض عطاء الله تبارك وتعالى ونحن محتاجون إليه، عن أمير المؤمنين (عليه السلام) المؤمنين (عليه السلام): (لو لم يرغّب الله سبحانه في طاعته لوجب أن يطاع رجاء رحمته)[٢].

أو تذكر أنك بمحضر الله تبارك وتعالى وتحت نظره ولا تخفى عليه خافية في السماوات والأرض [يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ] (غافر:١٩)، فمعصيته والحال هذه جرأة على جبار السماوات والأرض وتحدٍ لعظمته، من وصايا النبي (صلى الله عليه وآله) لأبي ذر: (يا أبا ذر لا تنظر إلى صغر الخطيئة ولكن انظر إلى من عصيت) ومن كلماته (صلى الله عليه وآله): (لا تنظروا إلى صغر الذنب ولكن انظروا إلى من اجترأتم)[٣].

أو أن يلتفت إلى أن هذا الذنب قد يوجب هتك الستر الذي ضربه الله تعالى عليه فتفضحه الذنوب، أو أن ينال به سخط الله تعالى وغضبه بحيث لا تنفعه توبة ولا تدركه الألطاف الإلهية، فقد أخفى الله غضبه في معصيته، فلا يُعلم أي معصية توجب ذلك فعلى العبد أن يتوفاها جميعاً، من دعاء الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام): (وإن خذلني نصرك عند محاربة النفس والشيطان فقد وكلني خذلانك إلى حيث النصب والحرمان). في الحديث عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: (للمؤمن

---

(١) عيون أخبار الرضا: ١٨٠/٢.

(٢) غرر الحكم: ٧٥٦٤.

(٣) بحار الأنوار: ١٦٨/٧٧، ح٦.

اثنان وسبعون ستراً فإذا أذنب ذنباً انهتك عنه ستر، فإن تاب رده الله إليه وسبعةً معه، وإن أبى إلا قدماً قدماً في المعاصي تهتك أستاره، فإن تاب ردها الله إليه ومع كل ستر منها سبعة، فإن أبى إلا قدماً قدماً في المعاصي تهتك أستاره

وبقي بلا مستر وأوحى الله تعالى إلى ملائكته أن استروا عبدي بأجنحتكم)[١].

وفي الكافي عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (من همّ بسيئة فلا يعملْها فإنه ربما يعمل العبد السيئة فيراه الرب تعالى ويقول: وعزتي وجلالي لا أغفر لك بعد ذلك أبداً)[٢].

ومما يساعد على تجنب المعاصي أن يعلم بأن في ارتكاب الذنب إيذاءً وإساءة لرسول الله (صلى الله عليه وآله) ولأمير المؤمنين (عليه السلام) ولفاطمة الزهراء (عليها السلام) والأئمة المعصومين (سلام الله عليهم) ونحن نحبهم ولا نريد إيذاءهم وهم مطّلعون على أعمال العباد، كما نطقت به الآية الكريمة: [وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ] (التوبة:١٠٥)، روي عن الإمام (عليه السلام) قال: (ما لكم تسوؤون رسول الله (صلى الله عليه وآله)؟ فقال رجل: جُعلتُ فداك وكيف نسوؤه؟ قال: أما تعلمون أن أعمالكم تعرض عليه فإذا رأى فيها معصية الله ساءه ذلك، فلا تسوؤوا رسول الله وسرّوه)[٣].

---

(١) بحار الأنوار: ٦٣/٧٣، عن نوادر الراوندي: ٦.

(٢) سفينة البحار: ٢١٦/٣، بحار الأنوار: ٣٠٨/٧٣.

(٣) مجالس المفيد: ١٩٦، المجلس ٢٣، ح٢٩.

ومن المعرفة الموجبة لتجنب المعاصي الالتفات إلى الهدف من وجودنا في هذه الدنيا وما ينبغي أن نصرف أعمارنا فيه مما يوصل إلى الغاية، وحينئذٍ سوف لا يكون للإنسان مجال للعب والعبث واللهو فضلاً عن ارتكاب المعاصي، عن الإمام الكاظم (عليه السلام): (إن العقلاء تركوا فضول الدنيا فكيف الذنوب؟ وترك الدنيا من الفضل، وترك الذنوب من الفرض)[1].

آثار الذنوب في الدنيا والآخرة:

ومما يحفّز على ترك الذنوب معرفة آثارها في الدنيا والآخرة، ونتعرض هنا لبعض آثارها في الدنيا، أما في الآخرة ابتداءً من الموت وما بعده من أهوال البرزخ والحساب ويوم القيامة فإن في القرآن الكريم ما يكفي لبيان تلك العظائم [يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ] (الحج:٢) [يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً] (المزمل:١٧) [بَلَى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ] (البقرة:٨١) [قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ] (الأنعام:١٥) [وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ] (النمل:٩٠) وأهون ما يذكر من تلكم الآثار الحجب عن النعيم مدة قد تطول كثيراً، في الكافي عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): إن العبد ليُحبس على ذنب من ذنوبه مائة عام وإنه لينظر

(١) بحار الأنوار: ٣٠١/٧٨، ح ١.

إلى أزواجه في الجنة يتنعمن)[١].

إن معرفة هذه الآثار الوخيمة للذنوب توجب على كل عاقل اجتنابها، عن الإمام علي (عليه السلام): (عجبت لأقوام يحتمون الطعام مخافة الأذى كيف لا يحتمون الذنوب مخافة النار)[٢] وعن الإمام الباقر (عليه السلام): (عجبت لمن يحتمي من الطعام مخافة الداء كيف لا يحتمي من الذنوب مخافة النار)[٣].

وقد حصلنا من الروايات على جملة من تلك الآثار:

١- **قصر العمر وتعجيل الفناء** بحيث يظهر من أقوال المعصومين شيء عجيب وهو: أن أكثر الناس لا يبلغون أعمارهم المقدرة بسبب الذنوب مما يسمى بالأجل المخروم، قال أمير المؤمنين (عليه السلام): (موت الإنسان بالذنوب أكثر من موته بالأجل، وحياته بالبر أكثر من حياته بالعمر)[٤]، وقال الإمام الصادق (عليه السلام): (من يموت بالذنوب أكثر ممن يموت بالآجال، ومن يعيش بالإحسان أكثر ممن يعيش بالأعمار)[٥]، عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (تجنبوا البوائق يُمَدُّ لكم في الأعمار)[٦].

ومن الذنوب التي اشتهر أنها تعجل الفناء قطيعة الرحم، وعن رسول الله

---

(١) الكافي: ٢٧٢/٢، باب الذنوب، ح١٩.

(٢) تحف العقول: ٢٠٤.

(٣) بحار الأنوار: ٢٦٩/٦٢، ح ٦٠.

(٤) سفينة البحار: ٢١٧/٣، بحار الأنوار: ٨٣/٧٨.

(٥) سفينة البحار: ٢١٧/٣، بحار الأنوار: ١٤٠/٥.

(٦) عيون أخبار الرضا: ٣٦/٢.

(صلى الله عليه وآله): (ثلاثة من الذنوب تعجل عقوبتها ولا تؤخَّر إلى الآخرة، عقوق الوالدين، والبغي على الناس، وكفر الإحسان)[١].

٢- إن الذنوب سبب للمصائب والآلام والنكبات التي يتعرض لها الفرد والمجتمع، في الكافي عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (أما إنه ليس من عرق يُضرب ولا نكبة ولا صداع ولا مرض إلا بذنب، وذلك قول الله عز وجل في كتابه: [وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ] (الشورى: ٣٠) ثم قال (عليه السلام): (وما يعفو الله أكثر مما يؤاخذ به)[٢]، وفي الكافي عن الإمام الصادق (عليه السلام) أنه قال: (إن أحدكم ليكثر به الخوف من السلطان وما ذلك إلا بالذنوب فتوقوها ما استطعتم ولا تمادوا فيها) وقد تستحدث لهم بلاءات لم يكن يعرفونها من قبل، في الكافي عن الإمام الرضا (عليه السلام) قال: (كلما أحدث العباد من الذنوب ما لم يكونوا يعملون أحدث الله لهم من البلاء ما لم يكونوا يعرفون)[٣].

٣- إنها توجب اسوداد القلب وانغلاقه فلا يستجيب للهداية، في الكافي عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (كان أبي يقول: ما من شيء أفسد من خطيئة، إن القلب ليواقع الخطيئة فلا تزال به حتى تغلب عليه فيصير أعلاه

---

(١) ميزان الحكمة: ٣٨٣/٣، ح٦٨٥٧.

(٢) أصول الكافي: ٢٦٩/٢، باب الذنوب، ح٣، وللمزيد من الاطلاع راجع قائمة بالذنوب التي تغيّر النعم والتي تنزل النقم والتي تهتك العصم والتي تعجل الفناء والتي ترد الدعاء في بحار الأنوار: ٣٧٥/٧٣-٣٧٦ عن معاني الأخبار للصدوق: ٢٧٠-٢٧١.

(٣) الكافي: ٢٧٢/٢، باب الذنوب، ح٢٩.

أسفله)[١] أي يصبح كالإناء المقلوب فلا يحتفظ بشيء من الحق والهدى ولا تؤثر فيه الموعظة، وفيه عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (إذا أذنب الرجل خرج في قلبه نكتة سوداء فإن تاب انمحت وإن زاد زادت حتى تغلب على قلبه فلا يفلح بعدها أبداً) وشاهده من كتاب الله قوله تعالى: [كَلا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ] (المطففين:١٤).

٤- **نقص الرزق**، في الكافي عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: (إن العبد ليذنب الذنب فيُزوى -أي يقبض ويصرف- عنه الرزق)[٢] وعن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: (قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): إذا غضب الله عز وجل على أمة ولم يُنزل بها العذاب غلت أسعارها وقصرت أعمارها ولم تربح تجّارها ولم تُزك ثمارها ولم تغزر أنهارها وحبس عنها أمطارها وسُلّط عليها شرارها)[٣].

٥- **الحرمان من الطاعات** خصوصاً المهمة منها كصلاة الليل أو النوم عن صلاة الصبح، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (إن الرجل يذنب الذنب فيُحرم من صلاة الليل وإن العمل السيئ أسرع في صاحبه من السكين في اللحم)[٤].

٦- **زوال النعم**، قال تعالى: [إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ] (الرعد:١١) في الكافي عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (إن الله قضى

(١) أصول الكافي: ٢٦٨/٢، باب الذنوب، ح١.

(٢) أصول الكافي: ٢٦٨/٢، باب الذنوب، ح ٨.

(٣) ثواب الأعمال: ٣٠٥، الخصال: ٣٦٠/٢، الباب ٧، ح ٤٨.

(٤) أصول الكافي: ٢٦٨/٢، باب الذنوب، ح ١٦.

قضاءً حتماً ألا ينعم على العبد بنعمة فيسلبها حتى يحدث العبد ذنباً يستحق بذلك النقمة)[١] وعنه (عليه السلام): (إن الله عز وجل بعث نبياً من أنبيائه إلى قومه وأوحى إليه أن قل لقومك إنه ليس من أهل قرية ولا ناس كانوا على طاعتي فأصابهم فيها سراء فتحولوا عما أحب إلى ما أكره إلا تحولت لهم عما يحبون إلى ما يكرهون، وليس من أهل قرية ولا أهل بيت كانوا على معصيتي فأصابهم فيها ضراء فتحولوا عما أكره إلى ما أحب إلا تحولت لهم عما يكرهون إلى ما يحبون).

وضرب القرآن الكريم مثلاً في سبأ[٢] [لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ، فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ، ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلا الْكَفُورَ، وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّاماً آمِنِينَ، فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ، وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ

---

(١) أصول الكافي: ٢٧٣/٢، باب الذنوب، ح٢٢.

(٢) بيان الشاهد: أنه كان لأهل سبأ بساتين ورياض غنّاء عن يمين بلادهم وشمالها وطلب منهم ربّهم أن يشكروا نعمه فأعرضوا فأرسل عليهم سيلاً من المطر الشديد والجرذ الذي نقب السد جزاءً لتمردهم، وجعل لهم على طول المسافة بينهم وبين الشام قرىً ليستريحوا ويتزودوا لسفرهم فكانوا يقيلون في قرية ويبيتون في أخرى حتى يصلوا آمنين من المخاوف والمضار فقال العصاة: باعد بين أسفارنا أي أزل القرى واجعل المسافات شاسعة في الصحراء ليصعب على غير التجار والمتمولين والمترفين السفر والتجارة ويحرموا الفقراء ويتباهون عليهم باتخاذ المراكب.

إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلا فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ] (سبأ: ١٥-٢١).

وقد ورد في الأحاديث الشريفة أن من الذنوب التي تغيِّر النعم وتعجِّل عقوبتها البغي على الناس.

٧- **عدم استجابة الدعاء والإبطاء في تحقيق ما يطلبه الداعي**، قال الباقر (عليه السلام): (إن العبد ليسأل الحاجة من حوائج الدنيا فيكون من شأن الله قضاؤها إلى أجل قريب أو وقت بطيء فيذنب العبد عند ذلك ذنباً فيقول الله للملَك الموكَّل بحاجته لا تنجز له حاجته واحرمه إياها فإنه تعرَّض لسخطي واستوجب الحرمان مني)[1].

٨- **نكد الحياة وشقاؤها وتعاستها**، قال تعالى: [وَمَن أَعرَضَ عَنْ ذِكرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحشُرُهُ يَومَ القِيَامَةِ أعمَى] (طه:١٢٤) وقال تعالى: [وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ، وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ، حَتَّى إِذَا جَاءنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ، وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ] (الزخرف: ٣٦-٤٠) فمن يتعامى عن الحق واتباعه يخلّي الله تعالى بينه وبين شيطانه يغويه ويصده (عليه السلام) سبيل الله ويكون ملازماً له فيشقيه ويتعبه [وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاء فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ

(١) الاختصاص: ٣١.

الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ] (فصلت: ٢٥).

٩- تشوّش الفكر وانشغال الذهن وسوء الحفظ والحرمان من العلم النافع المقرِّب إلى الله تعالى، بسبب الصراع الذي يعيشه ووخز الضمير وخوف الفضيحة والعقاب، والذلة الباطنية التي يحسّ بها، ولحرمانه من لطف الله تعالى، روي عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قوله: (اتقوا الذنوب فإنها ممحقة للخيرات، إن العبد ليذنب الذنب فينسى به العلم الذي كان قد علمه)[١]، وهو ما عبّر عنه الشاعر:

شكوتُ إلى حكيمٍ سوء حفظي فأرشدني إلى ترك المعاصي

وعـلّله بـأن العـلـم نـورٌ ونور الله لا يـؤتى لعاصـي

١٠- ويعم أثر الذنوب حتى يتضرر به الآخرون وربما المجتمع كله، قال تعالى: [وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً] (الأنفال: ٢٥)، وروي عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قوله: (الذنب شؤم على غير فاعله، إن عيَّره ابتلي، وإن اغتابه أثم، وإن رضي به شاركه)[٢].

والخلاصة:

أنه إذا أراد الإنسان أن يوفقه الله تعالى للمزيد من طاعته فليترك الذنوب.

وإذا أراد أن يحيى حياة مطمئنة سعيدة صافي البال فليترك الذنوب.

وإذا أراد طول العمر بخير وعافية وسعة رزق فليترك الذنوب.

وإذا أراد أن تدوم عليه نعم الله وتقل عليه المصائب فليترك الذنوب.

---

(١) بحار الأنوار: ٣٧٧/٧٣، ح١٤.

(٢) منتخب ميزان الحكمة: ح٢٤٢٠.

وإذا أراد سلامة القلب واللحاق بالصالحين فليترك الذنوب.

ولذا كان يوم العيد الحقيقي هو كل يوم لم تجترح فيه ما يكرهه الله تبارك وتعالى، قال أمير المؤمنين (عليه السلام) في بعض الأعياد: (إنما هو عيدٌ لمن قبِل الله صيامه وشكر قيامه، وكل يوم لا يعصى الله فيه فهو عيد)[1].

العواصم من الذنوب:

وعلى رأس العواصم من الذنوب –وهو الأصل فيها– **اللطف الإلهي الذي به عصم الله تعالى** أنبياءه ورسله والصالحين من عباده قال تعالى: [وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ] (يوسف:٢٤)، وقال تعالى: [وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً] (الإسراء: ٧٤).

في رواية عن الإمام الباقر (عليه السلام) قال: (إن الله تبارك وتعالى أوحى إلى داوود النبي (عليه السلام) أن ائت عبدي دانيال فقل له: إنك عصيتني فغفرت لك وعصيتني فغفرت لك، وعصيتني فغفرت لك، فإن أنت عصيتني الرابعة لم أغفر لك، قال: فأتاه داوود (عليه السلام) فقال له: يا دانيال، إني رسول الله إليك وهو يقول لك: إنك عصيتني فغفرت لك وعصيتني فغفرت لك، وعصيتني فغفرت لك، فإن أنت عصيتني الرابعة لم أغفر لك. فقال له دانيال: قد بلغت يا نبي الله.

قال: فلما كان في السَحَر قام دانيال وناجى ربه فقال: يا رب إن داوود نبيك أخبرني عنك: إني عصيتك فغفرت لي، إني عصيتك فغفرت لي، وأخبرني عنك

(١) نهج البلاغة: الحكمة ٤٢٨.

أني إن عصيتك الرابعة لم تغفر لي، فوعزتك لأعصينك ثم لأعصينك، ثم لأعصينك، إن لم تعصمني)[١]، أي: يا رب إنك إن وكلتني إلى نفسي فإني لا أستطيع أن أعصمها من الذنوب إلا أن تعصمني أنت برحمتك.

ومن العواصم الدعاء والذكر واليقظة كلما اعترته، قال تعالى: [إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ] (النحل:٩٩)، قال أمير المؤمنين (عليه السلام): (أكثر الدعاء تسلم من سَورة الشيطان)[٢]، وقال (عليه السلام): (تحرّز من إبليس بالخوف الصادق)[٣].

(ومنها) تجنب الحضور والتواجد في الأجواء المساعدة على المعصية لقطع منافذ الشيطان والنفس الأمارة بالسوء بحيث يصبح ارتكاب المعصية متعذراً، عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: (ثلاث من حفظهن كان معصوماً من الشيطان الرجيم ومن كل بليةٍ: من لم يخلُ بامرأة ليس يملك منها شيئاً، ولم يدخل على سلطان، ولم يُعِن صاحب بدعة ببدعته)[٤]؛ والإكثار من الوجود في المساجد ومجالس الصالحين فإنها تمنع من الوقوع في الذنب، قال علي (عليه السلام): (من العصمة تعذر المعاصي)[٥]، وعنه (عليه السلام): (من اختلف إلى المساجد أصاب

(١) بحار الأنوار: ٣٦٢/٧٣، ح٩٠.

(٢) بحار الأنوار: ج٩/٧٨، ح٦٤.

(٣) بحار الأنوار: ٦٤/٧٨، ح١

(٤) بحار الأنوار: ١٩٧/٧٤، ح٣٢.

(٥) نهج البلاغة: ٥٣٥، الحكمة ٣٤٥.

إحدى الثمان: ... أو يترك ذنباً خشيةً أو حياءً)[١].

(ومنها) المراقبة والمحاسبة الدقيقة والمستمرة للنفس، والأحاديث الآمرة بذلك كثيرة، روى الشيخ الطوسي (قُدِّسَ سِرُّهُ) في كتاب الغيبة بسنده إلى أبي هاشم الجعفري قال: (سمعت أبا محمد (عليه السلام) يقول: من الذنوب التي لا تغفر قول الرجل: ليتني لا أؤاخذ إلا بهذا، فقلت في نفسي: إن هذا لهو الدقيق ينبغي للرجل أن يتفقد من أمره ومن نفسه كل شيء، فأقبل عليَّ أبو محمد (عليه السلام) فقال: يا أبا هاشم صدقت فالزم ما حدثت به نفسك فإن الإشراك في الناس أخفى من دبيب الذر على الصفا في الليلة الظلماء ومن دبيب الذر على المسح الأسود)[٢].

(ومنها) استعظام الذنب واستفضاع عاقبته، روي عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قوله: (إن الله تبارك وتعالى إذا أراد بعبدٍ خيراً جعل ذنوبه بين عينيه ممثلة والإثم عليه ثقيلاً وبيلاً، وإذا أراد بعبدٍ شراً أنساه ذنوبه)[٣].

وعنه (صلى الله عليه وآله): (إن المؤمن ليرى ذنبه كأنه تحت صخرة يخاف أن تقع عليه، والكافر يرى ذنبه كأنه ذباب مرَّ على أنفه).

(ومنها) عدم الإعجاب بالنفس، وما يصدر منها من طاعات؛ لأن ذلك يوجب إيكال العبد إلى نفسه فيذنب حتى يكون له واعظاً ومؤدباتً من نفسه، في الكافي بسنده عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (إن الله علم أن الذنب خير للمؤمن من

---

(١) الخصال: ج٢، باب الثمانية، ح١٠.

(٢) بحار الأنوار: ٣٥٩/٧٣، ح٧٨.

(٣) والذي بعده تجدهما في ميزان الحكمة: ٣٧٥/٣، ح ٦٧٩٤، ٦٧٩٥.

العجب ولولا ذلك ما ابتلي مؤمن بذنب أبداً)[١].

مكفرات الذنوب:

إن الله تعالى يعلم ضعف العبد عن مسك زمام نفسه الأمّارة بالسوء ومقاومة غواية الشيطان وتزيين الشهوات ويعلم بجهل الإنسان بعواقب أفعاله، وهو أشفق على عباده وأرحم بهم من أنفسهم، وأكرم من أن يقابلهم على سيئاتهم بمثلها، قال تعالى: [وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيراً] (فاطر:٤٥)، قال الإمام الصادق (عليه السلام): (وما يعفو الله أكثر مما يؤاخذ به)[٢]، في تفسير قوله تعالى: [وَمَا أَصَابَكُم مِن مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَت أَيدِكُم وَيَعفُو عَن كَثِيرٍ] (الشورى: ٣٠).

فضاعف سبحانه وتعالى لهم الحسنات وتمهل في تسجيل السيئات، في الخصال عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (إذا همّ العبد بحسنة كتبت له حسنة، فإذا عملها كتبت له عشر حسنات، وإذا همّ بسيئة لم تكتب عليه فإذا عملها أُجّل تسع ساعات فإن ندم عليها واستغفر وتاب لم تكتب عليه وإن لم يندم ولم يتب كتبت عليه سيئة واحدة)[٣]، وفي رواية أخرى: قال الله تبارك وتعالى: (قد جعلت لهم التوبة أو بسطت لهم التوبة حتى تبلغ النفس الحنجرة، قال يا ربّ حسبي)[٤] أي

(١) أصول الكافي: ٣١٣/٢، باب العجب، ح١.

(٢) أصول الكافي: ٢٦٩/٢، باب الذنوب، ح٣.

(٣) الخصال: ٤١٨/٢، باب التسعة، ح١١.

(٤) بحار الأنوار: ٢٤٩/٧١، ح١١.

قال آدم (عليه السلام) حسبي تلك الفضائل لذريتي مما كان للشيطان من التأثير عليهم.

ثم لم يكتف سبحانه بكرمه ورحمته بذلك بل جعل لهم مكفرات لذنوبهم حتى يخفف عنهم أوزارهم التي احتملوها على ظهورهم بسوء أفعالهم ويلاحظ على تلك المكفرات أن بعضها اختيارية وبعضها غير اختيارية، فالاختيارية أفعال ينبغي للإنسان أن يقوم بها ليكفّر بها عن سيئاته وإن لم يفعل ابتلي بغير الاختيارية وهي أشق عليه، لذا ورد في بداية دعاء أبي حمزة الثمالي عن الإمام السجاد (عليه السلام): (إلهي لا تؤدبني بعقوبتك)، أما غير الاختيارية –كالأمراض– فهي أمور تعرض للإنسان بسبب منه أو من غيره فيعتبرها الله تعالى بكرمه كفارة لذنوب من تعرض لها، فعلى الإنسان أن يسعى بجد في طلب المغفرة والتكفير عن ذنوبه بالأسباب الاختيارية، وأن لا يجزع إذا حصل له ما يكفّر الذنوب، فإن بقاء ذنب واحد عليه إلى يوم القيامة كافٍ لفضيحته وإيلامه.

لذا ورد في أدعية شهر رمضان الاستعاذة من انقضائه أو انقضاء الليلة التي هو فيها وقد بقي عليه ذنب أو تبعة يؤاخذه بها: (إلهي وأعوذ بوجهك الكريم وبجلالك العظيم أن ينقضي أيام شهر رمضان ولياليه ولك قبلي تبعة أو ذنب تؤاخذني به أو خطيئة تريد أن تقتصها مني لم تغفرها لي سيدي سيدي سيدي)[1].

من وصايا النبي (صلى الله عليه وآله) لابن مسعود: (يا ابن مسعود: لا تحقرن ذنباً ولا تصغّرنّه، واجتنب الكبائر، فإن العبد إذا نظر يوم القيامة إلى ذنوبه دمعت عيناه قيحاً ودماً، يقول الله تعالى: [يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَراً وَمَا

(١) من أدعية العشر الأواخر في شهر رمضان.

عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً] (آل عمران:٣٠)، يا ابن مسعود: إذا قيل لك: (اتقِ الله) فلا تغضب فإنه يقول: [وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ] (البقرة:٢٠٦))[1].

أما مكفرات الذنوب فهي:

١- **التوبة والاستغفار بصدق:** والتي تتضمن بحسب بيان أمير المؤمنين (عليه السلام) لمعنى الاستغفار الندم على ما صدر منه وعقد العزم بصدق على عدم العود ورد المظالم إلى أهلها وتدارك ما فاته من التقصير، وحينئذٍ يكفّر الله سيئاته وينسي الملائكة الحافظين ما كتبوا وكل الشهود بما فيهم جوارحه ويمحو عنه آثار تلك الذنوب والخطايا، ويكتب له بدل ذلك كله حسنات، قال تعالى: [إِلا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً] (الفرقان:٧٠).

٢- **القيام بالأعمال الصالحة والطاعات:** قال تعالى: [وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ] (هود:١١٤) [ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً] (الطلاق:٥).

قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (إذا عملت سيئة فاعمل حسنة تمحها)[2]، وعنه (صلى الله عليه وآله): (أوصيكم بتقوى الله .. وارحضوا بها ذنوبكم وداووا بها أسقامكم).

---

(١) بحار الأنوار: ١٠١/٧٧.

(٢) الحديثان تجدهما في ميزان الحكمة: ٣٨٧/٣-٣٨٨، ح٦٨٩٣، ٦٨٩٥.

وورد هذا الأثر في أعمال كثيرة كزيارة الحسين (عليه السلام) وإحياء ليلة القدر وصوم بعض الأيام المعينة وبعض الصلوات المستحبة، وهي مذكورة في كتب السنن والمستحبات، نذكر منها ما روي عن الإمام موسى بن جعفر (عليه السلام) قال: (ثلاث ليالي من زار فيها الحسين (عليه السلام) غفر الله ما تقدم من ذنبه وما تأخر: ليلة النصف من شعبان والليلة الثالثة والعشرون من رمضان وليلة العيد) وورد في صوم ثلاث أيام الخميس والجمعة والسبت من الأشهر الحرم وهي (محرم ورجب وذو القعدة وذو الحجة) أنها كفارة ذنوب تسعمائة عام وهكذا.

٣- **الصلاة في أوقاتها:** عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (لو كان على باب أحدكم نهر فاغتسل منه كل يوم خمس مرات هل كان يبقى على جسده من الدرن شيء؟ إنما الصلاة مثل النهر الذي ينقي، كلما صلى صلاة كان كفارة لذنوبه إلا ذنب أخرجه من الإيمان مقيم عليه)[١].

وننبه دائماً إلى أن مثل هذه الأمور تلحظ مع شروطها كقول رسول الله (صلى الله عليه وآله): (لو صلّيتم حتى تكونوا كالأوتار، وصمتم حتى تكونوا كالحنايا لم يقبل الله منكم إلا بورع)[٢]، وكقول الإمام الصادق (عليه السلام): (من صلّى ركعتين يعلم ما يقول فيهما، انصرف وليس بينه وبين الله ذنب)[٣].

٤- **الابتلاءات والمصائب والمصاعب في الدنيا:** قال رسول الله

(١) بحار الأنوار: ٢٣٦/٨٢، ح٦٦.

(٢) بحار الأنوار: ٢٥٨/٨٤، ح٦٥.

(٣) الكافي: ٢٢٦/٣، ح١٢.

(صلى الله عليه وآله): (إن المؤمن إذا قارف الذنوب ابتلي بها بالفقر، فإن كان في ذلك كفارة لذنوبه وإلا ابتلي بالمرض، فإن كان في ذلك كفارة لذنوبه وإلا ابتلي بالخوف من السلطان يطلبه، فإن كان في ذلك كفارة لذنوبه وإلا ضيق عليه عند خروج نفسه، حتى يلقى الله حين يلقاه وما له من ذنب يدعيه عليه فيأمر به إلى الجنة)[١].

وعن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (إذا أراد الله بعبد خيراً عجّل عقوبته في الدنيا، وإذا أراد بعبد سوءاً أمسك عليه ذنوبه حتى يوافي بها يوم القيامة)[٢].

٥- **رعاية حرمة شهر رمضان:** من دعاء الإمام السجاد (عليه السلام) في وداع شهر رمضان (السلام عليك ما كان أمحاك للذنوب وأسترك لأنواع العيوب) (السلام عليك كما وفدت علينا بالبركات وغسلت عنا دنس الخطايا) حتى روي عن النبي (صلى الله عليه وآله) أنه قال: (سمّي شوال شوالاً لأنّ فيه شالت -أي ارتفعت وذهبت- ذنوب المؤمنين فلم يبق فيه ذنب إلا غفره الله تعالى ببركة صيام شهر رمضان فإن أجر كل أجير يعطى عند ختمه للعمل)[٣].

٦- **الأمراض:** قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (السقم يمحو الذنوب)[٤]، وقال (صلى الله عليه وآله): (ساعات الوجع يذهبن ساعات الخطايا)، وقال (صلى الله عليه وآله): (حمى ليلة كفارة سنة).

---

(١) ميزان الحكمة: ٣٨٥/٣، ح٦٨٦٩.

(٢) ميزان الحكمة: ٣٨٥/٣، ح٦٨٧٣.

(٣) مصابيح الجنان: ٥٩٩ عن السيد في الإقبال.

(٤) الأحاديث الثلاثة في ميزان الحكمة: ٣٨٦/٣، ح٦٨٧٦، ٦٨٧٧، ٦٨٦٨.

٧- **الأحزان والهموم:** قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (إذا كثرت ذنوب المؤمن ولم يكن له من العمل ما يكفرها ابتلاه الله بالحزن ليكفرها به عنه)[١]، وقال (صلى الله عليه وآله): (ساعات الهموم ساعات الكفارات، ولا يزال الهم بالمؤمن حتى يدعه وما له من ذنب).

٨- **إتيان المساجد:** عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (عليكم بإتيان المساجد، فإنها بيوت الله في الأرض، ومن أتاها متطهراً طهره الله من ذنوبه وكتب من زوّاره، فأكثروا فيها من الصلاة والدعاء)[٢].

٩- **العفو والصفح عن أخطاء الآخرين وتقصيراتهم:** لأن هذه من أخلاق الله تبارك وتعالى وهو يجازي من اتصف بها بأكثر منها، قال تعالى: [وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ] (النور:٢٢)، روي عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قوله: (من عفا عند المقدرة عفا الله عنه يوم العسرة)[٣]، ولكن مع الالتفات إلى معنى العفو ومنه ما قاله أمير المؤمنين (عليه السلام): (ما عفا عن الذنب من قرَّع به)[٤]. وفي دعاء الإمام السجاد (عليه السلام): (اللهم إنك أنزلت في كتابك العفو وأمرتنا أن نعفو عمن ظلمنا وقد ظلمنا أنفسنا فاعفُ عنا فإنك أولى بذلك منا)[٥].

---

(١) الحديثان تجدهما في ميزان الحكمة: ٣/٣٨٦-٣٨٧، ح٦٨٨٥، ٦٨٨٨.

(٢) منتخب ميزان الحكمة: ٣٠٧، ح٢٩٢٨.

(٣) منتخب ميزان الحكمة: ٤٣٩، ح ٤٣٢٩.

(٤) غرر الحكم: ٩٥٦٧.

(٥) من دعاء أبي حمزة الثمالي.

١٠- اتباع رسول الله (صلى الله عليه وآله) والاستنان بسنته الشريفة في الأفعال والأقوال: قال تعالى: [قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ] (آل عمران:٣١).

١١- إغاثة الملهوف: قال أمير المؤمنين (عليه السلام): (من كفارات الذنوب العظام: إغاثة الملهوف والتنفيس عن المكروب)[١].

١٢- كفارات خاصة: إن بعض الذنوب والتقصيرات لها كفارات خاصة، فقد روي عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قوله: (إن من الذنوب ذنوباً لا يكفّرها صلاة ولا صوم، قيل يا رسول الله، فما يكفرها؟ قال: الهموم في طلب المعيشة)[٢].

وما ورد في القول المشهور: (كفارة عمل السلطان الإحسان إلى الإخوان).

وما في قول النبي (صلى الله عليه وآله): (من الذنوب ذنوب لا تغفر إلا بعرفات)[٣].

ومن الكفّارات الخاصة ما ورد عند القيام من أي مجلس أو انفضاض أي لقاء أو اجتماع كان مشوباً بالغفلة عن الله تعالى فيقول: [سُبحَانَ ربِّكَ رّبِّ العِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ، وَسَلامٌ عَلَى المُرسَلِينَ، وَالحَمدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ].

١٣- حسن الخُلُق: قال الإمام الصادق (عليه السلام): (إن حسن الخلق يذيب الخطيئة كما تذيب الشمس الجليد، وإن سوء الخلق ليفسد العمل كما يفسد الخل

(١) ميزان الحكمة: ٣٨٨/٣، ح٦٨٩٩.

(٢) ميزان الحكمة: ٣٨٧/٣، ح٦٨٨٦.

(٣) ميزان الحكمة: ٣٨٩/٣، ح٦٩٠٢.

العسل)[١].

١٤- **كثرة السجود:** قال الإمام الصادق (عليه السلام): (جاء رجل إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) فقال: (يا رسول الله كثرت ذنوبي وضعف عملي، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): أكثر من السجود فإنه يحط الذنوب كما تحط الريح ورق الشجر)[٢].

١٥- **الحج والعمرة:** قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما، والحجة المتقبلة ثوابها الجنة، ومن الذنوب ذنوب لا تغفر إلا بعرفات)[٣]، وعن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: (إن أفضل ما توسل به المتوسلون إلى الله .. حج البيت واعتماره، فإنهما ينفيان الفقر ويرحضان الذنب).

١٦- **افتتاح صحيفة العمل واختتامها بالخير:** قال الإمام زين العابدين (عليه السلام): (إن الملك الموكل على العبد يكتب في صحيفة أعماله فأملوا بأولها وآخرها خيراً يغفر لكم ما بين ذلك)[٤].

١٧- **الصلاة على محمد وآله:** قال الإمام الرضا (عليه السلام): (من لم يقدر على ما يكفر به ذنوبه فليكثر من الصلاة على محمد وآله فإنها تهدم الذنوب هدماً)[٥].

---

(١) ميزان الحكمة: ٣٨٨/٣، ح٦٨٩٨.

(٢) ميزان الحكمة: ٣٨٩/٣، ح٦٩٠١.

(٣) الحديثان تجدهما في ميزان الحكمة: ٣٨٩/٣، ح٦٩٠٢، ٦٩٠٣.

(٤) ميزان الحكمة: ٣٨٩/٣، ح٦٩٠٤.

(٥) ميزان الحكمة: ٣٨٩/٣، ح٦٩٠٥.

١٨- **سكرات الموت:** قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (الموت كفارة لذنوب المؤمنين)[١].

١٩- **الصدقة:** قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (الصدقة تطفئ غضب الرب)[٢]، وقال الإمام الصادق (عليه السلام): (إن صدقة الليل تطفئ غضب الرب، وتمحو الذنب العظيم).

(١) ميزان الحكمة: ٣٨٩/٣، ح٦٩٠٦.

(٢) منتخب ميزان الحكمة: صفحة ٢٩٢، ح ٣٥١٨.

تطبيق: كيفية الاعتصام من الذنوب[١]

سألني أحدكم أن أتحدث عن كيفية المحافظة على حالة التوبة والاعتصام من الذنوب التي يتوجه إليها الإنسان في يوم عرفة يوم الدعاء وطلب التوبة، وقد ذكّرني سؤاله بفقرة وردت في أحد أدعية شهر رجب[٢] وهي (واعصمنا من الذنوب خير العصم) وهذا يعني وجود أشكال عديدة من العواصم عن الذنوب بعضها خير من بعض، وهو معنىً صحيح إذا التفتنا إلى أنَّ من العواصم أن يفقد الإنسان النعمة التي يرتكب بها الذنب كفقد نعمة البصر فيتخلص من النظرة المحرمة، أو يفقد الإحساس بالشهوة الجنسية التي هي نعمة أودعها الله تبارك وتعالى في الإنسان ليدفعه نحو الزواج والإنجاب ولولاها لما أقدم البعض على تحمل مسؤولية الأسرة والأطفال ومشاق التربية والرعاية، فإذا فقد هذه النعمة فستزول تلقائياً فرصة ارتكاب جريمة الزنا والعياذ بالله تعالى.

لكن الإنسان لا يريد بالتأكيد هذه الطريقة من الاعتصام من الذنوب لأنه يدعو الله تبارك وتعالى أن يمتعه بالعافية وبحواسه من السمع والبصر وغيرهما (اللهم متعني بسمعي وبصري واجعلهما الوارثين)..إلخ.

---

(١) من حديث سماحة الشيخ اليعقوبي مع حشد من طلبة كلية العلوم/ جامعة ذي قار الذين التقوا سماحته يوم الخميس ٨ ذو الحجة ١٤٣٠ المصادف ٢٠٠٩/١٠/٢٧ قبل توجههم إلى كربلاء لزيارة الإمام الحسين (عليه السلام) يوم عرفة، ووردت بعض الفقرات في حديث سماحته مع وفود من كلية الهندسة / جامعة ذي قار يوم الجمعة ٢/ذ.ح/ ومن كلية الهندسة جامعة البصرة يوم ٣ ذ.ح.

(٢) وهو الدعاء الوارد عن الإمام المهدي (عجل الله تعالى فرجه الشريف) بواسطة سفيره محمد بن عثمان بن سعيد وأوله (اللهم إني أسألك بمعاني...) إلخ.

ومع ذلك قد تكون هذه الطريقة هي ما يختارها الله تبارك وتعالى لبعض عباده، يروى أن أبا بصير –وهو مكفوف– دخل على الإمام الصادق (عليه السلام) وسأله أن يدعو الله تبارك وتعالى ليرفع عنه البلاء ويعيد إليه بصره، فدعا الإمام (عليه السلام) له فردّ الله تعالى بصره وصار يبصر وفرح بذلك، فقال له الإمام (عليه السلام) إن شئت مضيت على حالتك الجديدة هذه وتحاسب يوم القيامة كما يحاسب الخلق أو ترجع إلى حالتك الأولى وتدخل الجنة بغير حساب، فاختار أن يعود إلى حالته الأولى ليضمن له الإمام (عليه السلام) الجنة.

وعلى أي حال فهذا شكل من أشكال الاعتصام من الذنوب، ومن الأشكال الأخرى أن يكون للإنسان رادع من نفسه عن الذنوب أما حياءً من الله تعالى لما انعم عليه من النعم التي لا تعد ولا تحصى، أو خوفاً منه عز وجل، أو خشية الفضيحة والعار خصوصاً يوم القيامة عندما تعرض الأعمال أمام الأشهاد وتبدو السرائر، نسأل الله تعالى عفوه وستره، وهذا الرادع يؤتاه الإنسان بفضل الله تبارك وتعالى حينما يخلص لله تعالى ويكون صادقاً معه ففي الحديث الشريف (إذا أحبَّ الله عبداً جعل له واعظاً من نفسه وزاجراً من قلبه يأمره وينهاه)[1].

ومن العواصم عن الذنوب ذكر الله تعالى على كل حال والتفات الإنسان إلى أنه دوماً في محضر ربّه وإن ربّه مطّلع عليه [أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ] [مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ] [مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلا أَحْصَاهَا] فمع حالة الالتفات هذه لا يُقدم الإنسان على الذنب

(١) بحار الأنوار: ٧٠/ ٢٦

وإلا كان مستخفاً بربه، وإنما يرتكب الذنب بغفلة وجهالة فإذا التفت وتذكّر ندم وتاب [إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ].

ومن العواصم أن يلتفت الإنسان إلى قبح الذنب ونتن صورته الواقعية التي تُدرك بالبصيرة لا بالبصر كما ورد في القرآن الكريم من تصوير الغيبة بأكل لحم الأخ ميتاً وهي صورة مقززة تنفر منها النفوس، وكتصوير الدنيا في كلام أمير المؤمنين (عليه السلام) بالجيفة لميتة الحيوان وحولها الكلاب تنهشها وتقطعها فمن يرضى أن يشارك الكلاب في هذه الجيفة، أو تصوير أكل الحرام بأنهم [يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً] أو تصوير حبس الحقوق الشرعية والبخل بها بأنها [يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَـذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ] (التوبة : ٣٥) وغيرها من الصور المرعبة التي وردت في الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة فكيف يُقدم عليها الإنسان بعد معرفته بحقيقتها؟

ومن العواصم أن يبتعد عن البيئة المساعدة لارتكاب الذنوب كمجالس البطالين والفسقة ويتواجد في البيئة المحفزة على الطاعة كالمساجد والمشاهد المقدسة ومجالس الذكر والشعائر الدينية ولا أقل من أن يشغل الإنسان نفسه بالمباحات والأعمال الأخرى فضلاً عن الطاعات كالدراسة ومطالعة الكتب واللقاء مع الإخوان وحينئذٍ لا يبقى مجال ولا فرصة للمعصية والذنب لأن من أسباب ارتكابها الفراغ، قال الشاعر:

إن الشباب والفراغ والجِدَة مفسدة للمرء أي مفسدة

ولله تبارك وتعالى مع أوليائه حالات من العصمة عن الذنوب لا يعرفها إلا أهلها، ولا يُنال كل ذلك إلا بالاعتصام بالله تعالى والتوسل إليه بطلب التسديد كما ورد في الدعاء (اللهم ارزقني توفيق الطاعة وبعد المعصية).

القبس القرآني

٧٦

(ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ)[1] [غافر : ٦٠]

الدعاء: فضله وظروف استجابته

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا أبي القاسم محمد وآله الطاهرين.

الأعمال بآثارها وخواتيمها:

روي عن الإمام الصادق (عليه السلام) أنه قال: (من أحبَّ أن يعلم قُبلت صلاته أم لم تقبل، فلينظر هل منعته صلاته عن الفحشاء والمنكر؟ فبقدر ما منعته قُبلت صلاته)[2].

والإمام (عليه السلام) ناظر إلى قوله الله تبارك وتعالى: [أُتلُ مَا أُوحِيَ إِلَيكَ مِن الكِتَابِ وَأَقِمِ الصَلاةَ إِنَّ الصَلاةَ تَنهَى عَنِ الفَحشَاءِ وَالمُنكَرِ وَلَذِكرُ اللهِ أَكبَرُ وَاللهُ يَعلَمُ مَا تَصنَعُون] (العنكبوت: ٤٥).

وروي عن رسول الله (صلى الله عليه وآله): (من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعداً).

وروي أن فتىً من الأنصار كان يصلي الصلوات مع رسول الله (صلى الله عليه وآله) ويرتكب الفواحش فوُصِف ذلك لرسول الله (صلى الله عليه وآله) فقال: (إن صلاته تنهاه يوماً

---

(١) الخطبة الأولى لصلاة عيد الأضحى المبارك للعام ١٤٢٩ المصادف ٢٠٠٨/١٢/٩.

(٢) هذا الحديث والذي يليه من البحث الروائي الملحق بتفسير الآية (٤٥) من سورة العنكبوت في كتاب الميزان في تفسير القرآن.

ما)[١].

فقيمة العمل تقاس بما يحقق من الغرض الذي جُعل من أجله، وبمقدار ما يحسن من العمل ويرتب عليه الآثار المرجوّة تزداد قيمة العمل وتزداد تبعاً له قيمة الإنسان العامل نفسه وإلا فلا قيمة للعمل، قال أمير المؤمنين (عليه السلام): (قيمة كل امرئٍ ما يحسنه)[٢].

تحصيل التقوى هو الغرض من التشريع:

والمتتبع لأغراض الشارع المقدس من جعل الأعمال والتكاليف يجد أن الهدف هو تحصيل ملكة التقوى وذكر الله تبارك وتعالى ومراقبته في السر والعلن، كما تقدم في أثر الصلاة على سلوك الإنسان، وقال الله تبارك وتعالى في الصوم: [يَا أَيُّهَا الَذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيكُمُ الصِيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلى الذِينَ مِن قَبلِكُم لَعَلَّكُم تَتَّقُونَ] وقال عز من قائل في الهدي الذي يتقرب به الحاج: [لَنْ يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُها وَلَكِن يَنَالُه التَقوَى مِنكُم] وقال تعالى في عموم الشعائر من حج وغيره: [ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّم شَعَائِرَ اللهِ فإنَّهَا مِن تَقوَى القُلُوبِ] حتى في المعاملات فإن الله تبارك وتعالى يذكّر عباده بالتقوى ففي سورة الطلاق المؤلفة من اثنتي عشرة آية وردت مفردة التقوى خمس مرات.

وهذا التركيز على التقوى لأنها خير وسيلة لتحصيل الكمال والفوز والفلاح قال تعالى: [وَتَزَوَّدُوا فإن خَيرَ الزَادِ التَقوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الألبَابِ] وقال تعالى:

---

(١) البحار: ج٧٩ ص١٩٨.

(٢) نهج البلاغة: الحكمة: ٨١.

[إِنَّ اللهَ مَعَ الذِينَ اتّقَوا وَالذينَ هُم مُحسِنُونَ] وإذا كانت الأمور والأعمال بخواتيمها فإن الله تبارك وتعالى يقول: [وَالعَاقِبَةُ لِلمُتَّقِينَ].

يوم عرفة يوم التوبة:

وبالأمس كان يوم عرفة وهو يوم دعاء وتوبة واستغفار فإذا أردنا أن نعرف أننا ممن قبلهم الله تبارك وتعالى في ذلك اليوم واستجاب لهم وجعلهم من أهل طاعته فلا بد أن تنعكس آثار هذا اليوم على سلوكنا وتصرفاتنا بالندم عما تقدم منا مما لا يليق بوظائف العبودية لله تبارك وتعالى وعقد العزم على أن لا نعود لأمثالها وأن نبذل الوسع لرد المظالم إلى أهلها والاستحلال منهم والبدء بصفحة جديدة بفضل الله تبارك وتعالى.

ومن وسائل تحصيل التقوى بل تحقيق كل أمنية وطلب: الدعاء قال تعالى: [ادْعُونِي أستَجِبْ لَكُم] وقال تعالى: [وإذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنّي فَإنّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعوَةَ الدَاعِ إذَا دَعَانِ فَلِيَستَجِيبُوا لِي وَلْيُؤمِنُوا بِي لَعَلَّهُم يَرشُدُونَ] (البقرة: ١٨٦).

ورد عن الإمام الصادق (عليه السلام) في تفسير قوله تعالى: [مَا يَفتَحِ اللهُ لِلنَاسِ مِنْ رَحمَةٍ فَلا مُمسِكَ لَهَا] قال (عليه السلام): (الدعاء)[1].

الدعاء أيسر الوسائل إلى أعظم الخزائن:

أيها الأحبة..

هذه حقيقة نغفل عنها وهي امتلاكنا لهذه الوسيلة التي تفتح خزائن رحمة

(١) الروايات الواردة في الخطبة موجودة في كتاب بحار الأنوار، المجلد التاسع عشر، عن مصادرها الأصلية، وأصول الكافي.

الله تبارك وتعالى التي وسعت كل شيء من خلال الدعاء، تصوروا لو أن لأحدكم وسيلة إلى مسؤول كبير وشخصية ذات نفوذ وقوة فإنه سيكون حريصاً على إبقاء تلك الوسيلة والاستفادة منها، وها نحن نمتلك أيسر الوسائل إلى أعظم الخزائن وهو الدعاء، ولا نستثمره، يقول الإمام السجاد (عليه السلام): (ولو دلّ مخلوق مخلوقاً من نفسه على مثل الذي دللت عليه عبادك منك، كان موصوفاً بالإحسان ومنعوتاً بالامتثال ومحموداً بكل لسان، فلك الحمد ما وُجِد في حمدك مذهب، وما بقي للحمد لفظ تُحمد به، ومعنى ينصرف إليه)[1]، يقول الإمام الصادق (عليه السلام): (فأكثر من الدعاء فإنه مفتاح كل رحمة ونجاح كل حاجة ولا ينال ما عند الله إلا بالدعاء، فإنه ليس من باب يكثر قرعه إلا أوشك أن يُفتح لصاحبه).

وللدعاء أهمية كبرى في كتاب الله تبارك وتعالى والأحاديث الشريفة عن أهل بيت العصمة (صلوات الله وسلامه عليهم) ففي خبر صحيح عن الإمام الباقر (عليه السلام) في تفسير قول الله تبارك وتعالى: [إِنَّ الذِينَ يَستَكبِرُونَ عَن عِبَادَتِي سَيَدخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ] (غافر: ٦٠) قال (عليه السلام): (هو الدعاء وأفضل العبادة الدعاء) ويشهد لذلك صدر الآية [ادْعُونِي أَستَجِبْ لَكُم]، وفي تفسير قوله تعالى: [إِنَّ إِبرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ] (التوبة: ١٤٤) قال (عليه السلام): (الأواه هو الدَعّاء) وقال الإمام الصادق (عليه السلام): (وكان أمير المؤمنين رجلاً دَعّاءً).

وقال تعالى: [قُلْ مَا يَعبَؤ بِكُم رَبّي لَولا دُعاؤُكُم فَقَد كَذّبتُم فَسَوفَ يَكونُ لِزَاماً] (الفرقان: ٧٧) وقال تعالى: [وَاسأَلُوا اللهَ مِن فَضلِهِ، إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُلِّ شيءٍ

(١) الصحيفة السجادية، من دعائه (عليه السلام) في وداع شهر رمضان.

عَلِيماً] (النساء: ٣٢).

الدعاء لكل حاجة:

والدعاء لكل حاجة مهما صغرت ونحن في كل نفس وكل طرفة عين محتاجون إلى الله تبارك وتعالى الغني فلا نتوقف عن اللجوء إلى الله تبارك وتعالى في كل شيء حتى إذا كان تافهاً بنظرك أو أن الحصول عليه سهل يسير فقد روي عن النبي (صلى الله عليه وآله) أنه قال: (سلوا الله عز وجل ما بدا لكم من حوائجكم حتى شسع النعل فإنه إن لم ييسره لم يتيسر) وقال: (ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها حتى يسأله شسع نعله إذا انقطع) وعنه (صلى الله عليه وآله) قال: (ألا أدلّكم على سلاح ينجيكم من عدوكم ويدرّ أرزاقكم؟ قالوا: نعم، قال: تدعون بالليل والنهار فإن سلاح المؤمن الدعاء) وروي أن الإمام الكاظم سئل عما قيل: لكل داء دواء فقال (عليه السلام): (لكل داء دعاء فإذا أُلهم العليل الدعاء فقد أُذن في شفائه)، وعن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (عليكم بالدعاء فإنكم لا تتقربون بمثله ولا تتركوا صغيرة لصغرها أن تسألوها فإن صاحب الصغائر هو صاحب الكبائر).

الدعاء في كل زمان:

والدعاء في كل زمان حتى زمان اليسر والرخاء ويشتد في زمان العسر والضيق والبلاء، يروي أحد أصحاب الإمام الكاظم (عليه السلام) الثقات في شدة المحنة التي فرضها المنصور العباسي بعد استشهاد الإمام الصادق (عليه السلام) وسيفه يقطر دماً من شيعة أهل البيت يقول: (دخلت على أبي الحسن موسى (عليه السلام) بالمدينة وكان معي شيء فأوصلته إليه فقال: أبلغ أصحابك وقل لهم: اتقوا الله عز وجل فإنكم في

إمارة جبار -يعني أبا الدوانيق- فأمسكوا ألسنتكم وتوقّوا على أنفسكم وادفعوا ما تحذرون علينا وعليكم منه بالدعاء، فإن الدعاء -والله- والطلب إلى الله يرد البلاء وقد قدّر وقضي ولم يبق إلا إمضاؤه فإذا دعي الله وسئل: صُرف البلاء صرفاً، فألحوا في الدعاء أن يكفيكموه الله، قال أبو ولاّد: فلما بلّغت أصحابي مقالة أبي الحسن (عليه السلام) قال: ففعلوا ودعوا عليه وكان ذلك في السنة التي خرج فيها أبو الدوانيق إلى مكة فمات عند بئر ميمون قبل أن يقضي نسكه فأراحنا الله منه، قال الراوي: وكنت تلك السنة حاجاً فدخلت على أبي الحسن (عليه السلام) فقال: يا أبا ولاد كيف رأيتم نجاح ما أمرتكم به وحثثتكم عليه من الدعاء على أبي الدوانيق، يا أبا ولاد: ما من بلاء ينزل على عبد مؤمن فيلهمه الله الدعاء إلا كان كشف ذلك البلاء وشيكاً، وما من بلاء ينزل على عبد مؤمن فيمسك عن الدعاء إلا كان ذلك البلاء طويلاً فإذا نزل البلاء فعليكم بالدعاء).

وقد ورد عن الإمام الهادي في حق دعاء (يا من تُحَلُّ به عُقَدُ المكاره) وهو من أدعية الصحيفة السجادية: (إن آل محمد صلى الله عليهم أجمعين يدعون بهذه الكلمات عند إشراف البلاء وظهور الأعداء وخوف الفقر وضيق الصدر وغيرها).

الدعاء يمنع اليأس والإحباط:

ولمنع الإنسان من الوقوع في حالة اليأس والإحباط والقنوط والاستسلام لما يصيبه فقد نبّه الأئمة سلام الله عليهم إلى أن الدعاء يبقى مؤثراً وكفيلاً بتغيير الحال حتى لو أحكم القضاء والقدر ومهما كان التغيير عسيراً قال الإمام الصادق (عليه السلام): (ادعُ ولا تقل: إن الأمر فُرغ منه، إن عند الله منزلة لا تنال إلا بمسألة، ولو

أن عبداً سدّ فاه ولم يسأل لم يعطَ شيئاً فسل تعطَ) وعن الإمام الصادق (عليه السلام) أنه قال: (الدعاء يرد القضاء بعدما أُبرم إبراماً).

وعن أمير المؤمنين (عليه السلام): (ما زالت نعمة عن قوم ولا نضارة عيش إلا بذنوب اجترحوها، إن الله ليس بظلاّم للعبيد، ولو أنهم استقبلوا ذلك بالدعاء والإنابة لم تنزل، ولو أنهم إذا نزلت بهم النقم وزالت عنهم النعم فزعوا إلى الله بصدق من نيّاتهم ولم يهنوا ولم يسرفوا: لأصلح الله لهم كل فاسد ولرد عليهم كل صالح).

ظروف استجابة الدعاء:

ولا شك أن ليس كل لقلقة لسان هو دعاء بل لا بد من توفّر ظروف لاستجابة الدعاء، روي أن رجلاً من أصحاب الإمام الصادق (عليه السلام) (قال: إني لأجد آيتين في كتاب الله أطلبهما فلا أجدهما، قال (عليه السلام): وما هما؟ قال الرجل: [ادْعُونِيْ أَسْتَجِبْ لَكُمْ] فندعوه فلا نرى إجابة، قال: أفتَرى الله أخلف وعده؟ قلت: لا، قال (عليه السلام): فمه؟ قلت: لا أدري، قال (عليه السلام): لكني أخبرك: من أطاع الله فيما أمر به ثم دعاه من جهة الدعاء أجابه، قال الرجل: وما جهة الدعاء؟ قال (عليه السلام): تبدأ فتحمد الله وتمجّده وتذكر نعمه عليك فتشكره ثم تصلّي على النبي (صلى الله عليه وآله) ثم تذكر ذنوبك فتقرّ بها ثم تستغفر منها فهذه جهة الدعاء، ثم قال (عليه السلام): وما الآية الأخرى؟ قلت: قوله: [وَمَا أَنفَقْتُم مِن شَيءٍ فهُوَ يُخلِفُهُ] وأراني أنفق ولا أرى خلفاً، قال (عليه السلام): أفتَرى الله أخلف وعده؟ قلت: لا، قال: فمه؟ قلت: لا أدري، قال: لو أن أحدكم اكتسب المال من حله وأنفقه في حقه لم ينفق درهما

إلا أخلف الله عليه).

إشكال ورد:

وهنا نصحح فكرة وهي أننا حينما نقول: إن لاستجابة الدعاء ظروفاً فهذا لا يعني تضييقاً في كرم الله تبارك وتعالى وأنه سبحانه يشترط شيئاً لعطائه فإن نعمه تفضلٌ ويبتدئ بها من لا يستحق كما ورد في أدعية شهر رجب (يا من يعطي من لم يسأله ومن لم يعرفه تحنناً منه ورحمة)، والإنسان الكريم لا يشترط ثمناً لعطائه فكيف يشترطها الكريم الحقيقي، يقول الإمام الحسين (عليه السلام) في دعاء يوم عرفة: (إلهي تقدس رضاك أن يكون له علّة منك، فكيف يكون له علة مني) وهكذا كل صفاته عز شأنه ومنها الكرم تقدست أن يكون لها علة منه تبارك وتعالى لأنها ذاتية فكيف يكون لكرمه سبب من خلقه. وإنما أراد الأئمة (عليهم السلام) بذكر تلك الظروف تربية الإنسان وتكامله ليسعد وليكون لائقاً بمقام العبودية لله تبارك وتعالى ومحلاً قابلاً لنزول الفيوضات الإلهية، هذا المقام الذي يفخر به أمير المؤمنين (عليه السلام) حين يقول: (إلهي كفى بي فخراً أن تكون لي ربّاً، وكفى بي عزّاً أن أكون لك عبداً، إلهي أنت كما أحب فاجعلني كما تحب).

ظروف الاستجابة بحسب الأحاديث:

ويمكن من خلال الأحاديث الشريفة الحصول على ظروف الاستجابة.

فمنها: زمانية، كليلة الجمعة ويومها وما بين الطلوعين وعند الزوال وأيام الأعياد كهذا اليوم وغيرها من المذكورات في كتب السنن والمستحبات.

ومنها: مكانية، كالروضات الشريفة للمعصومين (سلام الله عليهم)

والمساجد خصوصاً الأربعة المعظمة وعند قبر الوالدين ونحوها.

ومنها: حالية، كحال نزول المطر وإذا كان الدعاء جماعياً وإذا كان يدعو لغيره.

ومنها: ذاتية مرتبطة بنفس الشخص، ككونه متطهراً وفي حالة السجود وبعد الصلاة خصوصاً الفريضة فإن للمؤمن دعوة مستجابة إثر كل صلاة مفروضة[١] وأن يسبق الدعاء بالحمد والثناء على الله تبارك وتعالى والصلاة على النبي وآله (صلوات الله عليهم أجمعين) وأن يعترف بذنبه ويستغفر وأن يكون متوجهاً لما يقول وليس ساهياً[٢] غافلاً ويلحّ في الدعاء ولا يمل من تكراره وأن يكون بحال الاضطرار ومن تقطعت به الأسباب واثقاً بالإجابة وإن تأخرت فلعل تأخيرها خير له[٣] وأن يدعو لإخوانه المؤمنين أولاً بالمغفرة والرحمة وقضاء

(١) عن النبي (صلى الله عليه وآله): (من أدّى فريضة فله عند الله دعوة مستجابة).

(٢) عن الإمام الصادق (عليه السلام): (إن الله لا يستجيب دعاء بظهر قلب ساهٍ، فإذا دعوت فأقبل بقلبك ثم استيقن الإجابة).

(٣) في صحيحة البزنطي عن الإمام الرضا (عليه السلام): (والله لَمَا أخَّرَ اللهُ عن المؤمنين مما يطلبون في هذه الدنيا خير لهم مما عجل لهم منها) ثم قال (عليه السلام) له: (أخبرني عنك لو أني قلت قولاً كنت تثق به مني؟ قلت له: جعلت فداك: وإذا لم أثق بقولك فبمن أثق وأنت حجة الله تبارك وتعالى على خلقه، قال: فكن بالله أوثق فإنك على موعد من الله، أليس الله تبارك وتعالى: [وَإذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنّي فَإنّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعوَةَ الدَاعِ إذا دعَانِ] وقال: [وَلا تَقنَطُوا مِن رَحمَةِ الله] وقال: [وَاللهُ يَعِدُكُم مَغفِرَةً مِنهُ وفَضلاً] فكن بالله عز وجل أوثق منك بغيره، ولا تجعلوا في أنفسكم إلا خيراً فإنكم مغفورٌ لكم.

الحوائج[١] وأن يطلب من الغير أن يدعو له[٢] خصوصاً الإمام العادل والوالدين[٣].

إن من مفاخر شيعة أهل البيت (سلام الله عليهم) هذا العطاء المبارك الوفير من الأدعية التي صدرت عن أهل بيت العصمة وغطّت كل حاجات الإنسان، ولولا أنهم (سلام الله عليهم) علّمونا كيف ندعو الله تبارك وتعالى وأدب الوقوف بين يديه لما علمنا كيف نناجي ربنا، وماذا تقتضي وظائف العبودية لله العظيم سبحانه.

لقد تضمنت تلك الأدعية أرقى معاني المعرفة بالله تبارك وتعالى وأسمى الأخلاق الكريمة وأفضل العلاقات الإنسانية وأعمق العلوم مما لا يمكن صدوره عن غيرهم (سلام الله عليهم) وليتأمل من يطلب الشواهد على ذلك في الأدعية

---

(١) عن النبي (صلى الله عليه وآله): (إذا دعا أحد فليعم فإنه أوجب للدعاء ومن قدم أربعين رجلاً من إخوانه قبل أن يدعو لنفسه استجيب له فيهم وفي نفسه) وعنه (صلى الله عليه وآله): (ما من مؤمن أو مؤمنة مضى من أول الدهر أو هو آتٍ إلى يوم القيامة إلا وهم شفعاء لمن يقول في دعائه: اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات وإن العبد ليؤمر به إلى النار يوم القيامة فيسحب، فيقول المؤمنون والمؤمنات: هذا الذي كان يدعو لنا فشفّعنا فيه فيشفعهم الله فينجو).

(٢) روي أن الله سبحانه أوحى إلى موسى (عليه السلام): (يا موسى ادعني على لسان لم تعصني به، فقال: أنى لي بذلك؟ فقال: ادعني على لسان غيرك)، وبذل الإمام الهادي (عليه السلام) مالاً لأحد أصحابه كي يذهب إلى كربلاء ويزور جده الحسين (عليه السلام) ويدعو له.

(٣) عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (أربع لا ترد لهم دعوة: الإمام العادل لرعيته، والأخ لأخيه بظهر الغيب يوكل الله به ملكاً يقول له ولك مثل ما دعوت لأخيك، والوالد لولده، والمظلوم يقول الرب عز وجل: وعزّتي وجلالي لأنتقمن لك ولو بعد حين).

الواردة عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) وأمير المؤمنين والإمام الحسين والإمام السجاد (سلام الله عليهم أجمعين) ومنها الأدعية التي ورد الحث على المواظبة عليها كدعاء كميل ودعاء الصباح والمناجاة الشعبانية ودعاء الإمام الحسين (عليه السلام) يوم عرفة.

فوائد الدعاء:

إن الأدعية المأثورة لا تتلى فقط لأنها عبادة بل أفضل العبادة كما ذكرنا ولا طلباً للثواب المرصود لها وإن كان عظيماً وإنما للتزود مما فيها من علوم ومعارف، وللتعرض للنفحات والألطاف الإلهية المودعة فيها فيطلب من الله تبارك وتعالى أن يحققها له ويتحفه بها، ولمعرفة الحلول لكل المشاكل والعقد النفسية والاجتماعية والفكرية والعقائدية والأخلاقية، بل حتى السياسية والاقتصادية.

وخلاصة ما تقدم أن نكثر من الدعاء في كل صغيرة وكبيرة وأن نحرص على توفير ظروف استجابته وهي يسيرة ومتوفرة وأيسرها أن لا ننفتل من صلاتنا المفروضة حتى نسبّح تسبيح الزهراء (عليها السلام) ونسجد شكراً لله تعالى ثم نقول: (يا أرحم الراحمين) سبعاً ونصلّي على النبي وآله أجمعين ثم نستغفر الله تعالى مما صدر منا ونطلب العصمة منه تبارك وتعالى لما يأتي وندعو لإخواننا المؤمنين والمؤمنات بحوائجهم العامة والخاصة ثم ندعو لأنفسنا.

والأفضل أن نضم إليه مجالس الدعاء الجماعي في المساجد وعقيب صلاة الجماعة وغيرها وبذلك تحققون أكثر ظروف الاستجابة المذكورة.

اللهم صل على محمد وآل محمد (صلاة لا يقوى على إحصائها إلا أنت،

وأن تشركنا في صالح من دعاك في هذا اليوم من عبادك المؤمنين يا ربَّ العالمين، وأن تغفر لنا ولهم إنك على كل شيء قدير، اللهم إليك تعمدّت بحاجتي، وبك أنزلت اليوم فقري وفاقتي ومسكنتي، وإني بمغفرتك ورحمتك أوثق مني بعملي، ولَمغفرتك ورحمتك أوسع من ذنوبي، فصلّ على محمد وآل محمد وتولَّ قضاء كل حاجة هي لي بقدرتك عليها، وتيسير ذاك عليك، وبفقري إليك، وغناك عني، فإني لم أُصِب خيراً قطّ إلا منك، ولم يَصرف عني سوءاً قط أحدٌ غيرك، ولا أرجو لأمر آخرتي ودنياي سواك)[1].

وأفضل الدعاء وأكمله لسيدنا ومولانا صاحب العصر والزمان (أرواحنا له الفداء) أن يجمع الله تبارك وتعالى له الخير كله.

(١) الصحيفة السجادية، من دعاء الإمام السجاد (عليه السلام) في يوم الأضحى.

القبس القرآني

٧٧

(إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ) [الزمر : ٣٠]

دروس وعبر من وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سادة الخلق أجمعين أبي القاسم محمد المبعوث رحمة للعالمين وآله الطيبين الطاهرين.

تستوقفنا في ذكرى وفاة رسول الله[1] (صلى الله عليه وآله) عدة أمور:

الأول: كانت وفاته (صلى الله عليه وآله) شهادة على أن البقاء لله وحده قال تعالى: [إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ] (الزمر:٣٠) وقال الإمام الحسين (عليه السلام) ليلة عاشوراء لأخته العقيلة زينب (عليها السلام): (إن أهل الأرض يموتون وأهل السماء لا يبقون) ولو استحق أحد أن يبقى لكان رسول الله (صلى الله عليه وآله) لأنه أكمل الخلق وأفضلهم وجعل الكون بما فيه طوع إرادته وهو عند الله تعالى أكرم من نبيه سليمان بن داود الذي قال فيه أمير المؤمنين (عليه السلام): (ولو أن أحداً يجد إلى البقاء سلّماً، أو لدفع الموت سبيلاً، لكان ذلك سليمان بن داود (عليه السلام)، الذي سُخّر له مُلك الجن والإنس، مع النبوة وعظيم الزلفة. فلما استوفى طُعمته، واستكمل مدّته، رمَته قِسيُّ الفناء بنبال الموت، وأصبحت الديار منه خالية والمساكن معطّلة، وورثها قومٌ آخرون)[2] وفي ذلك

(١) حديث سماحة الشيخ اليعقوبي من قناة (أهل البيت) الفضائية ليلة وفاة رسول الله (صلى الله عليه وآله) في ٢٨ صفر ١٤٣٠ المصادف ٢٠٠٩/٢/٢٤.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة ١٨٢، صفحة ٢٦٢، شرح د. صبحي الصالح، بيروت ١٩٦٧.

موعظة للخلق جميعاً.

الثاني: هوان الدنيا على الله تبارك وتعالى حين يُخليها من رسول الله (صلى الله عليه وآله) فما قيمتها بدونه (صلى الله عليه وآله) فأصبحت الدنيا بفقده مظلمة، والآخرة بنوره مزهرة، وفي ذلك عبرة لمن تطمح عينه إلى الدنيا ويجعلها هدفاً لحياته، قال أمير المؤمنين (عليه السلام): (ولقد كان في رسول الله (صلى الله عليه وآله) كافٍ لك في الأسوة، ودليل لك على ذم الدنيا وعيبها، وكثرة مخازيها ومساويها، إذ قُبضت عنه أطرافها، وَوُطِّئت لغيره أكنافها، وفُطِمَ عن رضاعها، وزوي عن زخارفها) (فتأسَّ بنبيِّك الأطيب الأطهر (صلى الله عليه وآله) فإن فيه أسوةً لمن تأسّى، وعزاءً لمن تعزّى. وأحبُّ العباد إلى الله المتأسّي بنبيه والمقتصّ لأثَرِه) (عُرضت عليه الدنيا فأبى أن يقبلها، وعلمَ أن الله سبحانه أبغضَ شيئاً فأبغضه، وحقَّر شيئاً فحقّره، وصغّر شيئاً فصغّره. ولو لم يكن فينا إلا حبُّنا ما أبغضَ اللهُ ورسولُه وتعظيمُنا ما صغّرَ اللهُ ورسولُه، لكفى به شقاقاً لله، ومحادَّةً عن أمر الله)[1]

الثالث: انقطاع جملة من البركات كانت مرتبطة بشخصه المبارك ووجوده بين الناس (منها) الوحي المباشر الذي كان ينزل عليه (صلى الله عليه وآله) (ومنها) ارتفاع ألوان من العذاب، قال تعالى: [وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ] (الأنفال:٣٣) وورد في أخبار الفريقين أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: (أنزلَ الله عليَّ أمانين لأمتي: [وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٦٠، صفحة ٢٢٦-٢٢٨.

يَسْتَغْفِرُونَ] فإذا مضيت تركت فيهم الاستغفار إلى يوم القيامة)[1] ومع ذلك فإن خيره وبركاته متواصلة حتى بعد وفاته، عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) قال: (قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): مقامي بين أظهركم خير لكم فإن الله يقول: [وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ]، ومفارقتي إياكم خير لكم. فقالوا: يا رسول الله مقامك بين أظهرنا خير لنا فكيف يكون مفارقتك خير لنا؟ فقال: أما مفارقتي لكم خير لكم فإن أعمالكم تعرض علي كل خميس واثنين فما كان من حسنة حمدت الله عليها، وما كان من سيئة أستغفر الله لكم)[2].

الرابع: انفتاح باب الظلم والعدوان على آل بيت النبي (صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين) وقد قال (صلى الله عليه وآله) لأهل بيته: (أنتم المستضعفون بعدي) وحصل ما حصل على دار علي وفاطمة (صلوات الله عليهما وآلهما) -لذا لا يكاد ينفك الحديث عن وفاة رسول الله (صلى الله عليه وآله) من الحديث عما تعرضت له الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء (عليها السلام)- مخالفين بذلك قول الله تبارك وتعالى: [قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى] (الشورى: ٢٣) ووصايا نبيه الأكرم (صلى الله عليه وآله) الكثيرة.

الخامس: الانقلاب على الأعقاب ومخالفة وصية رسول الله (صلى الله عليه وآله) في أمير المؤمنين (عليه السلام) بالإمامة والخلافة، قال تعالى: [وَمَا مُحَمَّدٌ إِلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ

(١) الميزان في تفسير القرآن، في ذيل الآية ٣٣ من سورة الأنفال.

(٢)الميزان في تفسير القرآن: ٨٦/٩.

اللهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ] (آل عمران:١٤٤) وهذه أهم قضية بلّغها رسول الله (صلى الله عليه وآله) وأدّاها عن ربه بنص القرآن الكريم قال تعالى: [يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ واللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ] (المائدة:٦٧).

وكل واحد من هذه الأمور يستحق أن نطيل الوقوف عنده والتأمل فيه، ولكن الوقت لا يسع لذلك فنقتصر على الأخير لأهميته.

إن قضية الإمامة والخلافة أعظم قضية في الإسلام فهي مفتاح كل خير لو أن الأمة اهتدت إليها وأخذت بها، ومفتاح كل شرّ - والعياذ بالله- من سفك دماءٍ وتخريب ديار وانحرافٍ عن الدين، عندما يتخلفون عنها، وقد كان النبي (صلى الله عليه وآله) بدأ التصريح بها والدعوة إليها منذ أيام الإسلام الأولى عندما نزلت الآية الشريفة [وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ] (الشعراء:٢١٤) فقد روى الفريقان أن النبي (صلى الله عليه وآله) جمع بني عبد المطلب وكانوا أربعين رجلاً ودعاهم إلى الإيمان ومؤازرته واختار علياً ليكون وصيه وخليفته[1] ثم والى (صلى الله عليه وآله) الإعلان والتبليغ بها حتى دعاه الله تبارك وتعالى إلى إكمال الدين وإتمام النعمة بإلزام المؤمنين بولاية علي بن أبي طالب (عليه السلام) في غدير خم قبل وفاته (صلى الله عليه وآله) بشهرين وعشرة أيام، لكن بعض الصحابة ولأسباب معلومة نكثوا البيعة، وعندما حاول (صلى الله عليه وآله) تأكيدها قبل وفاته بأربعة أيام أي يوم الخميس الذي سبق وفاته يوم الاثنين حصل لغط وخلاف بين الصحابة فقال (صلى الله عليه وآله) لهم: قوموا، ثم أوصى أهل بيته بالاستعداد للبلاء واتخاذ

(١) الميزان في تفسير القرآن: ذيل تفسير الآية ٢١٤ من سورة الشعراء.

الصبر جلباباً، هذه الحادثة التي أطلق عليها عبد الله بن عباس حبر الأمة وترجمان القرآن: (رزيّة يوم الخميس) لأنها أساس المصائب والانحراف عن خط الرسالة.

الانحراف الذي –كأي خط مائل عن الصراط المستقيم- يزداد بعداً كلما تقدم الزمن فبدأت عُرى الإسلام تُنقَض، ومقدساته تنتهك ولم تبق حرمة له حتى آلت الخلافة إلى أناس يقتلون أولاد النبيين ويحرقون الكعبة ويشربون الخمر ويفعلون المنكرات جهاراً على منابر المسلمين، ونشأت أجيال من المسلمين لا تفقه من أحكام الإسلام شيئاً لأن الناس على دين ملوكهم، ولا سبيل للوصول إلى الأئمة الهداة الحقيقيين فهم معتقلون ومعذبون ومحاصرون، وكان الداخلون الجُدد في الإسلام من الأمم التي غزاها المسلمون لا يرون من الإسلام إلا ما يظهر على سلوك الأمراء، ولولا جهاد وجهود الأئمة (صلوات الله عليهم أجمعين) والثلة المباركة من أصحابهم لما بقي للدين عين ولا أثر كأبان بن تغلب الذي قال فيه الإمام الصادق (عليه السلام) لما بلغه موته: (لولا أبان لمات فقه أبي).

وكان لهذا الانقلاب على وصية رسول الله (صلى الله عليه وآله) في مستحقي الإمامة والخلافة من بعده وإقصاء القادة الحقيقيين للأمة آثار[1] كارثية وويلات عظيمة على الأمة:

منها: تصدي غير المؤهلين للخلافة بل الفاسدين من بني أمية وبني العباس وأضرابهم مما أدى إلى:

---

(١) تجد تفصيل هذه النقاط في قبس آخر من الجزء الثالث بعنوان ﴿أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ [آل عمران : ١٤٤].

١- تشوّه صورة الإسلام نفسه لأن أي دين أو نظام أو آيديولوجية تُقيَّم من خلال سلوك القائمين عليها لعدم التفكيك بين النظرية والممارسة والتطبيق، فلما يتصدى للحكم باسم الإسلام قتلةٌ ومجرمون وفاسدون فإنهم يشوّهون صورته.

٢- طمع أعداء الإسلام في الكيد له واستئصال قواعده وتعاليمه حيث وجدوا لهم منفذاً بل حظوة لدى أولئك المتسلطين الجبابرة.

٣- ضياع مقاييس ومعايير الاستحقاق لهذا المنصب العظيم فأصبحت هدفاً لكل الطامعين في السلطة والحكم ولو بالقهر والسيف ما دام الحكم لمن غلب.

ومنها: ابتداع وسائل من صنع الإنسان للوصول إلى التشريعات كالقياس والشورى وأمثالها لابتعادهم عن مصادر التشريع الأصلية ولحاجتهم إلى قوانين تؤصّل لسلطتهم وتعطيهم الشرعية؛ لذا تبدلت الأحكام وصارت القوانين التي تحكم الحياة وضعية وليست إلهية.

ومنها: عرقلة تربية البشرية وتكاملها، لأن المعلم يجب أن يكون عالماً والواعظ متّعظاً والمصلح صالحاً فكيف يربي الأمة من يتبع هواه ويطلق لنفسه الأمارة بالسوء العنان وقد جعل الشيطان ولياً له من دون الله العظيم فافتقدت الأمة الأسوة الحسنة والمربي الصالح الحنون إلا القليل ممن اهتدى إلى الحق ورزقه الله اتباعه، وعلى العكس من ذلك فقد شجعت تلك السلطات الفساد والانحراف وكانت تمارسه علناً وتوفّر أسبابه.

ومنها: تمزّق الأمة وتشتتها إلى فرق وأحزاب وطوائف متناحرة يستحل بعضهم دماء البعض الآخر [كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ] (المؤمنون: ٥٣) ولم

يلتفتوا إلى وصية الله تبارك وتعالى: [وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا] (آل عمران:١٠٣) وقوله تعالى: [وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ] (الأنفال:٤٦) وقد فسّرت الأحاديث الشريفة حبل الله بالقرآن الكريم وعترة النبي (صلى الله عليه وآله) وأهل بيته.

ومنها: انحسار دور الدين عن التأثير في حياة الأمة، فبعد أن كانت رسالته تنظيم شؤون الحياة كلها اقتصر أثره على عدد من المتدينين من خلال طقوس وعبادات يؤدونها، وقد عمل الطغاة على ذلك لأنهم يعلمون أن إعطاء دور شامل للدين يعني الحاجة إلى الرجوع إلى القيّمين الحقيقيين عليه مما يعني خسارة الحكام الجائرين لسلطتهم ومواقعهم فقرروا عزل الدين ليعزلوا أئمته والأدلاّء عليه.

ومنها: تأخر ركب الحضارة الإنسانية، لأن أوصياء النبي (صلى الله عليه وآله) كان لديهم كل ما تحتاجه البشرية من علوم وقد احتوت المصادر على نظريات علمية في الفيزياء والفلك والرياضيات والفسلجة والكيمياء والطب وغيرها لأئمة أهل البيت (عليهم السلام) (راجع كتاب قضاء أمير المؤمنين (عليه السلام) وتوحيد المفضّل ورسائل جابر بن حيّان في الكيمياء) فلو أُتيحت الفرصة لأئمة أهل البيت (عليهم السلام) لإظهار علومهم وثنيت لهم الوسادة، لما احتجنا إلى أربعة عشر قرناً لنصنع الطائرة والكومبيوتر والإنسان الآلي والتكنولوجيا النووية وغيرها مما يضمن للبشرية حياةً أفضل وأهنأ وأسعد.

وعلى أي حال فقد كانت خسارتنا برسول الله (صلى الله عليه وآله) عظيمة بعظم النتائج

التي حصلت بوفاته (صلى الله عليه وآله) فما أصيبت البشرية بمثل رسول الله (صلى الله عليه وآله) وعلى مثله فليبك الباكون ولينـدب النادبون:

أنسَتْ رزيّتُكم رزايانا التي سلفتْ وهوّنت الرزايا الآتية

القبس القرآني

٧٨

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾[1]

مصاديق أداء الأمانة

[الأحزاب : ٧٢]

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والحمد حقه كما يستحقه حمداً كثيراً، وأعوذ به من شر نفسي إن النفس لأمّارة بالسوء إلا ما رحم ربي.

والصلاة والسلام على أشرف خلق الله تبارك وتعالى وأحبِّهم إليه وأكرمهم عليه أبي القاسم محمد وآله الطيبين الطاهرين.

لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) منزلة عند الله تبارك وتعالى ورسوله (صلى الله عليه وآله) لا يعرفها إلا الله تعالى ورسوله، كما ورد في الحديث الشريف: (يا علي لا يعرفك إلا الله وأنا)، ونختصرها بأنه نفس رسول الله (صلى الله عليه وآله) بنص القرآن الكريم في آية المباهلة: [وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ] (آل عمران: ٦١)، فبمَ بلغ علي (عليه السلام) هذه المنزلة؟ وأي طالب للكمال لا يريد أن يعرف كيف أصبح علي (عليه السلام) بهذه المنزلة ليتأسى به ويقتفي آثاره.

لا يحق لنا أن نجيب لأننا لا نعرف علياً (عليه السلام) حق معرفته، ولولا أن

(١) الخطبة الأولى لصلاة عيد الفطر السعيد عام ١٤٣٠ المصادف ٢٠٠٩/٩/٢١، وأصلها كلمة تحدث بها سماحته إلى حشد من الزوار ليلة استشهاد أمير المؤمنين (عليه السلام) في ٢١ رمضان ١٤٣٠.

الجواب جاءنا عن أهل بيت العصمة (سلام الله عليهم) لما أجبنا، فقد روى الكليني (رضوان الله عليه) بسنده عن أبي كهمس (الهيثم بن عبد الله الشيباني) قال: (قلت لأبي عبد الله (عليه السلام): عبد الله بن أبي يعفور يقرؤك السلام، قال: وعليك وعليه السلام، إذا أتيت عبد الله فاقرأه السلام وقل له: إن جعفر بن محمد يقول لك: انظر ما بلغ به علي عند رسول الله (صلى الله عليه وآله) فالزمه، فإن علياً (عليه السلام) إنما بلغ ما بلغ عند رسول الله (صلى الله عليه وآله) بصدق الحديث وأداء الأمانة)[1].

تعاليم السلوك الى الله تعالى:

وهذا جزء من برنامج عملي ومنهج للتكامل وضعه رسول الله (صلى الله عليه وآله) لتربية أمير المؤمنين (عليه السلام) وصناعته [وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي] (طه: ٣٩) ومن أهل البيت (عليهم السلام) تؤخذ وسائل التكامل وليس من أدعياء السلوك والمعرفة الذين يبتدعون مناهج وبرامج لا وجود لها في سنة أهل البيت (صلوات الله عليهم)، وهذه الوصفة الإلهية التي قدّمها النبي (صلى الله عليه وآله) إلى أمير المؤمنين (عليه السلام) رويت بسند صحيح في أصول الشيعة كالكافي ومن لا يحضره الفقيه والتهذيب وكتاب المحاسن للبرقي عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) لعلي (عليه السلام): يا علي أوصيك في نفسك بخصال فاحفظها، ثم قال: اللهم أعنه، أما الأولى: فالصدق لا يخرجن من فيك كذبة أبداً، والثانية الورع لا تجترين على خيانة أبداً، والثالثة الخوف من الله كأنك تراه، والرابعة كثرة البكاء من خشية الله عز وجل يبنى لك بكل دمعة بيت في الجنة، والخامسة بذل مالك ودمك دون دينك،

(١) وسائل الشيعة: كتاب الوديعة، باب ١، ح١.

والسادسة الأخذ بسنتي في صلاتي وصيامي وصدقتي، أما الصلاة فالخمسون ركعة، وأما الصوم فثلاثة أيام في كل شهر خميس في أوله، وأربعاء في وسطه، وخميس في آخره، وأما الصدقة فجهدك حتى يقال: أسرفت ولم تسرف، وعليك بصلاة الليل وعليك بصلاة الليل وعليك بصلاة الليل، وعليك بصلاة الزوال، وعليك بقراءة القرآن على كل حال، وعليك برفع يديك في الصلاة، وتقليبهما، وعليك بالسواك عند كل وضوء وصلاة، وعليك بمحاسن الأخلاق فاركبها، وعليك بمساوئ الأخلاق فاجتنبها، فإن لم تفعل فلا تلومنّ إلا نفسك)[1].

معنى الأمانة ومصاديقها:

ونعود إلى الحديث الذي بدأنا به وأن علياً (عليه السلام) بلغ ما بلغ بالصدق وأداء الأمانة، وحينئذٍ قد يقال بأن هاتين الخصلتين مما يتيسر الاتصاف بهما مع أن منزلة علي مما لا يبلغها أحد من بعده كما قال (عليه السلام): (ألا وأنكم لا تقدرون على أن تصيروا مثلي) لذا فإن الأمر يحتاج إلى شيء من الإيضاح والتفصيل، وسنتحدث هنا عن أداء الأمانة، حيث ينصرف الذهن إلى قضية وضع أموال الناس وممتلكاتهم عند بعضهم واستردادهم عند مطالبة أصحابها، فأداء الأمانة يعني رد الحقوق وإيصالها إلى أهلها.

وبهذا المعنى يتساوى كثيرون مع علي بن أبي طالب، لكن الأمانة لها معنى أوسع من هذا بكثير وأداء الأمانة يقتضي مسؤوليات كبرى.

---

(١) وسائل الشيعة: كتاب الجهاد، أبواب جهاد النفس، باب ٤، ح٢.

أمانة العهد والميثاق:

وأول أمانة وأعظمها هي تلك التي عرضها الله تبارك وتعالى على جميع المخلوقات فاعتذرت عن تحملها وحملها الإنسان قال تعالى: [إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً] (الأحزاب:٧٢) وهي أمانة العهد والميثاق الذي أخذه الله تبارك وتعالى على عباده ليمنحهم بمقتضاه خلافة الله تعالى في الأرض بأن يكون الإنسان مخلوقاً عاقلاً رشيداً ويُسخَّر له الكون كله على أن يكون موحداً لله تبارك وتعالى ومن ثم تعريضه للجزاء والحساب ليثاب على إحسانه بجنة عرضها السماوات والأرض ويحاسب على سيئاته، قال تعالى: [وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ] (الأعراف:١٧٢).

ويعيد الإنسان التأكيد على هذا الميثاق عندما يصافح الحجر الأسود فيقول: (اللهم أمانتي أديتها وميثاقي تعاهدته لتشهد لي بالموافاة).

تخلقوا بأخلاق الله:

تلك الخلافة التي تعني أن يكون الإنسان مظهراً للصفات الإلهية والأسماء الحسنى فيجعل الله تعالى المثل الأعلى الذي يبذل وسعه للاتصاف بصفاته [وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى] (النحل: ٦٠) وورد في الحديث الشريف (تخلقوا بأخلاق الله) وهي لا تقتصر على الأسماء الحسنى كالرحيم والكريم والغفار والعليم، بل تشمل كل الصفات الإلهية التي نطق بها القرآن الكريم والأدعية الشريفة والروايات المأثورة كقوله (عليه السلام) في دعاء الافتتاح: (فلم أرَ مولىً كريماً أصبرَ على عبدٍ لئيمٍ منك

عليّ يا ربِّ إنك تدعوني فأولّي عنك، وتتحبب إليّ فأتبغّضُّ إليك، وتتودد إلي فلا أقبل منك، كأن لي التطول عليك، فلم يمنعك ذلك من الرحمة لي والإحسان إلي، والتفضل علي بجودك وكرمك)، فهذه صفة لله تبارك وتعالى علينا أن نسعى للتخلق بها وهكذا غيرها.

وبأداء هذه الأمانة أوصى أمير المؤمنين (عليه السلام) من خطبة له: (ثم أداء الأمانة، فقد خاب من ليس من أهلها، إنها عُرضت على السماوات المبنية والأرضين المدحوة، والجبال ذات الطول المنصوبة، فلا أطول ولا أعرض ولا أعلى ولا أعظم منها. ولو امتنع شيء بطول أو عرض أو قوة أو عز لامتنعن، ولكن أشفقن من العقوبة، وعقلن ما جهل من هو أضعف منهن، وهو الإنسان [إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً])[1].

وقد تمثلت في رسول الله (صلى الله عليه وآله) وأمير المؤمنين (عليه السلام) كل الصفات الحسنى المتاحة للمخلوقات فقد ورد في الحديث أن أهل البيت (عليهم السلام) حازوا اثنين وسبعين حرفاً من الاسم الأعظم ذي الثلاثة والسبعين حرفاً وبقي حرف واحد اختص تبارك وتعالى به لنفسه وكانوا مظهراً لكل الصفات الإلهية المتاحة لهم كمخلوقين، فأدى أمير المؤمنين (عليه السلام) هذه الأمانة خير أداء.

ويعني أداء هذه الأمانة الإيمان والالتزام بكل العقائد الحقة التي أشهد الله تبارك وتعالى عباده عليها [وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا

(١) نهج البلاغة من الخطبة (١٩٩).

عَنْ هَذَا غَافِلِينَ] (الأعراف:١٧٢) والأحكام الشرعية التي حدها لعباده والشهادة لرسول الله (صلى الله عليه وآله) بالرسالة والنبوة ولأمير المؤمنين (عليه السلام) بالولاية ولأهل بيته بالمودة والإتباع، ولذا ورد في الكافي تفسير الآية أن (الأمانة هي ولاية أمير المؤمنين).

نفسك التي بين جنبيك:

ومن مصاديق الأمانة نفسك التي بين جنبيك، يقول أمير المؤمنين (عليه السلام): (عباد الله، الله الله في أعز الأنفس عليكم، وأحبها إليكم: فإن الله قد أوضح لكم سبيل الحق وأنار طرقه، فشقوةٌ لازمة، أو سعادة دائمة! فتزودوا في أيام الفناء لأيام البقاء، قد دُللتم على الزاد وأمرتم بالظعن وحُثثتم على المسير)[1] فهي أعز أمانة استودعك الله إياها أو ائتمنك عليها لتهذبها وتحميها من إتباع الهوى ونزغات الشيطان وأن لا تسلس القياد لها فتوردك موارد الهلكة فإن إعطاءها ما تريد – وهي الأمارة بالسوء- يقود إلى الهلاك. في دعاء الصباح لأمير المؤمنين (عليه السلام): (فبئس المطية التي امتطت نفسي من هواها، فواهاً لها لما سولت لها ظنونها ومناها).

وهي قد تبدو مفارقة أن تكون رعاية النفس والإحسان إليها بمنعها مما تشتهيه وكبح جماحها، وعدم إطلاق العنان لها في اللهو واللعب كالذين قضوا ساعات شهر رمضان المباركة –التي جعلها الله تبارك وتعالى ميداناً لأوليائه يتسابقون فيها إلى رضوانه- يقضونها بمتابعة المسلسلات الماجنة ولعبة المحيبس

(١) المصدر، الخطبة (١٥٧).

وأمثالها، وفي ذلك يقول أمير المؤمنين (عليه السلام) في المناجاة الشعبانية: (إلهي قد جُرتُ على نفسي في النظر لها، فلها الويل إن لم تغفر لها) ويقول (عليه السلام): (وإنما هي نفسي أروضها بالتقوى لتأتي آمنة يوم الخوف الأكبر، وتثبُت على جوانب المزلق)[١]، وقال (عليه السلام): (وأيمُ الله - يميناً أستثني فيها بمشيئة الله- لأرُوضَنَّ نفسي رياضةً تَهِشُّ معها إلى القرص إذا قدرت عليه مطعوماً، وتقنع بالملح مأدوماً)[٢] وفي ذلك يوصي الإمام الصادق (عليه السلام) شيعته خصوصاً الذين يسوّفون التوبة والندم والاستغفار والذين يتلفون أنفسهم فيما يسمونه (جهاداً) أو (ثورة) أو (مقاومة) ونحوها دون الرجوع إلى البصير بأمور الشريعة وما يصلح الأمة، قال (عليه السلام): (عليكم بتقوى الله وحده لا شريك له وانظروا لأنفسكم، فوالله إن الرجل لَيكون له الغنم فيها الراعي، فإذا وجد رجلاً هو أعلم بغنمه من الذي هو فيها يخرجه ويجيء بذلك الرجل الذي هو أعلم بغنمه من الذي كان فيها، والله لو كانت لأحدكم نفسان يقاتل بواحدة يجرب بها، ثم كانت الأخرى باقية يعمل على ما قد استبان لها، ولكن له نفس واحدة إذا ذهبت فقد والله ذهبت التوبة، فأنتم أحقّ أن تختاروا لأنفسكم، إن أتاكم آتٍ منّا فانظروا على أي شيء تخرجون) (فنحن نشهدكم أنا لسنا نرضى به وهو يعصينا اليوم وليس معه أحد، وهو إذا كانت الرايات والألوية أجدر أن لا يسمع منا)[٣].

(١) نهج البلاغة، قسم الرسائل، العدد: ٤٥.

(٢) المصدر السابق، نفس الموضع.

(٣) وسائل الشيعة: كتاب الجهاد، أبواب جهاد العدو، باب ١٣، ح١.

الجسد من مصاديق الأمانة:

ومن مصاديق الأمانة: جسدك الذي ائتمنك الله تبارك وتعالى وصنعه لك بأحسن تقويم لتتخذه وسيلة للكمال والوصول إلى الغاية وأمرك بالاعتناء به وحفظه وتوظيفه لهذا الهدف السامي وهو طاعة الله تبارك وتعالى وعبادته فهو وسيلة وليس غاية، ومما ورد في مناجاة الخائفين للإمام السجاد (عليه السلام): (إلهي هل تسوّدُ وجوهاً خرَّتْ ساجدة لعظمتك، أو تُخرسُ ألسنةً نطقت بالثناء على مجدك وجلالتك، أو تطبع على قلوبٍ انطوت على محبتك، أو تُصِمُّ أسماعاً تلذذت بسماع ذكرك في إرادتك، أو تغلّ أكفاً رفعتها الآمال إليكَ رجاء رأفتك، أو تعاقب أبداناً عملت بطاعتك حتى نحلت في مجاهدتك، أو تعذب أرجلاً سعت في عبادتك).

فمن الخيانة توظيف الجسد في الحرام كاللواتي يتاجرن به أو الذين يستخدمون بعض جوارحهم في الحرام ومن الخيانة إيلام الجسد وإيذاؤه ولو بمثل التدخين الضار فضلاً عن المحرمات كشرب الخمر والزنا أو إيذاؤه تحت عناوين مبتدعة كبعض ما يأمر به أدعياء السلوك إلى الله تعالى والمعرفة ولو كان في ما يفعلونه خيراً لما توقف الأئمة المعصومون (عليهم السلام) عن بيانه وهم كجدهم (صلى الله عليه وآله) [بِالمُؤمِنِينَ رَؤوفٌ رَحِيمٌ] فلا يحبسون عنهم ما ينفعهم، ومن الإيذاء ما يفعله البعض باسم شعائر الحسين (عليه السلام) والتفجّع لمصابه وهي براءٌ منه [قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ] (يونس: ٥٩).

ومن الخيانة إغراق الجسد في الراحة والترف والاعتناء بمتع الجسد وكمالياته بعيداً عن الهدف، لأنه وسيلة وليس غاية، فلا يعقل إمضاء الوقت

المقرر للسفر بالاعتناء بواسطة النقل وترتيبها وتجميلها حتى ينتهي الوقت المقرر لبلوغ الغاية. وهكذا عمر الإنسان المخصص للسفر إلى الملكوت فلا يقضيه في إمتاع الجسد وراحته، قال أمير المؤمنين (عليه السلام): (أريحوا أجسادكم بالتعب ولا تتعبوها بالراحة)، وكان (عليه السلام) لا يعطي لجسده إلا ما يقويه على طاعة الله تبارك وتعالى لذلك كان جسده قوياً متيناً قادراً على الانسجام مع ما يقتضيه مقام أمير المؤمنين (عليه السلام) من الفناء في طاعة الله تبارك وتعالى والجهاد في سبيله حتى قال بعض المتخصصين عندما اطلع على نظام حياة أمير المؤمنين (عليه السلام) وغذائه: ((لولا ضربة ابن ملجم لكان من الممكن أن يعيش علي (عليه السلام) إلى آخر الدهر)) ويجيب (عليه السلام) على من يستشكل عليه ويرى أن قوة الجسد في الترف والتنعم، قال (عليه السلام): (وكأني بقائلكم يقول: إذا كان هذا قوت ابن أبي طالب فقد قعد به الضعف عن قتال الأقران ومنازلة الشجعان، ألا وإن الشجرة البرّيّة أصلب عوداً والروائع الخضرة أرق جلوداً والنباتات البدوية أقوى وقوداً وأبطأ خموداً)[1]، ويقول (عليه السلام): (فما خُلقتُ ليشغلني أكل الطيبات كالبهيمة المربوطة همها علفها، أو المرسلة شغلها تقمُّمها تكترش من أعلافها وتلهو عما يُراد بها، أو أترك سدى، أو أهملَ عابثاً، أو أجُرُّ حبل الضلالة أو أعتسف طريق المتاهة)[2].

أداء الأمانة:

وإذا انتقلنا إلى أداء الأمانة للآخرين؛ فمن مصاديقها الزوجة فإنها أمانة عند

(١) نهج البلاغة قسم الرسائل، العدد: ٤٥.

(٢) نهج البلاغة، قسم الرسائل، نفس الموضع.

زوجها كما ورد في الدعاء المأثور عند إدخال الزوجة على زوجها: (اللهم على كتابك تزوجتها، وفي أمانتك أخذتها، وبكلماتك استحللت فرجها) إلخ، ولم تأتِ إلى بيت الزوج إلا بعقد وصفه الله تبارك وتعالى بأنه ميثاق غليظ قال تعالى: [وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً] (النساء: ٢١) وهو وصف ميثاقه تبارك وتعالى مع الأنبياء والرسل [وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً] (الأحزاب:٧) وواجبه تجاه هذه الأمانة إكرامها ومعاشرتها بالمعروف ففي الحديث: (خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهله) (ما أكرمهن إلا كريم وما أهانهن إلا لئيم) فمن ظلم زوجته وقصّر في إكرامها فقد خان الأمانة.

وعيالك أمانة عندك تنفق عليهم وتهذبهم وتحسن تربيتهم وتوجيههم إلى الأخلاق الفاضلة وفعل الخير.

والزوج أمانة عند زوجته تحفظه في ماله ونفسها وتطيعه إذا أمرها.

والعلم أمانة تعمل به وتبذله لمن يستحقه فإن بذل العلم لأهله صدقة وفي قصص بني إسرائيل أن جليساً لموسى (عليه السلام) وعى علماً كثيراً عذّبه الله تبارك وتعالى بمسخه قرداً في عنقه سلسلة فسأل موسى (عليه السلام) ربه عنه فأوحى إليه: (إني كنت حمّلته علماً فضيّعه وركن إلى غيره).

أمانة الموقع السياسي والاجتماعي:

والموقع السياسي والإداري والاجتماعي والعشائري هو أمانة يُسأل الإنسان عن أدائها والقيام بحقوقها وليس غنيمة يستأكل بها، وإن الله تبارك وتعالى مسائله

عن حسن سيرته مع من ولاه عليهم، وهذا المعنى ركّز عليه أمير المؤمنين (عليه السلام) لرسوخ معنى الغنيمة و (تقاسم الكعكة) –بمصطلح الحكام والسلطات– ففي كتابه إلى عامله على آذربيجان أشعث بن قيس يقول (عليه السلام): (وإن عملك ليس لك بطعمةٍ ولكنه في عنقك أمانة، وأنت مسترعىً لمن فوقك. ليس لك أن تفتات في رعية، ولا تخاطرَ إلا بوثيقة، وفي يديك مالٌ من مال الله عز وجل، وأنت من خزانه حتى تسلمه إليّ، ولعلي ألا أكون شرّ ولاتك لك، والسلام)[١].

ويعلّم (عليه السلام) مالك الأشتر أوصاف الذين يختارهم للولاية والإدارة والحكم: (ثم انظر في أمور عمالك فاستعملهم اختباراً، ولا تولّهم محاباةً وأثَرة، فإنهم جِماعٌ من شعب الجور والخيانة، وتوخَّ منهم أهل التجربة والحياء)[٢].

وكان يحاسب عماله أشدَّ المحاسبة إذا علم منهم تقصيراً أو خيانة، ولم ينقل التأريخ خيانة بعض عمال أمير المؤمنين (عليه السلام) إلا من خلال كشفه (عليه السلام) لهم، في حين أن الحكام الآخرين كانوا فاسدين لكنهم لم يحاسبهم من هو فوقهم، فقد كتب إلى زياد بن أبيه وهو خليفةُ عاملِه على البصرة وتوابعها كالأهواز وفارس وكرمان عبد الله بن عباس: (وإني أقسم بالله قسماً صادقاً، لئن بلغني أنك خُنتَ من فيء المسلمين شيئاً صغيراً أو كبيراً لأشدَّنَّ عليك شدةً تدعك قليل الوفر ثقيل الظهر ضئيل الأمر، والسلام)[٣].

---

(١) المصدر، العدد: ٥.

(٢) المصدر، العدد ٥٣.

(٣) المصدر، العدد ٢٠.

وكتب (عليه السلام) إلى المنذر بن الجارود العبدي، وقد خان في بعض ما ولاه من أعماله: (أما بعد، فإن صلاح أبيك غرني منك، وظننت أنك تتبع هديه وتسلك سبيله، فإذا أنت –فيما رُقِّيَ إليّ عنك – لا تَدَعُ لهواك انقياداً ولا تُبقي لآخرتك عتاداً، تعمر دنياك بخراب آخرتك، وتصل عشيرتك بقطيعة دينك، ولئن كان ما بلغني عنك حقاً، لَجَمَلُ أهلك وشسع نعلك خير منك، ومن كان بصفتك فليس بأهل أن يُسَدَّ به ثغر أو يُنفَذَ به أمر، أو يُعلى له قدر أو يُشركَ في أمانة، أو يؤمن على جباية، فأقبل إليَّ حين يصل إليك كتابي هذا، والسلام)[1].

معيار المؤمن:

أيها الأحبة: هذا بعض ما يمكن أن نفهمه من معنى الأمانة التي أُمرنا بأدائها، قال تعالى: [إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا] (النساء:٥٨) والتي ورد في فضلها وأهميتها الكثير كقول الصادق (عليه السلام): (لا تغترّوا بكثرة صلاتهم ولا بصيامهم فإن الرجل ربما لهج بالصلاة والصوم حتى لو تركه استوحش، ولكن اختبروهم عند صدق الحديث وأداء الأمانة)[2].

الخيانة قبال الأمانة:

وبإزاء هذا المعنى الواسع للأمانة وأدائها يكون معنى الخيانة واسعاً فهي تشمل كل تفريط أو تقصير في أداء حق واجب على الإنسان، وهو ظاهر قوله تعالى: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ

(١) المصدر، العدد ٧١.

(٢) وسائل الشيعة: كتاب الوديعة، باب ١، ح٢.

تَعْلَمُونَ] (الأنفال:٢٧) فعن الإمام الباقر (عليه السلام) في تفسير الآية: (فخيانة الله والرسول معصيتهما، وأما خيانة الأمانة فكل إنسان مأمون على ما افترض الله عز وجل)[١].

وقد وردت في الروايات أمثلة لخيانة الأمانة تتجاوز المعنى المتعارف كقول الصادق (عليه السلام): (أيما رجل من أصحابنا استعان به رجل من إخوانه في حاجة فلم يبالغ بكل جهده فقد خان الله ورسوله والمؤمنين)[٢] وعن أمير المؤمنين (عليه السلام): (الخائن من شغل نفسه بغير نفسه وكان يومه شراً من أمسه)[٣].

وأعظم الخيانة خيانة الأمة في أي موقع ديني أو اجتماعي أو سياسي أو مالي أو إداري.

ومما كتب أمير المؤمنين (عليه السلام) إلى بعض عماله بعد أن بيّن له ما يجب فعله قال (عليه السلام): (وإلا تفعل فإنك من أكثر الناس خصوماً يوم القيامة، وبؤسىً لمن خصمه عند الله: الفقراء والمساكين والسائلون والمدفوعون والغارمون وابن السبيل.

ومن استهان بالأمانة، ورتع في الخيانة ولم ينزه نفسه ودينه عنها؛ فقد أحل بنفسه الذل والخزي في الدنيا وهو في الآخرة أذلّ وأخزى، وإن أعظم الخيانة خيانة الأمة، وأفظع الغش غش الأئمة، والسلام)[٤].

---

(١) تفسير نور الثقلين:١٤٤/٢.

(٢) بحار الأنوار: ١٧٧/٧٢.

(٣) غرر الحكم للآمدي، الحديث ٢٠١٣.

(٤) نهج البلاغة، قسم الرسائل، العدد ٢٦.

القبس القرآني

٧٩

﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾[1] [التوبة : ١٨]

فضل إعمار المساجد

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا أبي القاسم محمد وعلى أئمة المسلمين من آله الطيبين الطاهرين.

أسباب الإقبال على المساجد:

أجرينا استطلاعاً عن الحالة الدينية والالتزام بشريعة الله تبارك وتعالى خلال شهر رمضان المنقضي وقد اتفقت الإجابة على وجود تحسن قياساً بشهر رمضان العام الماضي الذي شهد انتهاكاً واضحاً لقدسية الشهر ولحرمات الله تبارك وتعالى ناقشنا أسبابه في خطبة عيد الفطر يومئذٍ.

ومن مظاهر التحسن الإقبال على المساجد ومجالس الوعظ والإرشاد وانحسار ظاهرة الإفطار العلني والحفلات والتجمعات التي ترافقها محرمات.

وكان لهذا التحسن أسباب نشير إلى بعض أسبابها بإيجاز:

١- ارتفاع الهمة والحماس لدى ثلة من المؤمنين للقيام بوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ هذه الفريضة التي بها تقام الفرائض وتحيى السنن وتأمن المذاهب وتحل المكاسب ويستجاب الدعاء ويحكم الأخيار وغيرها من الآثار المباركة.

---

(١) الخطبة الثانية لصلاة عيد الفطر السعيد عام ١٤٣٠هـ المصادف ٢٠٠٩/٩/٢١

٢- الاحتفالات والحملات الإعلامية التي جرت لاستقبال شهر رمضان والتعريف بحرمته والحث على طاعة الله تبارك وتعالى فيه مما خلق أجواءً محفزّة على الطاعة.

٣- تفعيل دور المساجد والحسينيات وتجمعات المؤمنين مما ساهم في جذب الناس إليها والتفاعل مع الشعائر الدينية ولو من منطلق السلوك الجمعي.

٤- استجابة بعض الجهات الحكومية لمطالب المؤمنين واتخاذ قرارات تمنع انتهاك قدسية هذا الشهر الشريف.

التفريق بين الجهة الدينية والأحزاب الحاكمة:

وعلى أي حال فإن اتضاح الفرق لدى الناس بين الدين والجهات الدينية - كالمرجعية والحوزة العلمية- من جهة وبين الأحزاب الحاكمة والمتسلطين باسم الدين الذين أساؤوا وافسدوا وظلموا مما قلّل من تحول الاستياء والنفور والرفض لهؤلاء إلى نفوذ ورفض للدين والتدين فنحن من واجبنا كمؤمنين دعم الحالة الإيمانية وتنميتها والمحافظة عليها، واتخاذ كل التدابير الكفيلة بذلك ونحن سنتحدث هنا عن نقطة واحدة من المجموعة أعلاه وهي أثر المساجد في دعم وانتشار التدين والالتزام بالأخلاق وإن كان هذا الدور للمساجد مما لا يخفى على أحد ولكن الذكرى تنفع المؤمنين.

البركات المعنوية والمادية لبناء المساجد:

للمساجد أهمية كبيرة في الشريعة من خلال الحث الأكيد على إعمار المساجد مادياً - ببنائها وتشييدها- ومعنوياً - بإقامة الصلوات والشعائر الدينية

والحلقات العلمية ونحوها فيها- وفضل الصلوات فيها خصوصاً لصلاة الجماعة، وثواب المواظبة على الحضور فيها حتى أن مجرد الوجود في المسجد عبادة يثاب عليها وإن لم يفعل شيئاً، ومن خلال بيان بركة الآثار المترتبة على التواصل مع المساجد وغيرها، وسأنقل لكم بعض الروايات الشريفة في ذلك:

١- في بناء المساجد ولو برصف أحجار لتحديد أرض المسجد، صحيحة أبي عبيدة الحذّاء قال: سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول: من بنى مسجداً بنى الله له بيتاً في الجنة. قال أبو عبيدة: فمر بي أبو عبد الله (عليه السلام) في طريق مكة وقد سويت بأحجار مسجداً فقلت له: جعلت فداك نرجو أن يكون هذا من ذاك؟ قال: نعم)[١].

٢- فضل صلاة الجماعة والسعي إليها في المساجد، صحيحة زرارة قال: (قلت لأبي عبد الله: ما يروي الناس أن الصلاة في جماعة أفضل من صلاة الرجل وحده بخمس وعشرين صلاة، فقال: صدقوا)[٢].

وفي خبر آخر عن رسول الله (صلى الله عليه وآله): (فما من مؤمن مشى إلى الجماعة إلا خفف الله عليه أهوال يوم القيامة، ثم يؤمر به إلى الجنة).

وفي فضل المشي إلى المساجد عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: (من مشى إلى المسجد لم يضع رجلاً على رطب ولا يابس إلا سبحت له الأرض إلى الأرضين

---

(١) وسائل الشيعة: كتاب الصلاة، أبواب أحكام المساجد، باب ٨، ح١.

(٢) هذا الحديث والذي يليه تجدهما في وسائل الشيعة: كتاب الصلاة، أبواب صلاة الجماعة، باب ١، ح٣، ١٠.

السابعة)[١] وعن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (ما عُبد الله بشيء مثل الصمت والمشي إلى بيته) وعن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: (من مشى إلى مسجد من مساجد الله فله بكل خطوة خطاها حتى يرجع إلى منزله عشر حسنات ومحى عنه عشر سيئات ورفع له عشر درجات).

٣- المتواصل مع المسجد ولو بالنية في ظل الله تبارك وتعالى، فعن رسول الله (صلى الله عليه وآله): (سبعة في ظل عرش الله عز وجل يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله عز وجل، ورجل تصدق بيمينه فأخفاه عن شماله، ورجل ذكر الله عز وجل خالياً ففاضت عيناه من خشية الله، ورجل لقي أخاه المؤمن فقال: إني لأحبك في الله عز وجل ورجل خرج من المسجد وفي نيته أن يرجع إليه، ورجل دعته امرأة ذات جمال إلى نفسها فقال: إني أخاف الله رب العالمين)[٢].

٤- سر عظمة المساجد وكرامة زائرها: عن أبي بصير قال: (سألت أبا عبد الله (عليه السلام) عن العلة في تعظيم المساجد فقال: إنما أمر بتعظيم المساجد لأنها بيوت الله في الأرض)[٣] وعن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: مكتوب في التوراة أن بيوتي في الأرض المساجد فطوبى لعبد تطهر في بيته ثم زارني في بيتي ألا أن

(١) هذا الحديث والحديثان بعده في وسائل الشيعة: كتاب الصلاة، أبواب أحكام المساجد، باب ٤، ح١، ٢، ٣.

(٢) بحار الأنوار: ٢/٨٤، أبواب مكان المصلي وما يتبعه، باب فضل المساجد وأحكامها وآدابها.

(٣) الحديث والذي يليه تجدهما في بحار الأنوار: ٦/٨٤.

على المزور كرامة الزائر) وعن الصادق (عليه السلام) أيضاً أنه قال: (عليكم بإتيان المساجد فإنها بيوت الله في الأرض ومن أتاها متطهراً طهره الله من ذنوبه وكُتب من زواره فأكثروا فيها من الصلاة والدعاء وصلوا من المساجد في بقاع مختلفة فإن كل بقعة تشهد للمصلي عليها يوم القيامة)[١].

٥- **الجلوس في المسجد عبادة:** عن الإمام الصادق (عليه السلام) عن آبائه (صلوات الله عليهم) قال: (قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): الجلوس في المسجد لانتظار الصلاة عبادة ما لم يحدث، قيل: يا رسول الله وما الحدث؟ قال: الاغتياب)[٢]. وعنه (عليه السلام) عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: (من كان القرآن حديثه والمسجد بيته بنى الله له بيتاً في الجنة)[٣].

٦- **فوائد التردد على المساجد:** عن علي بن أبي طالب (عليه السلام) أنه كان يقول: (من اختلف إلى المسجد أصاب إحدى الثمان: أخاً مستفاداً في الله، أو علماً مستطرفاً، أو آية محكمة، أو يسمع كلمة تدل على هدى، أو رحمة منتظرة، أو كلمة ترده عن ردى، أو يترك ذنباً خشيةً أو حياءً)[٤].

٧- **تحذير من لم يحضر الصلاة في المسجد من غير علة:** عن علي (عليه السلام): (لا صلاة لمن لم يشهد الصلوات المكتوبات من جيران المسجد إذا كان

---

(١) بحار الأنوار: ٣٨٤/٨٣.

(٢) بحار الأنوار: ٣٨٤/٨٣.

(٣) وسائل الشيعة: كتاب الصلاة، أبواب أحكام المساجد، باب ٣، ح٢.

(٤) وسائل الشيعة: كتاب الصلاة، أبواب أحكام المساجد، باب ٣، ح١.

فارغاً صحيحاً)[١] وعن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (اشترط رسول الله (صلى الله عليه وآله) على جيران المسجد شهود الصلاة وقال: لينتهين أقوام لا يشهدون الصلاة أو لآمرنّ مؤذناً يؤذّن ثم يقيم ثم لآمرن رجلاً من أهل بيتي وهو علي بن أبي طالب فليحرقنّ على أقوام بيوتهم بحزم الحطب لأنهم لا يأتون الصلاة).

٨- **الجلوس في المسجد خير من الجلوس في الجنة:** عن علي (عليه السلام) قال: (الجلسة في الجامع خير لي من الجلسة في الجنة، لأن الجنة فيها رضا نفسي والجامع فيه رضا ربي)[٢].

٩- **المسجد أحب البقاع إلى الله وفضل تطويل البقاء فيها:** ففي الكافي عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: (قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) لجبرائيل (عليه السلام): يا جبرائيل أي البقاع أحب إلى الله عز وجل؟ قال: المساجد وأحب أهلها إلى الله أولهم دخولاً وآخرهم خروجاً منها)[٣].

الصحوة باتجاه كيان المسجد في الإسلام:

أيها الأحبة:

هذا بعض ما ورد في عظمة المساجد وبركتها على الفرد والمجتمع، وقد لمسنا ذلك على أرض الواقع، لذا فنحن مطالبون اليوم بـ(صحوة) و (يقظة) من هذه الغفلة والتقصير في حق المساجد بل في حق أنفسنا إذ لم نستثمر هذه الفرصة

(١) الحديثان تجدهما في وسائل الشيعة: كتاب الصلاة، أحكام المساجد، باب ٢، ح٣، ٦.

(٢) وسائل الشيعة: كتاب الصلاة، أبواب أحكام المساجد، باب ٣، ح٦.

(٣) الكافي: ج٣، صفحة ٤٨٩، ح١٤، باب النوادر.

العظيمة للطاعة التي أتاحها الله تبارك وتعالى حتى لا نكون ممن يشكوهم المسجد كما ورد في الحديث الشريف عن الإمام الصادق (عليه السلام): (ثلاثة يشكون إلى الله عز وجل: مسجد خراب لا يصلي فيه أهله، وعالم بين جهال، ومصحف معلق قد وقع عليه الغبار لا يقرأ فيه)[1].

إن الفرصة متاحة اليوم لنشر المساجد ومحالّ العبادة وإقامة الشعائر الدينية ومجالس الوعظ والإرشاد في كل مكان ولو بأبسط صورها من دون تصور الأبنية الضخمة، مثلا يوجد كثير من الساحات المتروكة يمكن تسويتها وتحديدها أو تسقيفها لتكون محلاً لاجتماع المؤمنين، أو تهيئة بعض غرف الاستقبال والمضايف في الدور لتؤدي الغرض، أو الوصول إلى مستوى تبرع الأشخاص أو الجهات بإنشاء المساجد وتأسيسها على التقوى [لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ] (التوبة:١٠٨).

أهمية الإعمار المعنوي:

والأهم من الإعمار المادي هو الإعمار المعنوي الذي تشكو منه المساجد في الحديث المتقدم، وإعمارها يكون بإقامة الصلوات فيها والذكر والدعاء وبيان الأحكام الشرعية والأخلاق الفاضلة وتهذيب النفوس ومجالس الوعظ والإرشاد وذكر فضائل أهل البيت (عليهم السلام) ومظلوميتهم والشعائر الدينية وتجنيبها ما ينافي قدسيتها من المحرمات واللغو واللهو وأعمال الدنيا، وفي ذلك ورد عن أبي ذر

(١) وسائل الشيعة: كتاب الصلاة، أبواب حكام المساجد، باب ٥، ح١.

(رضوان الله عليه) عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: (يا أبا ذر الكلمة الطيبة صدقة وكل خطوة تخطوها إلى الصلاة صدقة، يا أبا ذر من أجاب داعي الله وأحسن عمارة مساجد الله كان ثوابه من الله الجنة، فقلت: كيف يعمر مساجد الله؟ قال: لا ترفع الأصوات فيها ولا يُخاض فيها بالباطل ولا يشترى فيها ولا يباع واترك اللغو ما دمت فيها، فإن لم تفعل فلا تلومن يوم القيامة إلا نفسك)[١].

وفي الحديث الشريف: (يأتي في آخر الزمان قوم يأتون المساجد فيقعدون حلقاً ذكرهم الدنيا وحب الدنيا، لا تجالسوهم فليس لله فيهم حاجة)[٢].

ومن وصايا النبي (صلى الله عليه وآله) لأبي ذر (رضوان الله عليه): (يا أبا ذر: كل جلوس في المسجد لغو إلا ثلاثة: قراءة مصلٍّ أو ذكر ذاكر الله تعالى أو سائل عن علم)[٣].

من بركات إعمار المسجد:

إن من بركات إعمار المساجد وإحيائها دفع البلاء عن الأمة وما أحوجنا إليه، روي عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) أنه قال: (إن الله تبارك وتعالى ليريد عذاب أهل الأرض جميعاً حتى لا يحاشي منهم أحداً إذا عملوا بالمعاصي واجترحوا السيئات، فإذا نظر إلى الشيّب ناقلي أقدامهم إلى الصلوات، والوُلدان يتعلمون القرآن رحمهم اله فأخّر ذلك عنهم)[٤] ومن وصايا النبي (صلى الله عليه وآله) لأبي ذر: (يا أبا ذر: يقول الله تعالى: إن أحب العباد إليّ المتحابون بجلالي المتعلقة قلوبهم بالمساجد

(١) المصدر، باب ٢٧، ح٣.

(٢) المصدر، باب ١٤، ح٤.

(٣) بحار الأنوار: ٣٧٠/٨٣.

(٤) وسائل الشيعة: كتاب الصلاة، أبواب أحكام المساجد، باب ٣، ح٣.

المستغفرون بالأسحار، أولئك إذا أردت بأهل الأرض عقوبة ذكرتهم فصرفت العقوبة عنهم)[1].

فسارعوا أيها المؤمنون [إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ] (آل عمران:١٣٣) [إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ] (التوبة:١٨) [وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُو مَعَ اللَّهِ أَحَداً] (الجن:١٨).

ولنستثمر التوجه الحاصل في شهر رمضان فنديمه ونخلق الحوافز الإضافية له وليقم طلبة العلوم الدينية والخطباء والمبلغون بدورهم وواجبهم في هذه الحركة المباركة. ويحسن مراجعة كتاب (شكوى المسجد) وآخر فصل من كتاب (نحن والغرب) لمعرفة أسباب عزوف الناس عن المساجد وكيفية علاجها وأمور مفيدة أخرى والحمد لله رب العالمين.

(١) بحار الأنوار: ٣٧٠/٨٣.

القبس القرآني

٨٠

(**يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ**)[١] [المائدة: ٥٤]

الحب الإلهي

الحمد لله كما هو أهله وكما يستحقه حمداً كثيراً، والصلاة والسلام على أشرف الخلق وأكملهم أبي القاسم محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين.

حببوا الله تعالى للناس:

ورد في حديث نبوي شريف أنه توجد فئة من الناس لهم مقام رفيع يوم القيامة يغبطهم عليه الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين، وتشرأبُّ أعناق طالبي الكمال إزاء مثل هذه الأحاديث ويقبلون عليها بكلّهم، والحديث الشريف عن النبي (صلى الله عليه وآله) قال: (إني لأعرف ناساً ما هم أنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء بمنزلتهم يوم القيامة: الذين يحبّون الله ويحببونه إلى خلقه يأمرونهم بطاعة الله فإذا أطاعوا الله أحبهم الله)[٢].

فمن الغريب أنك تجد بعض الناس يتحمّس في الدعوة إلى محبة حزبه أو فريقه الرياضي الذي يشجعه، أو الشخص الذي يعجبه، ويغفل عن الدعوة إلى محبة خالقه الكريم ويزهد في هذا المنزلة الرفيعة وهي منزلة قد لا يبدو من الصعب وصول الإنسان إليها بلطف الله تبارك وتعالى وتوفيقه إذ ليس عليه إلا أن

---

(١) خطبة سماحة آية الله الشيخ اليعقوبي (دام ظله) في صلاة عيد الأضحى سنة ١٤٣٠ التي أقيمت بتأريخ ٢٠٠٩/١١/٢٨.

(٢) مجمع الزوائد للهيثمي: ١٢٦/١.

يحبّبَّ الله تعالى إلى مخلوقاته.

يأمر الله تعالى النخبة من عبادة ليكونوا من الدعاة إلى محبة الله تعالى، ففي حديث عن الإمام الباقر (عليه السلام) قال: (أوحى الله تعالى إلى موسى (عليه السلام): أحببني وحببني إلى خلقي، قال موسى: يا رب إنك لتعلم أنه ليس أحدٌ أحبُّ إلي منك فكيف لي بقلوب العباد؟ فأوحى الله إليه: فذكّرهم نعمتي وآلائي فإنهم لا يذكرون مني إلا خيراً)[1]، وورد مثله[2] عن النبي داود (عليه السلام).

كيف تحبب الله تعالى؟

وهذا الحديث يبين طريقاً لتحبيب الله تعالى إلى خلقه **بتذكيرهم بنعمه التي لا تُعدّ ولا تحصى**، ولا تحتاج معرفتها إلى مؤونة كبيرة، وليقم الإنسان بمراجعة لنفسه وحاله ليعرف سعة النعم، فمثلاً إذا جلس على الطعام ورأى أنواع المواد الداخلة في إعداده، وكم بُذل عليها من جهود لتصل إليه بهذا الشكل، ولننظر في الخبز الذي هو طعام مشترك لكل الناس كيف تعب الزرّاع لإنتاج حبات القمح ثم طحنت وعُجنت وخبزت، وكل مرحلة من هذه المراحل يقوم عليها عمال ومكائن ولوازم أخرى كالوقود والماء وغيرها، فإذا تأمل الإنسان في هذه المنظومة الواسعة من النعم التي تشترك لتقدم له رغيف الخبز، أحبَّ الإنسان خالقه الذي هيّأ له كل هذه الأسباب وذلّل له كل الصعوبات، وإذا تأمل في الأنواع الأخرى من طعامه وشرابه فإنه سيعجز عن إدراكها فضلاً عن استقصائها.

---

(١) بحار الأنوار: ٣٥١/١٣.

(٢) بحار الأنوار: ٣٨/١٤.

لذلك حكي عن البعض أنه كان يبكي حينما يقدَّم له الطعام لما يراه من أعظم النعم.

وهذا لا يعني اقتصار النعم على المطعم والمشرب، ومن ظن ذلك فهو جاهل، فإن لله تبارك وتعالى على عبده نعماً لا تحصى على رأسها الإيمان بالله تعالى وتوحيده ونعمة الإسلام وولاية النبي وأهل بيته الطاهرين (صلوات الله عليهم أجمعين) وقد تضمن دعاء الإمام الحسين (عليه السلام) يوم عرفه جملة من تلك النعم من قبل خروجنا إلى هذه الدنيا، ولو تعرّف الإنسان على عجائب بدنه لرأى عجباً. في أمالي الشيخ الطوسي عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: (من لم يعلم فضل الله عليه إلا في مطعمه ومشربه فقد قصر علمه ودنا عذابه)[1] فإذا علم الإنسان بعض ما أنعم عليه ربه –وهي لا تعد ولا تحصى- أحبه، لأن الإنسان مجبول فطرياً على حب من أحسن إليه، ولو أن شخصاً وفّر لآخر واحدة من نعم الله كالحياة بإنقاذه من غرق أو موت محقق أو وفّر له نعمة البصر أو السمع أو الطعام لأحبه وكان مديناً له طول حياته بذلك الإحسان. فكيف لا يحب الله تعالى الذي وفّر له كل هذه النعم.

عرّفوا الله تعالى بما هو أهله من الكمال:

ومن الوسائل الأخرى لتحبيب الله تعالى إلى خلقه بيان صفاته الحسنى وتعريفه إلى خلقه بما هو أهله من الكمال فإن الإنسان ينجذب فطرياً إلى الجمال والكمال، وذلك يتطلب معرفة فإنه لا حب إلا بمعرفة، فنحن لم

(١) بحار الأنوار: ٦٩/٢٠.

نرَ رسول الله (صلى الله عليه وآله) ولا أمير المؤمنين (عليه السلام) ولا الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء والحسن والحسين والأئمة المعصومين والأنبياء والرسل (صلوات الله عليهم أجمعين) ولم نعايشهم ولكنهم وُصفوا لنا بمحاسن الأخلاق واطلعنا على سيرتهم الكريمة وسمو ذواتهم ومواقفهم النبيلة فأحببناهم، أما الجاهل بهم فإنه لا يعرفهم حتى يحبهم، وهكذا العلماء من السلف الصالح (قدس الله أرواحهم) فإن العامي الذي لا يعرف قيمة إنجازاتهم العظيمة يكون حبه هامشياً مجملاً، أما العلماء الذين وقفوا على مؤلفاتهم وسبروا أغوار علومهم وعلموا قوة ملكاتهم والجهود المضنية التي بذلوها فإنهم يحملون لهم كل الحب والإجلال والتعظيم.

وهكذا إذا تعرّف الإنسان على الصفات الحسنى لخالقه أحبّه، فمثلاً إذا عرف سعة عفوه عن المذنبين وقرأ قوله تعالى: [قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ] (الزمر:٥٣) وقرأ بعض الروايات في ذلك كقول الإمام الكاظم (عليه السلام) في الشاب الذي قتل مائة بريء وكان يائساً من عفو الله عنه فقال (عليه السلام): (إن يأسه من رحمة الله أعظم من قتله مائة نفس محرمة).

أو عرف سعة رحمة الله تبارك وتعالى بعباده وأنه تعالى وزّع جزءاً من مائة جزء من رحمته على مخلوقاته فبها تتراحم)، تصوروا أن رحمة الأمهات والآباء بأبنائهم لدى الإنسان والحيوان والمشاعر النبيلة التي تتدفق عند رؤية مبتلى أو عاجز أو ذوي عاهة، تشكّل هذه كلها جزء من مائة جزء من رحمة الله تعالى التي لا حدود لها، والقصص في رحمة الله تعالى وتدبيره لأمر خلقه ورعايتهم عجيبة.

أو عرف كيف أن الله يستر على المذنبين والخاطئين ويحفظ كرامتهم ويصون سمعتهم بين الناس كقصة السيد بحر العلوم (قدس سره) الذي أمره الإمام المهدي (أرواحنا له الفداء) بأن يزور رجلاً عادياً من عامة الناس ويبشره بعلو منزلته لخصلة أحبّها الله تعالى فيه وهي أنه لما تزوج امرأة لم يجدها باكراً فطلبت منه الستر عليها وعدم فضحها فاستجاب لطلبها قربة إلى الله تعالى.

أقول: إذا تعرف الإنسان على مثل هذه الصفات لخالقه أحبه قطعاً.

التعرّف على سيرة الأنبياء والرسل والأوصياء:

ومما يحبّب الله تعالى إلى عباده التعرف على سيرة أنبيائه ورسله وأوصيائهم المنتجبين وسمو أخلاقهم وطهارة نفوسهم، فإن رباً يكون رسله وسفراؤه إلى خلقه مثل نبينا الأكرم محمد (صلى الله عليه وآله) ويكون أولياؤه مثل علي بن أبي طالب (عليه السلام) لجدير بأن يستأثر بحب عباده، لأنهم يعكسون صورة عن صفات ربهم. وكمثال على ذلك أن بعض الناس يحبون مرجعية ما ويقلدونها لأن وكيلها ومعتمدها عندهم حسن السيرة محبوب عندهم.

أحبوا الله تعالى ثم حببوه الى الآخرين:

ولا بد للإنسان قبل أن يحبب الله تعالى إلى خلقه أن ينطوي قلبه على حب الله تعالى، ويظهر من الآيات الكريمة والروايات الشريفة أن هذا الحب علامة الإيمان، بل لا يؤثر عليه حب غيره، قال تعالى: [قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى

يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ] (التوبة:٢٤) وقال تعالى: [وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ] (البقرة: ١٦٥) وقال تعالى: [فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ] (المائدة: ٥٤).

متى يحصل الحب الإلهي؟

وروي أنه سئل رسول الله (صلى الله عليه وآله): (يا رسول الله ما الإيمان؟ قال: أن يكون الله ورسوله أحبّ إليك مما سواهما)[1] وفي حديث آخر (لا يؤمن العبد حتى أكون أحبَّ إليه من أهله وماله والناس أجمعين). ويحصل الحب لله تبارك وتعالى بعد تحقق مقدمتين، كلما قويتا قوي الحب وكمُل:

الأولى: تطهير القلب من حب الدنيا وتهيئته بتفريغه لحب الله تعالى، فإن القلوب أوعية لا تستوعب أمراً ما حتى تخليها من غيره، قال تعالى: [مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ] (الأحزاب: ٤) وقال أمير المؤمنين (عليه السلام): (إن كنتم تحبون الله فأخرجوا من قلوبكم حب الدنيا) وعن الإمام الصادق (عليه السلام): (إذا تخلى المؤمن من الدنيا سما ووجد حلاوة حب الله تعالى) ولذا وردت الوصية فيه عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (القلب حرم الله فلا تسكن حرم الله غير الله).

وروي أن النبي (صلى الله عليه وآله) نظر إلى مصعب بن عمير مقبلاً وعليه إهاب كبش قد تنطق به فقال (صلى الله عليه وآله): (انظروا إلى هذا الرجل الذي قد نوّر الله قلبه، لقد رأيته بين أبويه يغذونه بأطيب الطعام والشراب فدعاه حب الله وحب رسوله إلى ما

(١) الحديث والذي يليه تجده في مجموعة ورّام (تنبيه الخواطر ونزهة النواظر): ٢٢٣/١.

ترون)[١].

الثانية: المعرفة بالله تعالى، فإنه لا حب إلا بعد المعرفة، ولا يحب الإنسان شيئاً يجهله؛ ويكرر القرآن الكريم كثيراً الأمر بالتدبر والتأمل والتفكر في آيات الله للوصول إلى المعرفة، قال تعالى: [سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ] (فصلت:٥٣).

وتفاوت الناس في حبهم لله تبارك وتعالى بمقدار تفاوتهم في هاتين المقدمتين، وتبعاً لذلك تتفاوت درجاتهم عند الله تبارك وتعالى.

آثار حب الإنسان لله تعالى وعلاماته:

إذا كان الحب صادقاً فإن آثاره ستظهر على سلوك الإنسان وعلاقته بالآخرين، فهذه الآثار تكون علامات على صدق الحب، ومن دون تحققها يكون ادعاء الحب وهماً:

١- **طاعة المحبوب والقيام بكل ما يقربه من محبوبه** ويطبّق ما يكسبه رضاه ويجتنب ما يسخطه، ففي الحديث: (قال رجل للنبي (صلى الله عليه وآله): يا رسول الله علّمني شيئاً إذا أنا فعلته أحبني الله من السماء وأحبني الناس من الأرض، فقال (صلى الله عليه وآله) له: ارغب فيما عند الله عز وجل يحبّك الله، وازهد فيما عند الناس يحبّك الناس)[٢] قال الله تبارك وتعالى: [قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ] (آل عمران:٣١)، قال الإمام الصادق

(١) المحجة البيضاء، كتاب مقامات القلب: ١١٤.

(٢) بحار الأنوار: ٥/٧٠ عن ثواب الأعمال والخصال.

(عليه السلام): (ما أحب اللهَ عز وجل من عصاه، ثم تمثّل فقال:

تعصي الإله وأنت تُظهرُ حبّهُ هـذا لعمري في الفعال بديعُ

لو كان حبّـك صادقاً لأطـعتَه إن المحب لمن أحبَّ مطيعُ[1]

ولا يجتنب المحرمات فقط بل يترك المكروهات لأن الله تعالى لا يحبها.

٢- إدامة ذكر الله تبارك وتعالى، فإن المحب لا يغفل عن ذكر حبيبه ومن أحب شيئاً أكثر ذكره بلسانه أو بقلبه وعقله وأحبّ ذكر الله تعالى، عن الرسول (صلى الله عليه وآله): (علامة حب الله تعالى حب ذكر الله، وعلامة بغض الله تعالى بغض ذكر الله تعالى)[2]، ودوام ذكر الله تعالى حصن الإنسان من الوقوع فيما يسخط الله تعالى ويبعد منه ومفتاح الارتقاء في الكمالات وسبب لذكر الله تعالى إياه [فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ] (البقرة: ١٥٢).

٣- إيثار محبة الله على ما يحبه العبد، فإذا خُيِّر بين أمرين اختار أرضاهما لله تبارك وتعالى وإن كان على خلاف هواه وما تشتهيه نفسه، لأن المحب يؤثر رضا محبوبه على رضا نفسه ففي البحار عن الإمام الصادق (عليه السلام): (دليل الحب، إيثار المحبوب على من سواه).

٤- إنه سيحب كل من يرتبط بمحبوبه فيحب الأنبياء والرسل (صلوات الله عليهم أجمعين) لأنهم مبعوثون من الله تبارك وتعالى، ويحب الأئمة والأوصياء (عليهم السلام) لأنهم منتجبون من الله تبارك وتعالى، ويحب القرآن لأنه رسالة ربه إلى

---

(١) بحار الأنوار: ١٥/٧٠ عن أمالي الصدوق.

(٢) ميزان الحكمة: ٥١٠/١.

عباده، عن الإمام الباقر (عليه السلام) قال: (قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) للناس وهم مجتمعون عنده: أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمة وأحبوني لله عز وجل وأحبوا قرابتي لي)[1] ويحب العلماء والفقهاء لأنهم يهدونه إلى الله تبارك وتعالى، ويحب الشعائر والمشاعر المقدسة لأنها تذكّره بالله تعالى، ويحب المؤمنين لأنهم أهل طاعة الله تعالى، عن الإمام الباقر (عليه السلام): (إذا أردت أن تعلم أن فيك خيراً فانظر إلى قلبك فإن كان يحب أهل طاعة الله عز وجل ويبغض أهل معصيته ففيك خير والله يحبك، وإن كان يبغض أهل طاعة الله ويحب أهل معصيته فليس فيك خير والله يبغضك، والمرء مع من أحب).

٥- **وإذا أحبَّ العبدُ ربَّه نشطت الأعضاء للعبادة** ولم يستثقلها واستزاد منها فلم يقتصر على الواجبات، بل يكثر من المستحبات لأنها محبوبه عند الله تعالى، عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (كان فيما ناجى الله عز وجل به موسى بن عمران (عليه السلام) أن قال: يا بن عمران كذب من زعم أنه يحبني فإذا جنه الليل نام، أليس كل محب يحب خلوة حبيبه، هذا أنا ذا يا بن عمران مطلع على أحبائي إذا جنّهم الليل حوّلت أبصارهم من قلوبهم ومثلت عقوبتي بين أعينهم، يخاطبوني عن المشاهدة، ويكلموني عن الحضور، يا بن عمران هب لي من قلبك الخشوع ومن بدنك الخضوع ومن عينيك الدموع في ظلم الليل وادعني فإنك تجدني قريباً مجيباً)[2].

(١) بحار الأنوار: ١٦/٧٠ عن علل الشرائع والأمالي للصدوق.

(٢) بحار الأنوار: ١٤/٧٠ عن أمالي الصدوق.

٦- ومن علامات حب الله تعالى أن العبد لا يكره الموت قال تعالى: [قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ] (الجمعة:٦) في الرد على زعمهم [وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ] (المائدة:١٨)، وكيف يكرهه وبه ينتقل الإنسان من سجن الدنيا إلى حظيرة القدس ولقاء ربه وأوليائه (وإذا علم أنه لا وصول إلى هذا اللقاء إلا بالارتحال عن الدنيا بالموت، فينبغي أن يكون محباً للموت غير فارٍ منه، فالمحب لا يثقل عليه السفر عن وطنه إلى مستقر محبوبه ليتنعم بمشاهدته. والموت مفتاح اللقاء وباب الدخول إلى المشاهدة قال النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله): (من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه))[١].

نعم قد يحب الإنسان البقاء في الدنيا للاستزادة من طاعة الله تبارك وتعالى ونيل رضاه وهذا لا ينافي الحب ((وفي الخبر المشهور أن إبراهيم (عليه السلام) قال لملك الموت إذ جاءه لقبض روحه: هل رأيت خليلاً يميت خليله؟ فأوحى الله تعالى إليه: هل رأيت محباً يكره لقاء حبيبه، فقال: يا ملك الموت الآن فاقبض))[٢].

٧- ومن علامات حب الله تعالى وآثاره أنه يسعى للاتصاف بصفاته الحسنى، فالمحب يتمثل في حياته كل حركات وسكنات بل رغبات محبوبه، كما نجد من يحب عالماً أو بطلاً فيقلّده في ملبسه ومشيته ومطعمه وحركاته ونحوها، فالعبد إذا أحب ربه اتصف بصفاته الحسنى.

---

(١) المحجة البيضاء للفيض الكاشاني، كتاب مقامات القلب.

(٢) مجموعة ورام: ٢٢٣/١.

٨- ومن علامات حبّ الله تعالى حبّ عباده ومخلوقاته والرحمة بهم والشفقة عليهم لأنهم من صنع ربه وإبداعه ولأنهم رعاياه فيسعى لإسعادهم وقضاء حوائجهم وتفريج كربهم ورفع الظلم عنهم. فالذي يقابل حاجة الناس ومعاناتهم بقسوة قلب وعدم اكتراث لا يحلّ في قلبه حبّ الله تعالى.

٩- ومن علامات حب الله تعالى الرضا بقضائه والتسليم لأمره روي (إن رسول الله (صلى الله عليه وآله) مرّ بقومٍ فقال لهم: ما أنتم؟ فقالوا: مؤمنون. فقال: ما علامة إيمانكم؟ قالوا: نصبر على البلاء ونشكر عند الرخاء ونرضى بمواقع القضاء، فقال (صلى الله عليه وآله): مؤمنون برب الكعبة)[١] وقال أيضاً: (إذا كان يوم القيامة أنبت الله لطائفة من أمتي أجنحة فيطيرون من قبورهم إلى الجنان يسرحون فيها ويتنعمون كيف شاؤوا فتقول لهم الملائكة: هل رأيتم حساباً؟ فيقولون: ما رأينا حساباً، فيقولون: هل جزتم على الصراط؟ فيقولون: ما رأينا صراطاً، فيقولون لهم: هل رأيتم جهنم؟ فيقولون: ما رأينا شيئاً، فتقول الملائكة: من أمة من أنتم؟ فيقولون: من أمة محمد (صلى الله عليه وآله)، فيقولون: نشدناكم الله حدثونا ما كانت أعمالكم في الدنيا فيقولون: خصلتان كانتا فينا فبلّغنا الله هذه المنزلة بفضله ورحمته، فيقولون: وما هما؟ فيقولون: كنا إذا خلونا نستحي أن نعصيه ونرضى باليسير مما قسم لنا، فتقول الملائكة: يحق لكم هذا)[٢].

١٠- وأن يكون الحب ممزوجاً بالخوف من الإعراض أو الإبعاد أو

---

(١) مجموعة ورام: ٢٢٩/١.

(٢) مجموعة ورام: ٢٣٠/١.

أن يستبدل به غيره، يروى أن الإمام (عليه السلام) إذا أحرم ولبى وقال: (لبيك اللهم لبيك) كانت ترتعد فرائصه ويقول: أخشى أن يجيبني الله تبارك وتعالى: لا لبيك). وقد يكون الخوف من التوقف وعدم التوفيق لمزيد القرب من الله تعالى فيكون من أهل الحديث: (من استوى يوماه فهو مغبون، ومن كان يومه شراً من أمسه فهو ملعون)[١].

جزاء من يحب الله تبارك وتعالى:

١- إذا أحب العبد ربه أحبه وقرّبه منه وأدخله جنته قال تعالى: (يُحِبُّهُم وَيُحِبُّونَهُ)، عن الإمام الصادق (عليه السلام): (من أحب أن يعلم ماله عند الله فلينظر ما لله عنده)[٢] ويشرح الحديث الآخر كيفية معرفة ذلك عن أمير المؤمنين (عليه السلام): (من أراد منكم أن يعلم كيف منزلته عند الله فلينظر كيف منزلة الله منه عند الذنوب كذلك منزلته عند الله تبارك وتعالى)، وفي حديث آخر عن علي (عليه السلام) قال: (من أحب أن يعلم كيف منزلته عند الله فلينظر كيف منزلته عنده فإن كل من خيِّر له أمران أمر الدنيا وأمر الآخرة فاختار أمر الآخرة على الدنيا فذلك الذي يحب الله ومن اختار الدنيا فذلك الذي لا منزلة لله عنده)[٣].

وروي في أخبار داود (عليه السلام) (يا داود أبلغ أهل أرضي أني حبيب من أحبني، ما أحبني أحد أعلم ذلك يقيناً من قلبه إلا قبلته لنفسي وأحببته حباً لا

(١) معاني الأخبار للصدوق: ٢٤٢.

(٢) الحديث وما بعده في بحار الأنوار: ١٨/٧٠ عن معاني الأخبار والخصال.

(٣) بحار الأنوار: ٢٦/٧٠.

يتقدمه أحد من خلقي، من طلبني بالحق وجدني ومن طلب غيري لم يجدني، فارفضوا يا أهل الأرض ما أنتم عليه من غرورها وهلموا إلى كرامتي ومصاحبتي ومجالستي ومؤانستي وآنسوني أؤانسكم وأسارع إلى محبتكم)[١].

٢- وإذا أحب الله عبده: وفقه لطاعته وجنّبه معصيته، روي أن موسى (عليه السلام) قال: (يا رب أخبرني عن آية رضاك عن عبدك فأوحى الله تعالى إليه: إذا رأيتني أهيئ عبدي لطاعتي وأصرفه عن معصيتي فذلك آية رضاي)، وعن الإمام الصادق (عليه السلام): (إذا أحب الله عبداً ألهمه طاعته). وفي حديث آخر (إذا أحبّ الله عبداً جعل له واعظاً من نفسه وزاجراً من قلبه يأمره وينهاه).

٣- وإذا أحب الله عبده: تولى أمره وتدبير شؤونه، ونصره على أعدائه، وأولهم نفسه التي بين جنبيه فلا يخذله ولا يكله إلى نفسه وشهواته، وفي الحديث عن النبي (صلى الله عليه وآله): (عن جبرئيل قال: قال الله تبارك وتعالى: وإن من عبادي المؤمنين لمن يريد الباب من العبادة فأكفّه عنه لئلا يدخله عجب فيفسده، وإن من عبادي المؤمنين لمن لم يصلح إيمانه إلا بالفقر ولو أغنيته لأفسده ذلك، وإن من عبادي المؤمنين لمن لا يصلح إيمانه إلا بالغنى ولو أفقرته لأفسده ذلك)[٢] إلى آخر الحديث.

٤- وإذا أحب الله عبده: كان دليله وسدد خطاه وأنار بصيرته وما أحوجنا إلى دليل يسدّدنا ويميّز بين الحقّ والباطل ويبصّرنا بحقائق الأمور، في الحديث

(١) الحديث والذي يليه في بحار الأنوار: ٢٦/٧٠.

(٢) علل الشرائع: ١٢ الباب ٩، ح٧.

النبوي المتقدم: قال الله تبارك وتعالى: (وما يتقرب إليّ عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه ولا يزال عبدي يبتهل إليّ حتى أحبه، ومن أحببته كنت له سمعاً وبصراً ويداً وموئلاً إن دعاني أجبته وإن سألني أعطيته)[١].

٥- وإذا أحبّ الله عبداً حشره مع من أحب، جاء إعرابي إلى النبي (صلى الله عليه وآله) (فقال: يا رسول الله متى الساعة؟ فقال (صلى الله عليه وآله): ماذا أعددت لها؟ فقال: ما أعددت كثير صلاة ولا صيام إلا أنّي أحب الله ورسوله، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): المرء مع من أحب. قال: فما رأيت المسلمين فرحوا بشيء بعد الإسلام فرحهم بذلك)[٢].

ما يحببكم إلى الله تعالى:

من خلال استقراء الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة تحصل على قائمة طويلة بما يحببك إلى الله تعالى، قال تعالى: [إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ] (البقرة: ٢٢٢) وقال تعالى: [إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ] (الصف:٤).

ومن الأحاديث الشريفة[٣] عن النبي (صلى الله عليه وآله): (ثلاثة يحبها الله سبحانه: القيام بحقه، والتواضع لخلقه والإحسان لعباده) وعنه (صلى الله عليه وآله): (ثلاثة يحبها الله: قلة الكلام، وقلة المنام، وقلة الطعام، ثلاثة يبغضها ا لله: كثرة الكلام، وكثرة المنام، وكثرة الطعام) وعنه (صلى الله عليه وآله) قال: (يقول الله تعالى: إنّ أحبَّ العباد إلي المتحابون

(١) وفي المحاسن: (كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ولسانه الذي ينطق به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها) (بحار الأنوار: ٢٢/٧٠).

(٢) مجموعة ورام: ٢٢٣/١.

(٣) هذه الأحاديث نقلت من بحار الأنوار ومجموعة ورام.

بحلالي المتعلقة قلوبهم بالمساجد المستغفرون بالأسحار، أولئك إذا أردت بأهل الأرض عقوبة ذكرتهم فصرفت العقوبة عنهم).

وعن رسول الله (صلى الله عليه وآله): (أحب العباد إلى الله عز وجل رجل صدوق في حديثه محافظ على صلواته وما افترض الله عليه مع أدائه للأمانة) وعنه (صلى الله عليه وآله): (أحب المؤمنين إلى الله من نصب نفسه في طاعة الله ونصح لأمة نبيه وتفكّر في عيوبه وأبصر وعقل وعمل) وعن الإمام الباقر (عليه السلام): (ما عبد الله بشيء أحب إلى الله عز وجل من إدخال السرور على المؤمن) وعن الإمام الصادق (عليه السلام): (ألا وإن أحب المؤمنين إلى الله من أعان المؤمن الفقير من الفقر في دنياه ومعاشه ومن أعان ونفع ودفع المكروه عن المؤمنين)، وعن الإمام الباقر (عليه السلام) عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: (ما بني بناء في الإسلام أحب إلى الله عز وجل من التزويج)[1].

أوثق عرى الإيمان:

أيها الأحبة:

إن الله تبارك وتعالى يحبُّكم لأنه خالقكم وصانعكم وأبدع في صنعكم وجعلكم في أحسن تقويم وكرّمكم وفضلكم على كثير ممن خلق وسخّر لكم ما في الأرض جميعاً ويباهي بكم ويتحدى بكم من اتخذوهم أرباباً من دونه وأنداداً له [هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ] (لقمان:١١) يروى أن أبا تمام الشاعر المشهور يقول إن كل بيت من شعري عندي كابني، أقول: هذا وهو بيت من الشعر مهما كان بديعاً، فما هو محل هذا الكائن

(١) وسائل الشيعة: كتاب النكاح، باب استحبابه، ح٤.

العجيب عند خالقه ومبدعه.

أتحسب أنّك جرمٌ صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

فأحبوا الله تبارك وتعالى وحببوه إلى عباده وأحبوا عباد الله ومخلوقاته، واجعلوا دليلكم في من تحبون ومن تبغضون حب الله لهم وبغضه إياهم، في الكافي عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (مِن أوثق عرى الإيمان أن تحب في الله وتبغض في الله وتعطي في الله وتمنع في الله)[1] وفي المحاسن عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع له فهو ممن كمل إيمانه).

(١) الحديث والذي يليه في بحار الأنوار: ٢٣٨/٦٩-٢٣٩.

القبس القرآني

٨١

﴿فأمَّا اليَتِيمَ فلا تَقهَرْ﴾[١] [الضحى : ٩]

رعاية الأيتام

هل تريد أن تكون مع السيدة الزهراء (عليها السلام):

قد يبدو توجيه السؤال غريباً ومعروف الجواب سلفاً، إذ لا يوجد عاقل لا يريد أن يكون مع الصديقة الطاهرة الزهراء (عليها السلام) في درجتها، ولكن وجه السؤال هو معرفة ما يصل به الإنسان إلى تلك الدرجة.

وأين هي درجة الزهراء (عليها السلام)؟ إنها مع أبيها (صلى الله عليه وآله) وبعلها وبنيها (صلوات الله عليهم أجمعين) [فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ] (القمر:٥٥) [أُوْلَـئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـئِكَ رَفِيقاً] (النساء:٦٩)، بل هم (صلوات الله عليهم وسلامه) الجنة الحقيقية، قال تعالى: [وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللّهِ أَكْبَرُ] (التوبة: ٧٢) ورضا الله تعالى رضاهم كما ورد في الحديث النبوي المتواتر: (إن الله يرضى لرضا فاطمة ويغضب لغضبها)[٢] وقال الإمام الحسين (عليه السلام): (رضا الله رضانا أهل البيت)[٣].

---

(١) الخطاب الذي ألقاه سماحة المرجع اليعقوبي (دام ظله) على الآلاف من المؤمنين الذين احتشدوا في ساحة ثورة العشرين في النجف الأشرف صباح يوم الثلاثاء ٣ ج٢ ١٤٣١ المصادف ٢٠١٠/٥/١٨ قبل انطلاق التشييع للنعش الرمزي للصديقة الطاهرة الزهراء في الزيارة الفاطمية.

(٢) الإمامة والسياسة لابن قتيبة : ١٤/١، أعلام النساء : ٣١٤/٣.

(٣) الملهوف: ص١٢٦.

معنى (فاطمة بضعة مني):

وقد أخبر رسول الله (صلى الله عليه وآله) عن هذه المعيّة والملازمة بينه (صلى الله عليه وآله) وبينهم (صلوات الله عليهم أجمعين) في حديث الثقلين المشهور عن النبي (صلى الله عليه وآله): (إني تاركٌ فيكم الثقلين كتاب الله عز وجل وعترتي، كتاب الله حبلٌ ممدودٌ من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، وإن اللطيف أخبرني أنهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض فانظروا بمَ تخلّفوني فيهما)[1].

وفي حديث النبي (صلى الله عليه وآله) مع أمير المؤمنين علي (عليه السلام): (وأنت معي في قصري في الجنة مع فاطمة ابنتي)[2] وحينما يقول النبي (صلى الله عليه وآله) في ابنته الزهراء :(فاطمة بضعة مني فمن أغضبها فقد أغضبني)[3] فإنه (صلى الله عليه وآله) لا يريد أن الزهراء (عليها السلام) ابنته وتولدت منه فهي جزء منه، لأن هذا المعنى عام يشترك فيه كل الناس ولا خصوصية لفاطمة من هذه الناحية حتى تستحق البيان، فكل ابن وبنت هما بضعة من والديهما، وإنما يريد (صلى الله عليه وآله)، أن فاطمة (عليها السلام) جزء من وجوده المعنوي وامتداد مبارك له وأنها شعاع من شمسه المنيرة. لذا فرّع على هذا المعنى أن من أغضبها فقد أغضبه (صلى الله عليه وآله).

وقد أكّد الإمام الحسين (عليه السلام) هذا المعنى في خطابه الذي ألقاه في مكة

---

(١) الحديث من مسند أحمد بن حنبل، وتجد مصادره من كتب العامة في كتاب (فضائل الخمسة من الصحاح الستة): ٥٢/٢-٦٢.

(٢) كنز العمال: ٤٠٠/٥ الحديث ٣٦٣٤٥ ومصادر الحديث من كتب العامة في (فضائل الخمسة من الصحاح الستة): ١٢٩/٣-١٣١.

(٣) هذا نص البخاري في صحيحه وتوجد مصادره في المصدر السابق.

المكرمة قبل خروجه إلى العراق ومما قال (عليه السلام): (رضا الله رضانا أهل البيت نصبر على بلائه ويوفينا أجور الصابرين، لن تشذ عن رسول الله لحمته، بل هي مجموعة له في حظيرة القدس تقرّ بهم عينه، وينجز بهم وعده)[1].

المعية مع رسول الله (صلى الله عليه وآله):

أيها الأحبة: لقد كفانا رسول الله (صلى الله عليه وآله) مؤونة البحث عن إجابة السؤال الذي جعلناه عنواناً للخطاب، ودلّنا على ما يوجب اللحوق به (صلى الله عليه وآله) وببضعته الطاهرة (عليها السلام) في أحاديث عديدة، كالذي رواه الترمذي في صحيحه وأحمد بن حنبل في مسنده وغيرهم من علماء العامة عن أمير المؤمنين (عليه السلام) عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) أنه (أخذ بيد حسن وحسين (عليهما السلام) فقال: من أحبني وأحب هذين وأباهما وأمهما كان معي في درجتي يوم القيامة)[2] ولكن هذه الأحاديث يجب أن تُفهم في سياقاتها الطبيعية أي المعنى الحقيقي للحب ولوازمه وآثاره.

من كفل يتيما كان معهم (عليهم السلام):

والذي نريد أن نجعله محوراً لكلامنا اليوم ما رواه الإمام الصادق (عليه السلام) عن آبائه (صلوات الله عليهم أجمعين) عن رسول الله () قال: (من كفل يتيماً وكفل نفقته كنت أنا وهو في الجنة كهاتين وقرن بين إصبعيه المسبّحة والوسطى)[3].

---

(١) مقتل الحسين (عليه السلام): للسيد المقرم: ١٩٣.

(٢) تجد مصادر الحديث في كتاب (فضائل الخمسة من الصحاح الستة: ٢٩٩/١-٣٠٠.

(٣) بحار الأنوار: ٣/٧٥ عن قرب الإسناد بسند مقبول.

وفي رواية أخرى قال (صلى الله عليه وآله): (أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة إذا اتقى الله عز وجل) وأشار بالوسطى والتي تليها)[١]، والحديث مشهور، وإن كان ينقل من دون جزئه الأخير الذي هو شرط قبول الأعمال، قال تعالى: [**إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ**] (المائدة:٢٧) لكنه هنا شرط لكون كافل اليتيم في درجة رسول الله (صلى الله عليه وآله) وليس شرطاً لإعطاء الجزاء، لأن أعمال البر والإحسان يثاب عليها الإنسان ولو لم يقصد بها وجه الله تعالى.

فضل كافل اليتيم:

إذن هذا سبيل يوصلك لتكون مع رسول الله (صلى الله عليه وآله) في درجته بلطف الله تبارك وتعالى وكرمه، وقد تواترت الأحاديث في فضل كفالة اليتيم ورعايته منها ما روي عن رسول الله قوله: (إن في الجنة داراً يقال لها دار الفرح لا يدخلها إلا من فرّح يتامى المؤمنين)[٢] وقوله (صلى الله عليه وآله): (من قبض يتيماً من بين المسلمين إلى طعامه وشرابه أدخله الله الجنة ألبتة إلا أن يعمل ذنباً لا يغفر)[٣].

وعن أبي الدرداء قال: (أتى النبيَّ (صلى الله عليه وآله) رجل يشكو قسوة قلبه، قال (صلى الله عليه وآله): أتُحبُّ أن يلين قلبك وتدرك حاجتك؟ ارحم اليتيم وامسح رأسه وأطعمه من طعامك يلن قلبك وتدرك حاجتك)[٤].

---

(١) تفسير نور الثقلين: ٥٩٧/٥.

(٢) كنز العمال: ح٦٠٠٨.

(٣) الترغيب والترهيب: ٣٤٧/٣.

(٤) الترغيب والترهيب: ٣٤٩/٣.

وعن أمير المؤمنين (عليه السلام): (ما من مؤمن ولا مؤمنة يضع يده على رأس يتيم إلا كتب الله له بكل شعرة مرّت يده عليها حسنة)[١].

وعن الصادق (عليه السلام) عن آبائه (عليهم السلام): (قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): من عال يتيماً حتى يستغني عنه أوجب الله عز وجل له بذلك الجنة كما أوجب الله لآكل مال اليتيم النار)[٢].

الأيتام المعنويون:

ويوجد أيتام من نوع آخر هم أكثر عدداً يكاد يمثلون أغلب الناس، وكفالتهم لا تحتاج إلى المال، بل إلى الجهد والهمة والإخلاص، وكافلهم يكون أقرب إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) من الأول، تعرّفهم لنا جملة من الأحاديث الشريفة[٣] وتبين منزلتهم (الكافلين) عند النبي (صلى الله عليه وآله) وأهل بيته المعصومين (عليهم السلام) عن الإمام أبي محمد الحسن العسكري (عليه السلام) قال: (حدثني أبي عن آبائه عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) أنه قال: أشد من يُتم اليتيم الذي انقطع عن أبيه يتم يتيم انقطع عن إمامه ولا يقدر على الوصول إليه ولا يدري كيف حكمه فيما يبتلى به من شرائع دينه ألا فمن كان من شيعتنا عالماً بعلومنا وهذا الجاهل بشريعتنا المنقطع عن مشاهدتنا يتيم في حجره ألا فمن هداه وأرشده وعلمه شريعتنا كان معنا في الرفيق

---

(١) بحار الأنوار: ٤/٧٥.

(٢) بحار الأنوار: ٤/٧٥.

(٣) هذه المجموعة من الأحاديث أثبتها العلامة المجلسي (قدس سره) في بحار الأنوار: ٢/ ٢-٦ في الباب ٨ من كتاب العقل والعلم والجهل، أبواب العقل والجهل، عن التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري (عليه السلام) وكتاب الاحتجاج للطبرسي.

الأعلى)[١].

وعن أبي محمد العسكري (عليه السلام) قال: (قال الحسن بن علي (عليهما السلام): فضل كافل يتيم آل محمد المنقطع عن مواليه الناشب في رتبة الجهل يخرجه من جهله، و يوضح له ما اشتبه عليه، على فضل كافل يتيم يطعمه ويسقيه كفضل الشمس على السها[٢]).

وعنه (عليه السلام) قال: (قال الحسين بن علي (عليهما السلام) من كفل لنا يتيماً قطعته عنا محبتنا[٣] باستتارنا فواساه من علومنا التي سقطت إليه حتى أرشده وهداه، قال الله عز وجل: يا أيها العبد الكريم المواسي أنا أولى بالكرم منك، اجعلوا له يا ملائكتي في الجنان بعدد كل حرف علّمه ألف ألف قصر، وضموا إليها ما يليق بها من سائر النعم).

وعنه (عليه السلام) قال: (قال موسى بن جعفر (عليهما السلام): فقيه واحد ينقذ يتيماً من أيتامنا المنقطعين عنا وعن مشاهدتنا بتعليم ما هو محتاج إليه أشد على إبليس من ألف عابد؛ لأن العابد همّه ذات نفسه فقط، وهذا همّه مع ذات نفسه ذات عباد الله وإمائه لينقذهم من يد إبليس ومردته، فذلك هو أفضل عند الله من ألف ألف عابد، وألف ألف عابدة).

---

(١) الأحاديث من بحار الأنوار الباب المذكور على التسلسل: ١، ٤، ٥، ٩، ١٠، ١١.

(٢) السها في لغة العرب كويكب صغير خفي الضوء، والناس يمتحنون به أبصارهم لصغره وخفائه.

(٣) أي كان سبب انقطاعه عنا رغبتنا في الاستتار رعاية لحكمة إلهية عظمى. وفي نسخة (محنتنا) وهو أظهر.

وعنه (عليه السلام) قال: (قال علي بن موسى الرضا (عليه السلام): يقال للعابد يوم القيامة: نِعم الرجل كنت همتك ذات نفسك وكفيت الناس مؤونتك فادخل الجنة، ألا إن الفقيه من أفاض على الناس خيره، وأنقذهم من أعدائهم، ووفّر عليهم نعم جنان الله وحصل لهم رضوان الله تعالى. ويقال للفقيه: يا أيها الكافل لأيتام آل محمد الهادي لضعفاء محبيهم ومواليهم قف حتى تشفع لمن أخذ عنك، أو تعلَّم منك فيقف فيدخل الجنة معه فئاماً وفئاماً وفئاماً[1] حتى قال عشراً).

وعنه (عليه السلام) قال: (قال محمد بن علي الجواد (عليه السلام): من تكفل بأيتام آل محمد المنقطعين عن إمامهم المتحيرين في جهلهم، الأُسراء في أيدي شياطينهم، وفي أيدي النواصب من أعدائنا فاستنقذهم منهم، وأخرجهم من حيرتهم، وقهر الشياطين برد وساوسهم، وقهر الناصبين بحجج ربهم ودليل أئمتهم لَيُفضّلون عند الله تعالى على العباد بأفضل المواقع بأكثر من فضل السماء على الأرض و العرش والكرسي والحجب على السماء، وفضلهم على هذا العابد كفضل القمر ليلة البدر على أخفى كوكب في السماء).

الزهراء (عليها السلام) تكفل الأيتام:

وقد كانت الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء (عليها السلام) تحذو حذو أبيها (صلى الله عليه وآله) في أقواله وأفعاله وخصاله الكريمة وهديه وسمته، ومع أن علم الله تعالى سابق بأنها (صلوات الله عليها) في درجة أبيها (صلى الله عليه وآله) في الجنة إلا أنها مع ذلك كانت حريصة (صلوات الله عليها) على أن تقوم بكل ما يقربها إلى الله تعالى ورسوله

(١) فئام: الجماعات الكبيرة من الناس، وطبقت في بعض الموارد –كيوم الغدير– على مئة ألف.

(صلى الله عليه وآله) ويجعلها معه في درجته ولم تتكل على ذلك الاستحقاق والعطاء السابق، بل عزّزته بالمثابرة والعمل الدؤوب وتحمّل كل المشاق في القيام بمسؤولياتها والصبر عليها، فتأكد استحقاقها لتلك الدرجة الرفيعة، وقد ورد في زيارتها (سلام الله عليها) يوم الأحد (السلام عليك يا ممتحنة، امتحنك الذي خلقك قبل أن يخلقك، وكنت لما امتحنك به صابرة) فقد أدت ما عليها ووفت بما عاهدت ربها عليه من الالتزامات فنجحت في الامتحان بأعلى درجات النجاح.

الأيتام بكلا النوعين:

ومن مورد صدقها فيما امتُحنت به كفالة الأيتام بالمستويين اللذين ذكرناهما.

أما الأول فقد شهد الله تبارك وتعالى لها ولزوجها أمير المؤمنين وولديها الحسن والحسين (صلوات الله عليهم) في القرآن الكريم بإطعامهم اليتيم مع حاجتهم للطعام حباً لله تبارك وتعالى وإخلاصاً لوجهه الكريم [**وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً، إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلا شُكُوراً**] (الإنسان: ٨-٩).

ونقرأ في سيرتها (صلوات الله عليها) أنها طحنت بالرحى حتى مجلت يداها وأشعلت التنور حتى دكنت ثيابها وما ذلك لإطعام زوجها وبنيها لأنهم خمص البطون، وكانوا يكتفون من الطعام بما يسد رمقهم، وإنما كان ذلك لكثرة من تطعمهم وتتكفل بهم كما تشهد به روايات أخر، ولم تغب عنها الوصية بالأيتام وهي تودع الحياة الدنيا، روي أنه جاء في وصيتها (عليها السلام) لأمير المؤمنين (عليه السلام)

بالحسن والحسين (عليهما السلام): (يا أبا الحسن ولا تَصِحْ في وجهيهما فإنهما سيصبحان يتيمين من بعدي، بالأمس فقدا جدهما واليوم يفقدان أمهما)[1].

وأما على المستوى الثاني لكفالة الأيتام فقد كانت لها حركة دؤوبة وهمة لا تعرف التواني والتقصير، روي عن الإمام أبي محمد العسكري (عليه السلام) أنه قال: (حضرت امرأة عند الصديقة فاطمة الزهراء (عليها السلام) فقالت: إن لي والدة ضعيفة وقد لبس عليها في أمر صلاتها شيء، وقد بعثتني إليك أسألك، فأجابتها فاطمة (عليها السلام) عن ذلك، فثنت فأجابت ثم ثلثت إلى أن عشّرت فأجابت ثم خجلت من الكثرة فقالت: لا أشق عليك يا ابنة رسول الله، قالت فاطمة: هاتي وسلي عما بدا لك، أرأيت من اكترى يوماً يصعد إلى سطح بحمل ثقيل وكراه مائة ألف دينار يثقل عليه؟ فقالت: لا. فقالت: اكتريت أنا لكل مسألة بأكثر من ملء ما بين الثرى إلى العرش لؤلؤاً فأحرى أن لا يثقل عليّ، سمعت أبي (صلى الله عليه وآله) يقول: إن علماء شيعتنا يحشرون فيخلع عليهم من خلع الكرامات على قدر كثرة علومهم وجدهم في إرشاد عباد الله حتى يخلع على الواحد منهم ألف ألف حلة من نور ثم ينادي منادي ربنا عز وجل: أيها الكافلون لأيتام آل محمد (صلى الله عليه وآله)، الناعشون لهم عند انقطاعهم عن آبائهم الذين هم أئمتهم، هؤلاء تلامذتكم والأيتام الذين كفلتموهم ونعشتموهم فاخلعوا عليهم خلع العلوم في الدنيا فيخلعون على كل واحد من أولئك الأيتام على قدر ما أخذوا عنهم من العلوم حتى أن فيهم يعني في الأيتام لمن يخلع عليه مائة ألف خلعة وكذلك يخلع هؤلاء الأيتام على من تعلم منهم،

(١) بحار الأنوار: ١٧٨/٤٣.

ثم إن الله تعالى يقول: أعيدوا على هؤلاء العلماء الكافلين للأيتام حتى تتموا لهم خلعهم، وتضعفوها لهم فيتم لهم ما كان لهم قبل أن يخلعوا عليهم، ويضاعف لهم، وكذلك من يليهم ممن خلع على من يليهم. وقالت فاطمة (عليها السلام): يا أَمَة الله إن سلكة من تلك الخلع لأفضل مما طلعت عليه الشمس ألف ألف مرة وما فضل فإنه مشوب بالتنغيص والكدر)[1].

وروي عنه (عليه السلام) قال: (قال علي بن أبي طالب (عليه السلام): من قوّى مسكيناً في دينه ضعيفاً في معرفته على ناصب مخالف فأفحمه لقنه الله يوم يُدلى في قبره أن يقول: الله ربي، ومحمد نبيي، وعلي وليي، والكعبة قبلتي، والقرآن بهجتي وعدتي، والمؤمنون إخواني. فيقول الله: أدليت بالحجة فوجبت لك أعالي درجات الجنة فعند ذلك يتحول عليه قبره أنزه رياض الجنة)[2].

مسؤوليتنا عن كفالة كلا النوعين من الأيتام:

أيها الأخوة والأخوات: لنتأسّ بالصديقة الطاهرة الزهراء (عليها السلام) حتى نكون معها ومع أبيها الرسول الكريم (صلوات الله عليهما وآلهما) في درجتهما في الجنة بكفالة كلا النوعين من الأيتام.

فبلدنا اليوم يعج بمئات الآلاف من الأيتام بسبب ما تعرض له من جرائم القتل والبطش والحروب والمقابر الجماعية في عهد صدام ولجرائم القتل المنظم والإرهاب والفوضى المتعمدة والقتل العشوائي في عهد الاحتلال، وهؤلاء الأيتام

(١) بحار الأنوار: الموضع السابق، ح٣.

(٢) بحار الأنوار: الموضع السابق، ح١٤.

في الوقت الذي يشكّلون فيه مسؤولية على الأمة جميعاً تقتضي احتضانهم ورعايتهم وتربيتهم، وإلا تحولوا إلى جيل كامل من المجرمين والقتلة والمرضى النفسيين والمنحرفين أخلاقياً والحاقدين على المجتمع، في الوقت نفسه هم يمثلون فرصة عظيمة للطاعة امتثالاً للتوجيهات النبوية الشريفة المتقدمة.

أما النوع الثاني من اليتيم فهو صفة أكثر الناس فإنهم بين جاهل بالشريعة لا يعرف حتى الأحكام الأساسية التي يبتلى بها يومياً كالوضوء والصلاة والغسل وبعض المعاملات، وبين مفتون قد اضطربت في ذهنه الأفكار وعصفت به الضلالات، وبين متورط في المعاصي بسبب غفلته وعدم وجود من يعظه ويذكره بالله تعالى، وبين إمّعةٍ ينعقون مع كل ناعق -كما وصفهم الحديث الشريف- وبين ضعيف أو مستضعف يحتاج إلى من يقوي فيه عقائده ويشدّ إيمانه، ولعلكم تعرفون أكثر مني مصاديق ذلك من خلال احتكاككم بالناس واطلاعكم على البيئة التي تعيشون فيها، ولعل بعضكم اطلع على الكثير مما ذكرت من خلال التجمعات الكبيرة التي تحصل في بعض المناسبات الاجتماعية والدينية وغيرها.

فأمامكم فرصة واسعة لنيل القرب من رسول الله (صلى الله عليه وآله) والصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء برعاية الأيتام من النوع الأول وكفالتهم بالمساعدات المالية ورعايتهم وتربيتهم وإنشاء مؤسسات الحضانة والتعليم والترفيه لهم ونحوها، وقد أذنت المرجعية بصرف قسم كبير من الحقوق الشرعية لكفالة الأيتام.

والفرصة الأوسع التي أمامكم هي كفالة الأيتام من النوع الثاني وهي متاحة للجميع إذ ما من أحد منا إلا ويعرف مسألةً شرعيةً أو حديثاً شريفاً أو نصيحةً

مفيدةً فلنُنظّم جميعاً ببركة الزهراء (عليها السلام) حملة واسعة نقوم خلالها بتعليم الناس كل كلمة مفيدة أو موعظة تسمعونها أو مسألة شرعية تتعلمونها أو عمل صالح تهتدون إليه، أو نصيحة ترشدهم وتصحح أخطاءهم وغيرها كثير.

فلا تبخلوا بكل ذلك على الناس سواء داخل الأسرة أو لزملائكم في العمل أو المنطقة أو رفقائك في السفر، وانقلوها لأكبر عدد منهم ليزداد أجركم وتحظون برضا الله تبارك وتعالى والمنزلة الرفيعة عند رسول الله (صلى الله عليه وآله) وأمير المؤمنين (عليه السلام) والصديقة الطاهرة الزهراء (صلوات الله عليها)، فهذه الوظيفة ليست حكراً على الحوزة العلمية ونحوها بل هي مسؤولية كل من تعلم ولو مسألة واحدة وأنتم شيعة أمير المؤمنين (عليه السلام) فاحفظوا وصيته بالأيتام عند وفاته (صلوات الله عليه) وقد رويت في الكافي بسند صحيح ومما جاء فيها: (الله الله في الأيتام؛ فلا تغبّوا أفواههم، ولا يضيعوا بحضرتكم، فقد سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول: من عال يتيماً حتى يستغني أوجب الله عز وجل له بذلك الجنة كما أوجب الله لآكل مال اليتيم النار)[1].

التأسي بصاحب الزمان (عجل الله تعالى فرجه الشريف):

وتأسّوا بإمامكم المهدي الموعود (صلوات الله عليه) فإنه مع ما يعانيه من ألم الابتعاد عن ممارسة دوره الكامل في حياة الأمة فإنه لم يغفل لحظة عن رعاية شيعته، قال (عليه السلام): (نحن وإن كنا ناوين بمكاننا النائي عن مساكن الظالمين حسب الذي أرانا الله تعالى لنا من الصلاح ولشيعتنا المؤمنين في ذلك ما دامت

(١)الكافي: ٥١/٧-٥٢ باب صدقات النبي (صلى الله عليه وآله) وفاطمة والأئمة (عليهم السلام) ووصاياهم، ح٧.

دولة الفاسقين، فإننا نحيط علماً بأنبائكم، ولا يعزب عنا شيء من أخباركم، ومعرفتنا بالذل الذي أصابكم، مذ جنح كثير منكم إلى ما كان السلف الصالح عنه شاسعاً ونبذوا العهد المأخوذ وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون. إنا غير مهملين لمراعاتكم، ولا ناسين لذكركم، ولولا ذلك لنزل بكم اللأواء واصطلمكم الأعداء فاتقوا الله جل جلاله..)[1].

(١) الاحتجاج للطبرسي: ٣٢٣/٢.

القبس القرآني

٨٢

(لِيَبْلُوَكُمْ)[1] [الملك : ٢]

سنة الابتلاء

سنة الابتلاء:

ما دام الإنسان في هذه الدنيا فهو في امتحان وابتلاء قال تعالى: [الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً] فالابتلاء سنة ثابتة من السنن الإلهية، ولا يفهم منها معنى القهر وإظهار الغلبة والانتقام، فإن الله تعالى غني عن ذلك، وإنما أجرى هذه السنة لمصلحة العباد، واضرب لكم مثلاً من الحياة الأكاديمية فإن السنة الدراسية تشتمل على امتحانات متنوعة من أولها إلى آخرها، ومهما أشكل بعض التربويين وعلماء النفس على الامتحانات وتأثيرها على نفسية الطالب، وإنها ليست معبّراً حقيقياً عن مستويات الطلبة، إلا أن هذا الإجراء هو لمصلحة الطالب من أكثر من جهة:

١- إن الامتحان يميّز مستويات الطلبة ويبين استحقاق كل طالب ليكرّم الناجح ويُحفَّز الفاشل ويأخذ كل ذي حق حقه.

٢- أنه يحفز الطلبة على القراءة والمراجعة، ولو خلت الدراسة من الامتحانات فإن النادر من الطلبة سيبذل جهداً لمراجعة دروسه واستيعابها حباً

(١) من حديث سماحة الشيخ اليعقوبي مع حشد من طلبة جامعة الصدر الدينية في النجف الأشرف من المرحلتين الخامسة والسادسة، يوم ٢٤ ج٢ ١٤٣١ المصادف ٢٠١٠/٦/٨ بمناسبة الامتحانات النهائية وقرب العطلة الصيفية.

للعلم لا أكثر.

وهذا الابتلاء الذي يجري على الإنسان في هذه الدنيا فإنه لمصلحته لكي يثاب المحسن على إحسانه ويعاقب المسيء على إساءته، وليلتزم الناس بالحقوق والواجبات، ولو شعر الناس بأنه لا ثواب ولا عقاب ينتظرهم لانتشر الظلم والعدوان والفساد، ولعمَّ اليأس الحياة.

الابتلاءات متفاوتة كالامتحانات الاكاديمية:

وكما أن الدروس تتفاوت في ثقل احتسابها لإخراج المعدل العام للدروس - وهذا يعرفه طلبة الجامعات- أو تفاوت الدرجات الموضوعة بإزاء الأسئلة في الامتحانات فسؤال عليه درجة كاملة، وآخر فرع بمثابة نصف سؤال وآخر أقل منه، فكذلك الابتلاءات التي يمر بها الإنسان متفاوتة الدرجات والتأثير في ميزان الأعمال، فقد ورد في الحديث عن علي (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): الصبر ثلاثة: صبر عند المصيبة، وصبر عند الطاعة، وصبر عن المعصية فمن صبر على المصيبة حتى يردها بحسن عزائها كتب الله له ثلاثمائة درجة ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين السماء والأرض، ومن صبر على الطاعة كتب الله له ستمائة درجة ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين تخوم الأرض إلى منتهى العرش، ومن صبر عن المعصية كتب الله له تسعمائة درجة ما بين درجة إلى الدرجة كما بين تخوم الأرض إلى منتهى العرش)[1]. فهذه الأمور كلها تحتاج إلى الصبر لكن درجات الصبر متفاوتة فالصبر على الطاعة ـ كالقيام من النوم اللذيذ الدافئ في الشتاء لأداء

(١) الوسائل: ج١٥ ص٢٣٨.

صلاة الصبح، وكبذل المال وفراق الأحبة وتحمل أعباء السفر لأداء الحج ـ أعلى من الصبر على الحرام ـ كمن تعرض له امرأة متبرجة فيصرف نظره عنها أو الذي يعرض له مال مغري إلا أنه من طريق غير مشروع فلا يمدُّ يده إليه ـ وهذا أعلى من الصبر على النوائب كفقد عزيز.

وكما أن الامتحانات في الدراسة الأكاديمية على نوعين، فبعضها ثابتة معلومة مسبقاً ومحدّدة المواعيد كالامتحانات الفصلية والنهائية، وبعضها يفاجئ الأستاذ بها الطالب من دون إشعار مسبق كالامتحانات اليومية ليكشف عن الاستعداد المتواصل والتحضير اليومي، ولا يعذر الطالب فيه أن يقول: لا أعلم بموعده وأنني لو علمت لحضّرت له، لأن وظيفته التحضير باستمرار والاستعداد لمثل هذه الامتحانات فكذلك الامتحانات التي تمر بالإنسان في الحياة الدنيا ويراد منه تأديتها بنجاح على نوعين:

فبعضها ثابتة معلومة كالصلوات اليومية وصوم شهر رمضان والحج عند الاستطاعة وحرمة الخمر والزنا ووجوب بر الوالدين ونحوها.

وبعضها تعرض له وتتهيأ فرصتها أمامه امتحاناً له، قال تعالى [إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ] (القمر:٢٧)، فإن أحسن استغلال الفرصة فقد أصاب الخير وأدركته الرحمة، وإلا فقد ضاعت عليه الفرصة وإضاعتها غصّة، كما لو قصده صاحب حاجة وهو يقدر على قضائها ولو بالتعاطف مع صاحب الحاجة والتفاعل مع قضيته، وكالشاب الذي يتعرض لغواية امرأة متبرجة فيتركها خوفاً من الله وحباً وطاعة لله تبارك وتعالى فهذه كلها امتحانات عارضة له.

وكما أن بعض الامتحانات في الدراسة الأكاديمية ذات أنماط معروفة متداولة كالامتحانات التحريرية والشفهية، وبعضها لا يشعر بها الطالب وإنما يحدّد معايير التقييم فيها المدرّس البصير كمشاركاته في المناقشات خلا ل الدرس ونوعية أسئلته وإشكالاته وهكذا، فإن من الامتحانات في هذه الدنيا ما تخفى على صاحبها، ولكنها لا تخفى على الله تبارك وتعالى (فإن الناقد بصير)، كما ورد في كلمات أمير المؤمنين (عليه السلام)، وشبّهت بعض الأحاديث خفاء الشرك في النفس بأنه أخفى من دبيب النملة بين الصخور في الليلة الظلماء، ويوم تبدو السرائر وتنكشف الحقائق سيتفاجأ الإنسان مما يجده في كتابه الذي لم يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وهذه الامتحانات هي الأخطر لعدم الالتفات إليها إلا ممن بصّره الله تبارك وتعالى.

الفتنة والابتلاء في الأحاديث الشريفة:

وقد ورد ذكر الفتنة والابتلاء التي هي بمعنى الامتحان في آيات كريمة وروايات شريفة كثيرة كما ورد نفس لفظ الامتحان في كثير من الموارد، نذكر واحداً منها لإلفات النظر إلى أننا فعلاً في امتحان مستمر أولاً ومنوّع في أشكاله ثانياً، ومتفاوت في درجاته ثالثاً.

في الخصال بسنده عن جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام) قال (امتحنوا شيعتنا عند ثلاث: عند مواقيت الصلاة كيف محافظتهم عليها، وعند أسرارهم كيف حفظهم لها عند عدوّنا، وإلى أموالهم كيف مواساتهم لإخوانهم

فيها)[1].

ليبلوكم أيكم أحسن عملا:

وإزاء هذه الامتحانات فإن وظيفتكم هو إحسان العمل وإتقانه والإتيان به على وجهه، فإن الله تعالى لا ينظر إلى كثرة الأعمال بل إلى حسنها كما في الآية التي أوردنا في بداية الكلمة [لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً] وليس أكثر ولا أي شيء آخر، وأمامكم الآن ـ وانتم على أبواب العطلة الصيفية فرص للعمل فاغتنموها، لأن الشباب منتظرون لعودتكم إليهم حتى تقيموا لهم الدورات الصيفية لتعلموهم فيها الفقه والقرآن والأخلاق والعقائد وسيرة أهل البيت (عليهم السلام) وهي تتزامن مع هذه الأشهر المباركة (رجب وشعبان ورمضان) مما يزيد الحافز إلى العمل ويوجب عظيم الأجر.

الدعوة لإعمار المساجد وإقامة الشعائر:

وعندكم الكثير من المساجد والحسينيات المعطلة فالفرصة متاحة لإعمارها بصلوات الجماعة والشعائر الدينية ومجالس الوعظ والإرشاد، وفي المجتمع انحرافا ت ومفاسد وتقصيرات يراد منكم أن تعالجوها وتصلحوا أحوال الناس بالحكمة والموعظة الحسنة، وتوجد بينهم نزاعات ومشاكل تستطيعون التوسط لحلّها والإصلاح بين المتخاصمين، ومن الناس من هم أصحاب حوائج يطلبون مساعدتكم بما تقدرون عليه فهذه كلها امتحانات تمر بكم ليبلوكم الله تعالى كيف تتصرفوا إزاءها، وهكذا كل الشرائح في المجتمع لها امتحاناتها، فالشباب

(١) البحار: ج٧١ ص٣٩١.

ممتحن بوالدين يراد منه البر بهما والإحسان إليهما بأقصى الدرجات، وممتحن بشهوات تعرض له والمطلوب منها اجتنابها، وهكذا.

فرصة لعمل الخير:

ونؤكد ما قلناه سابقاً من أن هذه الامتحانات ليست لقهر الإنسان وإثبات الغلبة عليه وإفشاله والانتقام منه، بل هي لإعطائه المزيد من الكرامات والألطاف الإلهية وإظهار جدارته واستحقاقه لها.

وقد عرضت عليكم فرصة ثمينة لعمل الخير مع بساطتها، وهي أن يقوم كل واحد بتعميم رسالة قصيرة على من يحتفظ بأرقام هواتفهم المحمولة ويوصيهم بتعميمها تتضمن الرسالة القصيرة تعليم مسألة شرعية أو موعظة أو إرشاد إلى عمل الخير كالتنبيه على زمن شريف قريب ـ كالأول من رجب، والنصف منه، والمبعث الشريف أو آخر أيام من رجب ـ والأعمال الواردة فيه ليستعد لها ولا تفوته بسبب الغفلة عنها، أو تتضمن الرسالة مسألة شرعية غير ملتفت إليها فيتورط فيها الناس ـ كحرمة الزواج بأخت وبنت من لاط به آخر على اللائط، أو حرمة الزواج بامرأة لم تطلق بشكلٍ صحيح ـ فإن الالتفات إلى مثل هذه المسائل لاحقاً يوقع الزوجين في الحرج وهكذا.

أو يبعث بموعظة قصيرة توقظه وتحيي قلبه من الأحاديث الشريفة المباركة المؤثرة في النفوس، كأن يبعث على الشباب المبتلين بالنظر إلى النساء الأجنبيات قوله (النظرة سهم مسموم من سهام إبليس فمن تركها لله تعالى أبدله نوراً يجد حلاوته في قلبه) فلعل شاباً يتأمل بهذه الكلمات فيستحقر هذه النظرة ويتركها

لاكتساب ذلك النور الإلهي.

والخلاصة أن الإنسان المؤمن الواعي الراغب بالكمال عليه أن يكون ملتفتاً دائماً إلى أن كل ما يجري له ويتعرض إليه هو امتحان له وعليه أن يحسن في اتخاذ التصرف المناسب بإزائه وان ينتهز فرص الخير بلطف الله تبارك وتعالى.

القبس القرآني

٨٣

(ورحمتي وسعت كل شيء) [١] [الأعراف : ١٥٦]

موجبات الرحمة الإلهية

سعة الرحمة الإلهية:

ورد في الدعاء الشريف (اللهم إني أسألك موجبات رحمتك)[٢] وطلب الرحمة أمر طبيعي لأنه لا نجاة ولا توفيق إلا برحمة الله تعالى، عن النبي (صلى الله عليه وآله) قال (لن يدخل الجنة أحد إلا برحمة الله، قالوا: ولا أنت؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني)[٣].

فما هي موجبات الرحمة الإلهية؟ وهل تحتاج الرحمة الإلهية إلى موجبات وأسباب وقد وسعت كل شيء؟

في الحديث الشريف عن الإمام السجاد (عليه السلام) قال (لا يهلك مؤمن بين ثلاث خصال: شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وشفاعة رسول الله (صلى الله عليه وآله) وسعة رحمة الله عز وجل)[٤].

---

(١) كلمة سماحة الشيخ اليعقوبي في المواكب التي تجمّعت يوم الخميس ١١ رجب ١٤٣١ المصادف ٢٠١٠/٦/٢٤ للانطلاق من النجف الأشرف إلى كربلاء مشياً على الأقدام لإحياء ذكرى وفاة العقيلة زينب وزيارة النصف من رجب للإمام الحسين (عليه السلام).

(٢) البحار: ج٨٣ ص٦٣.

(٣) كنز العمال : ١٠٤٠٧.

(٤) بحار الأنوار: ٧٨/ ١٥٩.

(وقيل له (عليه السلام) يوماً أن الحسن البصري قال: ليس العجب ممن هلك كيف هلك، وإنما العجب ممن نجا كيف نجا، فقال (عليه السلام): أنا أقول ليس العجب ممن نجا كيف نجا، وإنما العجب ممن هلك كيف هلك مع سعة رحمة الله)[1].

وتصديق هذا في كتاب الله تعالى فإن السؤال يوم القيامة لا يكون عن الناجين كيف نجوا، وإنما [عَنِ الْمُجْرِمِينَ، مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ] (المدثر: ٤١-٤٢).

وقد أشارت عدة آيات كريمة إلى سعة رحمة الله تبارك وتعالى، قال عز من قائل [وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ] (الأعراف١٥٦).

وقال تعالى [رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ] (غافر:٧).

مثال في الرحمة الإلهية:

ويقرّب لنا النبي (صلى الله عليه وآله) سعة رحمة الله تعالى بقوله (إنّ لله تعالى مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوام فبها يتعاطفون وبها يتراحمون وبها تعطف الوحش على ولدها، وأخّر الله تعالى تسعاً وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة)[2] فتصوروا سعة رحمة الله تعالى التي كتبها على نفسه وألزم تبارك وتعالى نفسه بها، قال تعالى [قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُل لِلّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ] (الأنعام:١٢) وقال تعالى [وَإِذَا جَاءكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ

(١) المصدر: ٧٨/ ١٥٣.

(٢) كنز العمال: ج٤ ص٢٤٩، ح١٠٣٨٢.

بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ] (الأنعام:٥٤) بل إن الله تعالى إنما خلق الخلق ليرحمهم بأن يجعلهم أمة واحدة متفقة على التوحيد، قال تعالى [وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ، إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ] (هود ١١٨- ١١٩).

الرحمة العامة والخاصة:

ولكن - اعلموا أيها الأحبة- أن لله تبارك وتعالى رحمة عامة لكل مخلوقاته وهي التي أشير إليها في موارد كثيرة كما في أدعية رجب (يا من يعطي من سأله، يا من يعطي من لم يسأله ومن لم يعرفه تحنناً منه ورحمة)[١]، وفي دعاء آخر (ورزقك مبسوط لمن عصاك، وحلمك معترض لمن ناواك، عادتك الإحسان إلى المسيئين وسبيلك الإبقاء على المعتدين)[٢] فجميع خلقه حتى الذين يبارزونه بالمعصية والإنكار يرفلون بنعمه التي لا تعد ولا تحصى.

وهناك رحمة خاصة يمنُّ بها على عباده المؤمنين الذين عرفوه ودلّهم عليه بفضله وكرمه وهداهم إلى طاعته فراحوا يتحروّن رضاه، وهي التي أشير إليها في الحديث النبوي الشريف (اطلبوا الخير دهركم كله، وتعرّضوا لنفحات الله، فإن لله نفحات من رحمته يصيب بها من يشاء من عباده) وعنه (صلى الله عليه وآله) (تعرّضوا لرحمة

(١) إقبال الأعمال: ج٣ ص٢١١.

(٢) السابق: ص٢١٠.

الله بما أمركم به من طاعته)[١] والتعرض لها يعني التعرض لأسبابها وموجباتها، كما في الدعاء (اللهم إني أسألك موجبات رحمتك) [٢].

تعرضوا لرحمة الله تعالى:

وقد ورد في الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة ذكر الكثير من هذه الموجبات للرحمة الإلهية، فنحن لا يمكن أن نعرفها ونهتدي إليها إلا أن يهدينا الله تبارك وتعالى [الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَـذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللّهُ].

وبعض هذه الأسباب لا يكون الإنسان مسؤولاً عن توفيرها وإنما جعلها الله بكرمه وفضله وليس على العاقل الكيِّس إلا استثمارها والتعرض لها كالأضرحة المقدسة للمعصومين (سلام الله عليهم) وقد حبانا الله تعالى نحن العراقيين بالعديد من أبواب الرحمة هذه، ومنها عموم المساجد، ومنها صلاة الجمعة والجماعة وحلقات العلم والمذاكرة، وعموم التجمعات الإيمانية، والأزمنة الشريفة كليلة الجمعة ويومها، ومنها هذا الشهر الشريف: شهر رجب الذي لقب في الأحاديث الشريفة بالأصّب لأن الرحمة تُصبّ فيه صبّاً.

ما تستدر به الرحمة الإلهية:

ومن أسباب الرحمة الإلهية ما يوفرها الإنسان بفضل الله تبارك وتعالى،

وقد وجدت من أهل تلك الموجبات الاتصاف بالرحمة بحيث تكون محركة

---

(١) تنبيه الخواطر : ج٢ ص١٢٠.

(٢) البحار: ج٨٣ ص٦٣.

لأفعاله ومنبعاً لمشاعره وتبنى عليها علاقاته مع الآخرين من خلال الرحمة بهم والشفقة عليهم والرفق بهم ومداراتهم والتفاعل مع قضاياهم وحوائجهم عن أمير المؤمنين (عليه السلام): (أبلغ ما تُستّدر به الرحمة أن تضمر لجميع الناس الرحمة)[١]، لأن الرحمة من صفات الله تبارك وتعالى، وقد وصف الله عباده الذين رضي عنهم بأنهم [رُحَمَاء بَيْنَهُمْ] (الفتح:٢٩) [وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ] (البلد:١٧) [وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً] (الحديد: ٢٧) وقال تعالى [إِنَّ رَحْمَتَ اللّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ] (الأعراف: ٥٦).

وفي الأحاديث الشريفة عن النبي (صلى الله عليه وآله): (من لا يرحم لا يُرحم)[٢] (إنما يرحم الله من عباده الرحماء)[٣] (من رحم ولو ذبيحة عصفور رحمه الله)[٤] (الراحمون يرحمهم الرحمن يوم القيامة، أرحم من في الأرض يرحمك من في السماء)[٥] (قال رجل للنبي (صلى الله عليه وآله): أحب أن يرحمني ربّي قال (صلى الله عليه وآله): ارحم نفسك وارحم خلق الله يرحمك الله)[٦].

والرحمة بالآخرين تبدأ من رحمة نفسه بأن يجنبّها ما يضرّها في الدنيا ككثير من الحماقات والأفعال اللاعقلائية كالتدخين وصرف الأموال

(١) ميزان الحكمة: ج٢ ص١٠٥٠.
(٢) الوسائل: ج٤ ص١٩٧.
(٣) البحار: ج٧٩ ص٩١.
(٤) كنز العمال: ج٦ ص٢٦٣.
(٥) البحار: ج٧٤ ص١٦٧.
(٦) كنز العمال: ج١٦ ص١٢٨.

الطائلة في اللهو والعبث، وما يضرّها في الآخرة كارتكاب المعاصي والعياذ بالله وصرف العمر في التفاهات وعدم التفقه في أمور الدين والمعرفة الضرورية.

ثم تتوسع الرحمة إلى من يليه في بيته كوالديه، قال تعالى [فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً، وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً] (الإسراء ٢٣-٢٤).

ثم الرحمة بالزوجة والزوج بالنسبة للمرأة، قال تعالى ممتناً على عباده [وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ] (الروم:٢١) وورد في الحديث الشريف (اتقوا الله في الضعيفين اليتيم والمرأة)[1] ثم الرحمة بالأقرباء وقد اشتق لهم اسم من الرحمة فيقال لهم الأرحام والأوامر في صلة الرحم كثيرة والنواهي عن قطعه شديدة.

ثم الرحمة بالآخرين خصوصاً إذا كانوا من ذوي الحاجة والمرضى والفقراء والمبتلين ببلاء ما، وهكذا حتى يمتلئ قلبه رحمة وشفقة على كل الموجودات، ومنبع هذه الرحمات كلها تقوى الله تبارك وتعالى وحب الله تبارك وتعالى، فالتقوى تردعه عن ظلم الآخرين والإساءة إليهم والتقصير في أداء حقوقهم وحب الله يترشح منه حب الخير لجميع الخلق حتى أعدائه بأن يسأل الله تعالى لهم الصلاح والهدى لأن الجميع عيال الله تبارك وتعالى، وخلقه فيحبهم حباً لخالقهم وربّهم ومدبر شؤونهم وفي بعض الأحاديث ما مضمونه (الخلق عيال الله، فأحب

(١) البحار: ج٧٦ ص٢٦٨.

خلقه إليه أنفعهم لعياله) وفي حديث آخر عن الإمام الكاظم عن مثل هذا الشخص أنه معنا في درجتنا.

كالوالد الرحيم:

وكلما ازدادت ساحة مسؤولية الفرد، ازداد مقدار الرحمة الواجب توفرها، سواء كانت المسؤولية دينية - كالمرجعية الدينية ومعتمديها- أو سياسية - ككبار مسؤولي الدولة- أو اجتماعية - كزعماء العشائر أو وجهاء المجتمع- أو إدارية - كمدير الدائرة أو المدرسة- أو تعليمية- كالمدرس مع طلبته- في كتاب الخصال بسنده عن الإمام الصادق (عليه السلام) عن أبيه (عليه السلام) قال (إن الإمامة لا تصلح إلا لرجل فيه ثلاث خصال: ورع يحجزه عن المحارم، وحلم يملك به غضبه، وحسن الخلافة على من وُلّيَ حتى يكون له كالوالد الرحيم)[1] والحديث مطلق يشمل أي إمامة ورئاسة وزعامة مما ذكرنا.

من موجبات الرحمة:

وللرحمة الإلهية موجبات أخرى، وهي كثيرة نذكر منها شيئاً مختصراً لإلفات نظركم.

منها: طاعة الله ورسوله قال تعالى [وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ] (آل عمران: ١٣٢) وقال تعالى [وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ] (النور: ٥٦) وقال تعالى [فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ بِاللّهِ وَاعْتَصَمُواْ بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً]

(١) الكافي: ج١ ص٤٠٧.

(النساء: ١٧٥).

ومنها: الصبر على المصائب قال تعالى [الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّـا إِلَيْهِ رَاجِعونَ ، أُولَـئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ] (البقرة: ١٥٦-١٥٧).

ومنها: الاستغفار قال تعالى [لَوْلا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ] (النمل:٤٦).

ومنها: الإصلاح بين الإخوة المتخاصمين، قال تعالى [إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ](الحجرات: ١٠).

ومنها: ما ورد في الأحاديث الكثيرة من قولهم (عليهم السلام) رحم الله امرءاً كذا وكذا، كقول أمير المؤمنين (عليه السلام): **(رحم الله امرءاً أحيا حقاً وأمات باطلاً، وأدحض الجور وأقام العدل)** وقوله **(رحم الله امرءاً علم أن نفسه خطاه إلى أجله فبادر عمله وقصّر أمله).**

ومنها: ما عن النبي (صلى الله عليه وآله)أنه قال **(سبعة يُظلهم الله عز وجل في ظله يوم لا ظلّ إلا ظلُّه: إمام عادل، وشابٌ نشأ في عبادة الله عز وجل، ورجل قلبه متعلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه، ورجلان كانا في طاعة الله عز وجل فاجتمعا على ذلك وتفرّقا، ورجل ذكر الله عز وجل خالياً ففاضت عيناه من خشية الله عز وجل، ورجل دعته امرأة ذات حسب وجمال، فقال: إني أخاف الله عز وجل، ورجل تصدّق بصدقة فأخفاها**

حتى لا تعلم شماله ما يتصدق بيمينه)[1].

نسأل الله تعالى أن يتغمدنا برحمته في الدنيا والآخرة وأن يوفقنا لموجبات رحمته إنه لطيف بعباده.

(١) الخصال للصدوق: ٣٤٢/٢

القبس القرآني

٨٤

﴿وأمّا الذين سُعِدُوا ففي الجنّة خالدين فيها﴾[١]
حقيقة السعادة

[هود : ١٠٨]

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على أشرف خلقه وأكرمهم أبي القاسم محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين.

أهمية السعادة:

السعادة: حلم كل الناس والهدف الذي تسعى إليه البشرية، ولذلك كان كل اهتمام الأنبياء والرسل والفلاسفة والمفكرين والعلماء هو الوصول إلى ما تتحقق به السعادة، ونحن حينما نتبادل التهاني في العيد، يدعو بعضنا لبعض: (أسعد الله أيامكم) وإن كنا نحن في العراق نقولها وقلوبنا تعتصر ألماً لما يمرُّ به شعبنا من قتل ودمار ونقص مريع في الخدمات الأساسية، وانتشار الفقر والبطالة والمرض والجهل والفساد وأمثالها من الأمراض الاجتماعية الفتاكة التي تنخر بنية المجتمع وتدمره إلا من عصم الله تعالى.

ولا زالت دماء الضحايا والأبرياء لم تجف بعد في بغداد والبصرة والكوت وكربلاء والأنبار وغيرها من المدن العراقية المحرومة المنكوبة. وقد مرّت ستة أشهر على الانتخابات من دون تحقيق خطوة تذكر لتشكيل الحكومة، والزعماء

(١) الخطبة الأولى التي ألقاها سماحة آية الله العظمى الشيخ محمد اليعقوبي (دام ظله الشريف) لصلاة عيد الفطر السعيد يوم الجمعة عام ١٤٣١ الموافق ٢٠١٠/٩/١٠ م.

السياسيون منهمكون بالصراع على السلطة وغنائمها وامتيازاتها.

وأقل من هذه البلاءات بكثير دفعت شاعراً مثل المتنبي إلى القول:

عيدٌ بأيّةِ حالٍ عُدتَ يا عيدُ بما مضى أم بأمرٍ فيكَ تجديدُ

ويوجد اليوم في الكتّاب والمثقفين من يخاطب العيد بقول المتنبي، ويسخر ممن يقول (أيامك سعيدة) و(أسعد الله أيامكم) مع أنها كلمات دعاء وطلب من الله تعالى بجعل أيام العمر سعيدة وهانئة وليست إخباراً عن الواقع المعاش حتى يجد البعض أنها غير لائقة وغير منطبقة على هذا الواقع المؤلم.

الفوز الحقيقي:

وأين المتنبي وأمثاله من سمو أهل البيت (عليهم السلام) وحياتهم السعيدة وهم الذين لم يؤذَ أحدٌ كما أوذوا، انظروا إلى أمير المؤمنين (عليه السلام) يسقط مضرجاً بدمائه في محراب مسجد الكوفة وهو يقول: (فُزتُ وربّ الكعبة)، والإمام الحسين (عليه السلام) يقول وهو يرى جمع الأعداء كالسيل وقد يبلغوا عشرات الآلاف وهو وأصحابه لا يتجاوزون المائة يقول (عليه السلام): (ليرغب المؤمن في لقاء الله، وإني لا أرى الموت إلا سعادة والحياة مع الظالمين إلا برماً)[1].

والإمام موسى بن جعفر (عليهما السلام) يشكر الله تعالى وهو في قعر السجون وظلمات المطامير ويقول (إلهي طالما طلبت منك أن تفرّغني لعبادتك وقد فعلتَ).

روى صالح بن سعيد قال: (دخلت على أبي الحسن -الهادي- (عليه السلام) يوم

(١) بحار الأنوار: ١٩٢/٤٤.

وروده – سامراء– فقلت له: جُعلتُ فداك في كل الأمور أرادوا إطفاء نورك والتقصير بك حتى أنزلوك هذا المكان الأشنع خان الصعاليك.

فقال (عليه السلام): ها هنا أنت يا ابن سعيد، ثم أومأ بيده فإذا أنا بروضات أنيقات وأنهار جاريات وجنات فيها خيرات عطرات وولدان كأنهن اللؤلؤ المكنون، فحار بصري وكثر عجبي، فقال (عليه السلام) لي: حيثُ كنّا فهذا لنا، يا ابن سعيد لسنا في خان الصعاليك)[1].

علامة السعادة:

إنها الحياة السعيدة في رحاب الله تبارك وتعالى التي تشغله عن كل شيء [أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ] (الرعد:٢٨) فاطمئنان القلب الذي هو علامة السعادة يتحقق بأن تجعل الله تعالى محور حركاتك وسكناتك وهدفك الذي تسعى إليه، ولا تنال تلك السعادة إلا بالتقوى؛ لذا يعلمنا الأئمة (عليهم السلام) أن نطلبها في الدعاء كما طلبوها لأنفسهم، من دعاء الإمام الحسين (عليه السلام) يوم عرفة: (اللهم اجعلني أخشاك كأني أراك، وأسعدني بتقواك).

فالسعادة الحقيقية هي الفوز بالجنة وهي ثمرة التقوى والعمل بما يرضي الله تبارك وتعالى ويقرب منه، قال تعالى: [وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ عَطَاء غَيْرَ مَجْذُوذٍ] (هود:١٠٨).

متى تحصل الشقاوة؟

وتحيط الشقاوة بالإنسان – والعياذ بالله– حينما يعصي الله تبارك وتعالى

(١) بحار الأنوار: ٢٠٢/٥٠ رواها الشيخ المفيد والكليني (رضوان الله عليهما).

ويبتعد عنه قال تعالى: [وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ، وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ، حَتَّى إِذَا جَاءنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ] (الزخرف: ٣٦-٣٨). فتصوروا أي حياة شقية تكون للشخص الذي يلازمه فيها شيطان يكون قريناً له يخلّي الله بينه وبينه ليرديه في الضلالات والمهالك وفي حياة تعيسة ضيقة يصفها قوله تعالى: [وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فإن لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى] (طه: ١٢٤) ولذا تكون النتيجة يوم القيامة قوله تعالى: [فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُواْ فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ، خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ] (هود:١٠٦-١٠٧).

السعادة والشقاوة تنبعان من النفس:

أيها الأحبة..

إن السعادة والشقاوة تنبعان من داخل الإنسان، وهي من حالات عالمه المعنوي ووصف لباطنه، فالسعيد من كان كذلك في باطنه، والشقي من كان كذلك في داخله؛ فلا تتحقق إلا بأمور من جنسها أي معنوية، وليس بأمور مادية كالمال والجنس وترف الدنيا، فكم من شخص لا تتوفر له أسباب السعادة المادية الدنيوية بفقر أصابه أو مرض ابتلي به أو مصيبة نزلت به لكنك تراه سعيداً متفائلاً مبتسماً، وآخر يعيش في ترف وتتوفر له كل أسباب المتعة والعيش الرغيد لكنه عبوس كئيب وقد ينتهي به الأمر إلى الانتحار، وهذه النشرات والإحصائيات تطلعنا باستمرار على أن أكثر حالات الانتحار موجودة في أكثر الدول رفاهية.

الدنيا للعبور والسعادة من المساعدة:

ولا يعني كلامنا هذا تقليلاً من أهمية توفير متطلبات الحياة الهنيئة السعيدة، فإن لها دوراً في تحقيق تلك السعادة إذا أُخذ منها بالمقدار المناسب للحاجة ووُظّفت لتحقيق الهدف، فإنها خير معين لها بفضل الله تبارك وتعالى.

وإنما اشتق اسم السعادة أصلاً من المساعدة وهي المعاونة على ما تتحقق به السعادة الحقيقية التي سميت سعادة لما فيها من معاونة الألطاف الإلهية للإنسان حتى وُفق إلى الخير والجنة ورضا الله تبارك وتعالى، ولذا نجد في الروايات الشريفة المأثورة عن المعصومين (عليهم السلام) إرشادات إلى ما تتحقق به السعادة الأخروية وما يستعان به على تحقيقها من أمور الدنيا.

مخاطبة عوالم الإنسان:

وهذا الانسجام مع الفطرة والتوازن في مخاطبة كل عوالم الإنسان، وتلبيته كل احتياجاته الروحية والنفسية والعقلية والجسدية هي من مختصات شريعة الله تبارك وتعالى الخالق العظيم والبصير بما يصلح حال الإنسان ويسعده، بينما تاهت النظريات البشرية في تفسير السعادة وبيان ما تتحقق به لأن تحقيق السعادة حلم كل البشر ولم تنته بهم تلك النظريات إلا إلى الشقاء والقلق والخوف والكآبة والصراعات والشرور والآثام، بين أصحاب النظريات المادية الذين حددوا السعادة بالمتعة وتلبية الغرائز واحتياجات الجسد إلى حد الإفراط -كما في الغرب- من دون التفات إلى حاجة الروح إلى الكمال، ونزوع النفس إلى التحلي بالأخلاق الفاضلة، وبين أصحاب النظريات الفلسفية والروحية الذين جعلوا السعادة في تحقق الكمالات النفسية ولو على حساب التفريط في احتياجات الجسد، بل

يجعل بعض أهل الرياضات الروحية تعذيب الجسد وإيلامه سبباً لنيل تلك الكمالات وتحقيق السعادة.

السعادة بالتوازن بين الإفراط والتفريط:

ويتغافلون بذلك عن حقيقة أن من تمام السعادة تحقيق التوازن في متطلبات كل جوانب الإنسان. وهذا ما وجدناه في شريعة الإسلام دين الفطرة [فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاس لا يَعْلَمُونَ] (الروم:٣٠) ففي الوقت الذي تؤكد فيه على الجوانب المعنوية والكمالات الروحية حين تجعل التقوى وتهذيب النفس أساس السعادة والفلاح [قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا، وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا] (الشمس:٩-١٠) وقال أمير المؤمنين (عليه السلام): (وإن السعداء بالدنيا غداً هم الهاربون منها اليوم)[١].

فإنها تدعو إلى الأخذ بأسباب الحياة التي توفر الطمأنينة والراحة والسكون للنفس فنرى الحث الأكيد على العمل والكسب بالتجارة أو الزراعة أو غيرهما وتجعل العمل لطلب الرزق الحلال من أفضل القربات إلى الله تعالى ففي الحديث النبوي الشريف (طلب الحلال فريضة على كل مسلم ومسلمة)[٢] وقال (صلى الله عليه وآله): (من أكل من كد يده كان يوم القيامة في عداد الأنبياء ويأخذ ثواب الأنبياء) وفي الحديث (الكادّ على عياله كالمجاهد في سبيل الله) وفي حديث آخر (إن قامت الساعة وفي يد أحدكم الفسيلة، فإن استطاع أن لا تقوم الساعة حتى يغرسها

(١) نهج البلاغة، خطبة رقم (٢٢٣) قالها عند تلاوته [يَا أَيُّهَا الإنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الكَرِيمِ].

(٢) بحار الأنوار: ٩/١٠٣، ح٣٥.

فليغرسها) وفي حديث نبوي شريف (ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً، فيأكل منه إنسان أو طير أو بهيمة، إلا كانت له به صدقة).

وتجعل تلبية الحاجة الجنسية من طرقها المحللة - أي الزواج- من آيات الله تبارك وتعالى وسننه التي يُتقرب إليه تبارك وتعالى بإقامتها، وإن الإعراض عنه خروج عن هذه السنة قال تعالى: [وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ] (الروم:٢١) وقال النبي (صلى الله عليه وآله): (النكاح سنتي فمن رغب عن سنتي فليس مني) ويقول (صلى الله عليه وآله): (شرار أمتي العزاب).

ونرى رفض الرهبنة والانعزال وحرمان النفس والجسد من بعض ما تشتهيه بالمعروف وبما أحل الله تعالى: [يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ، قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِي لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ] (الأعراف: ٣١-٣٢).

هذا التوازن والنهي عن الإفراط والتفريط معاً لتحقيق السعادة يظهر جلياً مما ورد في نهج البلاغة أن أمير المؤمنين (عليه السلام) دخل على العلاء بن زياد الحارثي وهو من أصحابه يعوده، فلما رأى سعة داره قال: (ما كنتَ تصنع بسعة هذه الدار في الدنيا؟ أما أنت إليها في الآخرة كنت أحوج! وبلى، إن شئتَ بلغت بها الآخرة: تقري فيها الضيف، وتصل فيها الرحم، وتطلع منها الحقوق مطالعها، فإذا أنت قد بلغت بها الآخرة.

فقال له العلاء: يا أمير المؤمنين أشكو إليك أخي عاصم بن زياد، قال (عليه السلام): وما له؟ قال: لبس العباءة وتخلى عن الدنيا، قال (عليه السلام): عليَّ به، فلما جاء قال (عليه السلام): يا عُدَيَّ نفسه، لقد استهام بك الخبيث أما رحمت أهلك وولدك؟ أترى الله أحل لك الطيبات وهو يكره أن تأخذها؟ أنت أهون على الله من ذلك. قال: يا أمير المؤمنين (عليه السلام) هذا أنت في خشونة ملبسك وجشوبة مأكلك، قال (عليه السلام): ويحك إني لست كأنت، إن الله فرض على أئمة العدل أن يقدّروا أنفسهم بضعفة الناس لكيلا يتبيغ بالفقير فقره)[1].

كيف نحقق السعادة؟

ونذكر هنا مجموعة من الروايات الشريفة التي أرشدتنا إلى ما تتحقق به السعادة في الآخرة وما يعين عليها من أمور الدنيا:

١- عن جعفر بن محمد عن آبائه (عليهم السلام) عن علي (عليه السلام) أنه قال: (حقيقة السعادة أن يختم الرجل عمله بالسعادة وحقيقة الشقاء أن يختم المرء عمله بالشقاء)[2]، فإن الإنسان لا تكتمل سعادته إلا عندما يختم عمله بخير فإننا نرى كثيرين يعملون عمل السعداء لكنهم في منعطف من حياتهم ينقلبون ويغويهم الشيطان ويلتحقون بالأشقياء وقد يحصل العكس أحياناً كما في قضية الحر الرياحي حتى قال فيه الإمام الحسين (عليه السلام): (أنت حرّ في الدنيا وسعيد في الآخرة) فلا تتحقق السعادة إلا بالمداومة على الخير والثبات عليه.

---

(١) نهج البلاغة، خطبة رقم (٢٠٩).

(٢) بحار الأنوار: ١٥٤/٥ عن الخصال: ٥ ب١ ح١٤.

٢- قال الإمام الصادق (عليه السلام): (من سعادة المرء خفة لحيته)[١] أي قلة أتباعه ورعيته سواء كان على صعيد العائلة أو السلطة أو الزعامة الدينية أو الاجتماعية؛ لأن التابع يتمسك بلحية المتبوع -كما يقال في العرف- وقد يتحمل المتبوع مسؤولية تكثير أتباعه بتكبير لحيته الظاهرية فيتبعه من يراعي تلك المقاييس.

وفي (معاني الأخبار) للشيخ الصدوق (رضوان الله عليه) قراءة أخرى للحديث (خفة عارضيه) أي خفة لحييه وعارضيه بذكر الله تعالى وعدم غفلته عن ربّه.

٣- عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (ثلاثة من السعادة: الزوجة المؤاتية، والولد البار، والرجل يرزق معيشة يغدو على إصلاحها ويروح على عياله)[٢].

وعن الإمام موسى بن جعفر (عليهما السلام) عن آبائه عن علي (عليهم السلام) قال: (من سعادة المرء المسلم الزوجة الصالحة والمسكن الواسع والمركب الهنيء والولد الصالح)[٣].

فالزوجة الصالحة المطيعة المتوددة، والمسكن اللائق بشأن الإنسان، والأولاد البارّون الصالحون، ووسيلة التنقل المناسبة التي تغنيه عن الطلب من الناس وغيرها من الحاجات الأساسية في الحياة يؤدي توفّرها إلى الحياة السعيدة

---

(١) بحار الأنوار: ١١٣/٧٣.

(٢) بحار الأنوار: ٦/١٠٣ عن أمالي الشيخ الطوسي.

(٣) بحار الأنوار: ٩٨/١٠٤، ح٦٤.

المعينة على طاعة الله تعالى ونيل السعادة الحقيقية.

على أن لا تتحول هذه الأمور إلى هدف وشاغل عن الله تعالى بل يجعلها الإنسان وسائل مساعدة ومعينة على الوصول إليه تبارك وتعالى قال عز من قائل: [رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ] (النور:٣٧) فالمشكلة ليست في وجود تجارة أو مال وإنما في تحولها إلى مانع عن الوصول إليه تبارك وتعالى، وقال: [إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوّاً لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ] (التغابن: ١٤).

٤- وفي كتاب غرر الحكم عن أمير المؤمنين (عليه السلام) (عليه السلام): (السعيد من استهان بالمفقود)؛ لأن الحزن على ما فات موجب للشقاء والنكد والسعيد من صبر وتسلّى عنه واحتسبه عند الله تعالى.

وقال (عليه السلام): (في لزوم الحق تكون السعادة) لأن معرفة الحق واتباعه هو أساس السعادة الحقيقية الموجبة للفوز.

وقال (عليه السلام): (من حاسب نفسه سعد) لأنه بالمحاسبة يستطيع تصحيح الأخطاء وتلافي النقص ورد المظالم إلى أهلها ويقرّر حياة أفضل وكل ذلك يوجب السعادة.

وقال (عليه السلام): (خلوّ الصدر من الغل والحسد من سعادة العبد) فإن أشقى الناس من امتلأ قلبه حقداً وحسداً وغلاً وخيانة وحياته تكون معذبة ويعيش مهموماً.

وقال (عليه السلام): (السخاء إحدى السعادتين).

وقال (عليه السلام): (سعادة المرء -في- القناعة والرضا) فإذا قنع استقر ورضي ولم يحزن على فوات شيء أو يقلق حرصاً على تحصيل شيء.

وقال (عليه السلام): (سعادة الرجل في إحراز دينه والعمل لآخرته) لأن العمل بما يرضي الله تعالى والسير على هدى أوليائه يحقق السعادة الأبدية.

وقال (عليه السلام): (إذا اقترن العزم بالحزم كملت السعادة).

وقال (عليه السلام): (أمَارة السعادة إخلاص العمل) لأن عمله إن لم يكن بنية مخلصة لم يكن مقبولاً ولم يحقق السعادة المطلوبة، فعلامة سعادته كون عمله مخلصاً لله تبارك وتعالى.

في كتاب مكارم الأخلاق (من سعادة المرء دابة يركبها في حوائجه ويقضي عليها حوائج إخوانه)[1]؛ لأنه بها يستغني عن الحاجة للآخرين ويتمكن من قضاء حوائج الناس التي هي من أعظم القربات.

٥- عن الإمام السجاد (عليه السلام) قال: (من سعادة المرء المسلم أن يكون متجره في بلاده ويكون خلطاؤه صالحين ويكون له وُلدٌ يستعين بهم)[2]. فمن كان متجره في بلاده كفاه الله مؤونة الغربة والبعد عن الأهل والوطن ومخاطر الأسفار، ومن كان شركاؤه وأقرانه في العمل صالحين تجنب المشاكل والخصومات والخوض في الباطل، ومن كان له ولد يعينه خفّت أعباء الحياة عليه وسعد برؤيتهم.

---

(١) مكارم الأخلاق: ١٣٨.

(٢) بحار الأنوار: ٧/١٠٣ ح ٢٧ عن الخصال: ١٥٩/١ باب الثلاثة.

٦- (من سعادة المرء أن يطول عمره، ويرزقه الله الإنابة إلى دار الخلود)[١].

(ليس كل من يحب أن يصنع المعروف إلى الناس يصنعه، وليس كل من يرغب فيه يقدر عليه ولا كل من يقدر عليه يؤذن له فيه، فإذا اجتمعت الرغبة والقدرة والإذن فهناك تمت السعادة للطالب والمطلوب إليه) فهكذا تجتمع الأسباب لتحقق السعادة: الإرادة من الإنسان وتيسير الأسباب والوسائل الطبيعية لإنجاز العمل وتوفيق الله سبحانه.

٧- (ولو أن أشياعنا - وفقهم الله لطاعته- على اجتماع من القلوب في الوفاء بالعهد عليهم، لما تأخر عنهم اليمن بلقائنا، ولتعجلت لهم السعادة بمشاهدتنا على حق المعرفة وصدقها منهم بنا، فما يحبسنا عنهم إلا ما يتصل بنا مما نكرهه)[٢] فالإلفة بين المؤمنين وتواددهم وتراحمهم سبب قوي لسعادتهم ونزول الرحمة عليهم.

كيف نحذر من الشقاوة؟

ونذكر بعض الروايات الواردة في الشقاوة لتعرف الأمور بأضدادها:

قال رجل للنبي (صلى الله عليه وآله): اعدلْ، فقال (صلى الله عليه وآله): (لقد شقيتَ (شقيتُ) إن لم أعدل)[٣].

وعنه (صلى الله عليه وآله) قال: (أشقى الناس الملوك)[٤] بعكس ما يتصور أغلب الناس

---

(١) بحار الأنوار: ٤٦/٦.

(٢) الاحتجاج: ج٢، رسالة الناحية المقدسة إلى الشيخ المفيد.

(٣) رواه البخاري: ٣١٣٨.

(٤) بحار الأنوار: ٣٤٠/٧٥.

فيحسدونهم على ما هم عليه فإذا انكشف لهم الواقع تبرأوا منه كما في قصة قارون التي حكاها الله تبارك وتعالى: [وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ] (القصص:٨٢).

وعنه (صلى الله عليه وآله) قال: (أربع خصال من الشقاء: جمود العين وقساوة القلب وبعد الأمل وحب البقاء)[١].

سئل أمير المؤمنين (عليه السلام): أي الخلق أشقى؟ قال (عليه السلام): (من باع دينه بدنيا غيره)[٢].

عن أمير المؤمنين (عليه السلام) (عليه السلام): (إن الشقي من حُرم ما أوتي من العقل والتجربة)[٣].

ومن كلماته (عليه السلام) في غرر الحكم: (من علامات الشقاء غش الصديق) (من الشقاء فساد النية) (من الشقاء أن يصون المرء دنياه بدينه).

حاصل إشكال ورد:

وننبه هنا إلى شبهة يثيرها الغارقون في المعاصي العاجزون عن التغلب على أهوائهم فيصوّرون لأنفسهم أنه مكتوب عليهم الشقاء ولا يمكن تغييره، وقد دعمت هذا الاتجاه الفكري جهات سياسية منذ عصر صدر الإسلام لتمنع الأمة من

---

(١) بحار الأنوار: ١٦٤/٧٣.

(٢) بحار الأنوار: ٣٠١/٧٥.

(٣) شرح نهج البلاغة: ٧٤/١٨.

الحركة نحو الإصلاح وتغيير الواقع الفاسد وإزالة الظلم، وينقل القرآن الكريم عنهم قولهم: [قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْماً ضَالِّينَ] (المؤمنون:١٠٦) لكن أمير المؤمنين (عليه السلام) فسر الآية بقوله: (بأعمالهم شقوا)[١].

فالإنسان باختياره عمل ما يوجب شقاءه، وقد جرى القضاء الإلهي - أي مجموعة القوانين والسنن الإلهية- بأن من يعصي ويعرض عن الله تعالى يشقى، قال (عليه السلام) في دعاء كميل: (إلهي ومولاي أجريتَ عليَّ حكماً اتبعتُ فيه هوى نفسي ولم أحترس فيه من تزيين عدوي فغرّني بما أهوى وأسعده على ذلك القضاء) فالعبد باختياره اتبع الشيطان وساعد على غوايته السنة الإلهية بإيكاله إلى نفسه وسلب التوفيق منه.

وفي احتجاج الإمام الصادق (عليه السلام) على الزنادقة لما سألوه: (فما السعادة وما الشقاوة؟ قال: السعادة سبب خير تمسّك به السعيد فيجره إلى النجاة، والشقاوة سبب خذلان تمسك به الشقي فجرّه إلى الهلكة، وكلٌّ بعلم الله تعالى)[٢] فالله تبارك وتعالى قضى تلك الأسباب، والإنسان بإرادته تمسك بهذا أو ذاك منها، وروى البخاري عن النبي (صلى الله عليه وآله) قوله: (أما أهل السعادة فييسّرون لعمل السعادة وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل الشقاوة) ولذا فُسرت السعادة بما يناسب أصلها المأخوذ منه وهي المساعدة فقيل أن السعادة والسعد: (معاونة الأمور الإلهية

(١) بحار الأنوار: ١٥٧/٥.

(٢) بحار الأنوار: ١٨٤/١٠.

للإنسان على نيل الخير ويضادّه الشقاوة وأعظم السعادات الجنة)[1].

تلخيص السعادة الحقيقية:

أيها الأحبة..

نستطيع تلخيص أسباب السعادة الحقيقية بالإيمان بالله تعالى وتقواه والالتزام بطاعته وطاعة رسوله (صلى الله عليه وآله) وأهل بيته (عليهم السلام) بإخلاص ونشاط وعزيمة لا تلين، وتطهير القلب من أمراض الحسد والحقد والبغضاء والبخل والحرص والخوف والقلق وتنقية العقل، من الشبهات والشكوك والظنون والتهم والأوهام والوساوس (فإن الشكوك والظنون لواقح الفتن ومكدرة لصفو المنائح والمنن) وتهذيب النفس من الأهواء المنحرفة وضبط الغرائز على وفق ما يصلح حال الإنسان في دنياه وآخرته وتجنب الإفراط والتفريط.

والزواج بالمرأة الصالحة الودودة الجميلة وطلب الأولاد وتربيتهم ليكونوا صالحين، والسعي لطلب الرزق الحلال الذي يسدّ احتياجاته ويغنيه عما في أيدي الناس ويوفّر له فرص الطاعة والقرب من الله تبارك وتعالى.

وقد وجدت في الأحاديث الشريفة أن أكثر ما يوجب السعادة بعد التقوى محبة الآخرين ومواددتهم وبذل الوسع في إسعادهم وقضاء حوائجهم وإدخال السرور عليهم ابتداءً من الوالدين والزوجة والأولاد إلى الجيران والأرحام ثم عامة الناس.

وإن أكثر ما يوجب الشقاء بعد الإعراض عن الله تعالى هو الحزن والقلق،

---

(١) المفردات للراغب: مادة (سعد).

الحزن على ما فات من عزيز أو مال أو شهوة أو شيء حريص عليه، والقلق مما يأتي كالتاجر يخاف أن يخسر والمرأة تقلق أن يفوتها قطار الزواج أو يتزوج عليها زوجها امرأة ثانية. فينكد عيشهم باحتمالات لم تقع، والحل في تجنب هذه الحالات، وإيكال الأمر إلى الله تبارك وتعالى والأخذ بالأسباب المتيسرة قال تعالى في علاج هذه الحالة: [مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ، لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ] (الحديد:٢٢).

ولم تحصل هذه الحالات إلا بسبب الحرص والفخر والاختيال بما في اليد.

القبس القرآني

٨٥

﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾[1]

تقييم الواقع العشائري

[الحجرات : ١٣]

الحمد لله كما هو أهله وكما يستحقه حمداً كثيراً والصلاة على خير خلقه أبي القاسم محمد وعلى آله الطاهرين.

وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا:

قال الله تبارك وتعالى: [يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ] (الحجرات:١٣).

فالغرض من جعل الشعوب والقبائل والعشائر لتُعرفوا بها ولتتميز الأنساب فإن الأسماء كثيراً ما تتشابه وإنما تتميز بالعشيرة واللقب، والمعنى الآخر لقوله تعالى: [لِتَعَارَفُوا] أي لتتعارفوا بينكم وتتواصلوا وتنسجموا ويتكامل بعضكم بالبعض الآخر ويسودكم عمل المعروف فيما بينكم. وليس لتتفاخروا بأنسابكم أو لتتنابزوا بالألقاب بينكم أو لتتباهوا بكثرتكم أو لتتحزبوا لعشائركم وتتعصبوا لها حتى وإن كانت على باطل.

أهمية الرابطة العشائرية:

هذا ما أراده الله تبارك وتعالى ورتّب عليه آثاراً وهي صلة الأرحام

(١) الخطبة الثانية لصلاة عيد الفطر السعيد عام ١٤٣١.

والإحسان إليهم ورعايتهم وعظّم حرمة الرحم فقال تعالى: [يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً] (النساء:١) وكان أول ما بدأ به رسول الله (صلى الله عليه وآله) حين بعثه الله تعالى بالنبوة أن جمع عشيرته ودعاهم إلى هذا الخير الكثير حينما نزل قوله تعالى: [وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ] (الشعراء:٢١٤).

مضافاً إلى أن النظام العشائري يجعل من الأفراد كياناً فيكسبهم قوة إلى قوتهم وتنظيماً لشؤونهم والتنظيم قوة، وفي ذلك يوصي أمير المؤمنين (عليه السلام) (صل عشيرتك فإنهم جناحك الذين بهم تطير).

انحراف الرابطة العشائرية عن أهدافها:

لكن هذه الرابطة التي جعلها الله تعالى لتلك الأغراض الإنسانية تحوّلت منذ القدم إلى نظام اجتماعي يحكم أبناءه ويدير شؤونهم وربما أملاه نمط الحياة التي يعيشونها كمجتمعات بداوة ونمط الأعمال كامتلاك الثروة الحيوانية ورعيها أو الزراعة ونحوها، وأصبح بديلاً للنظام السياسي والدولة والحكومة كما هو المعروف من حال العرب قبل الإسلام، وكان نظاماً متخلفاً متعصباً قائماً على التفرد وإلغاء الآخر ولو بإبادته ومصادرة ممتلكاته فأزهقت الأرواح وانتهكت الأعراض وسالت أبحر من الدماء لا لشيء إلا لتلبية نداء هذه العصبية الجاهلية، وكان من أيسر الأمور إذكاء الحروب الجنونية بين القبائل لأتفه الأمور كحرب داحس والغبراء التي استمرت أربعين سنة على إثر مسابقة للخيول، وأشعلت

حرب أخرى لأن شخصاً قتل كلباً كان شيخ العشيرة الأخرى قد أجاره ونحو هذه الأمور مما لا يصدقها عاقل لولا أنها قد وقعت فعلاً.

وكان حول العرب أمم نبذت هذا النظام وأنشأت لنفسها أنظمة سياسية للدولة والحكم فتقدمت مادياً وأنشأت حضارات مرموقة كالرومان والفرس.

حتى بعث الله تعالى نبيه (صلى الله عليه وآله) بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله أي على كل الأنظمة والقوانين التي حكمت البشر وأردتهم في الهلاك فذوَّب هذه الانتماءات وآخى بين المهاجرين والأنصار والذين جاءوا بعدهم من سائر الذين اعتنقوا دين الإسلام، فكانوا كما وصفهم الله تعالى: [إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ] (الحجرات: ١٠) ووصف حالهم السابق من التشرذم والتفرق وما آلوا إليه من الوحدة والأخوة فقال تعالى: [وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ] (آل عمران:١٠٣).

ولكن لما ارتحل رسول الله (صلى الله عليه وآله) إلى الرفيق الأعلى وانقلبت الأمة على الأعقاب رجعت إليها بعض العادات الجاهلية ومنها العصبية القبلية وكان بنو أمية يغذّون هذا التقسيم ويذكون التفرقة ويقرّبون بعض القبائل على حساب بعض ليملكوا زمام الجميع.

حال العشائر اليوم:

واليوم حينما تنظر إلى وضع العشائر تجده في حال سيئ وتعيس ومتخلف،

والغالب في رؤساء العشائر ومن بيدهم الأمر والنهي أنهم يحكمون بغير ما أنزل الله تعالى، والظلم متفشي في أرجائها وعلى مختلف الأصعدة، ويئن أبناء العشائر من قساوة هذا النظام وأحكامه الجائرة ولكنهم لا يستطيعون الخروج من قبضته، أو يستطيعون ولكنهم لا يملكون الشجاعة لاتخاذ مثل هذا القرار.

جهود المرجعية الرشيدة في إصلاح الواقع العشائري:

لقد بذلت المرجعية الرسالية جهداً في سبيل إصلاح نظام العشائر وكتب سيدنا الشهيد الصدر (قدس سره) كتاب (فقه العشائر) لتصحيح تصرفاتهم وأحكامهم على وفق الشريعة، ووضع سنينة عشائرية على طبق التشريع الإسلامي لتكون بديلاً عن السنينة العشائرية المتعارفة.

وأصدرنا بعده كتاب (رؤى إسلامية في نظام العشائر وتقاليدها) لتصحيح الجانب الفكري والثقافي لدى العشائر وإقناعهم بتطبيق النظام الإسلامي، وتبعته فتاوى كثيرة في ما يتعرضون له من حالات، لكن هذا الجهد كله لم يُجدِ نفعاً إلا عند القلة ممن وفقهم الله تعالى لطاعته، وتردى الحال إلى الأسوأ بعد سقوط صدام واختلال النظام وانتشار الفوضى والعنف ووقوع السلاح بيد الجهلة والغوغائيين، ولم يعد للدولة والسلطة وجود مهاب مما شجع على بروز قيادات محلية اجتماعية أو دينية أو عشائرية وأصبح كل منهم حاكماً في مساحته ويحصل الصدام بينهم أحياناً بحسب تضارب المصالح والولاءات.

الايجابي والسلبي من مبررات النظام العشائري:

إننا نفهم بعض المبررات لوجود النظام العشائري كحفظ الأرض وزراعتها

والدفاع عنها وتقارب ذوي الأرحام لزيادة الأواصر بينهم، ولكن ما لا نفهمه ولا نقبله تحوّله إلى نظام استبدادي ظالم يحكم بالأهواء والعصبية وشهوات النفس والأنانية، ونحذّر من تحوله إلى نظام متخلف يكون غالباً من أكبر المعوقات لقيام مجتمع مدني متحضّر، وإذا بقي على وضعه الحالي فسيبقى التخلف والجهل سائداً في أمة كبيرة تخضع لقوانينه، وقد أثبتت التجارب التي أشرنا إليها أن محاولات إصلاحه غير مجدية ما دام يدار بنفس الذهنية السائدة.

العشائر والعمل الجماعي المشترك:

أيها الأحبة..

أنتم تعلمون أنا جميعاً مطالبون بأن يكون لنا دور في التمهيد لظهور الإمام (أرواحنا له الفداء) وتمكينه من إقامة دولة العدل الإلهي، والجميع مشتركون بدورهم كأفراد وأعني به أن يكونوا صالحين يعملون ما يرضي الله تبارك وتعالى ويجتنبون ما يسخطه تعالى ويبعدهم عنه وهو باب ينفتح منه ألف باب كما هو واضح.

ومضافاً إلى هذا الدور الفردي فإن على كل فرد تكاليف اجتماعية أوسع من ذلك وهي متباينة ومتفاوتة من فرد لآخر بحسب موقعه وعنوانه ومؤهلاته والأدوات المتاحة لديه مادياً -كالمال- ومعنوياً -كالعلم أو الجاه أو النفوذ- ونحوها. ولعل الأغلب إن لم يكن الكل مشمولون بهذا التكليف أيضاً لأن لهم شيئاً مما ذكرنا وإن تفاوتوا فيه. وتدخل في هذا التكليف وظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتشييد مشاريع الخير والجهاد لإقامة السنن الصالحة وإقامة

الشعائر الدينية وغيرها كثير.

دور العشائر في التمهيد للظهور الميمون:

ورؤساء العشائر ممن لهم تكليف واسع على النحو الثاني لامتلاكهم عناصر تأثير عديدة كالجاه والنفوذ والسطوة وكثرة الأتباع والقوة وربما المال والسلاح وغيرها، وهذا يعني أن مسؤوليتهم أوسع من غيرهم بكثير؛ لأن هذه كلها نعمٌ يُسأل الإنسان عن توظيفها في طاعة الله تعالى، قال عز من قائل: [ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ] (التكاثر:٨) والنعيم شامل لكل نعمة أنعم بها الله تعالى على عبده، وقال تعالى: [وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ] (الصافات:٢٤) وهذه المساءلة شاملة لكل أنحاء المسؤولية وأشكالها، وأعتقد أن رؤساء العشائر وغيرهم من المسؤولين -كأعضاء الحكومة وأصحاب السلطان- لو كُشف لهم الغطاء وعرفوا خطورة موقعهم وطول وقوفهم للسؤال بين يدي الله تعالى لما تنافسوا على شيء من هذا، ولنبذوه وراء ظهورهم وهربوا منه.

التحذير من الرئاسات الباطلة:

وقد ورد في الحديث عن النبي (صلى الله عليه وآله) (ألا ومن تولى عرافة قوم حبسه الله عز وجل على شفير جهنم بكل يوم ألف سنة وحشر يوم القيامة ويداه مغلولتان إلى عنقه، فإن قام فيهم بأمر الله أطلقه الله، وإن كان ظالما هوى به في نار جهنم وبئس المصير)[1].

وقد بيّن رسول الله (صلى الله عليه وآله) والأئمة الطاهرون (عليهم السلام) لأصحابهم الواعين

(١) بحار الأنوار: ٣٤٣/٧٢ في مناهي النبي (صلى الله عليه وآله).

الصادقين في طاعة ربهم هذه الحقيقة، روى الشيخ الطوسي في كتاب الأمالي عن الصحابي الجليل أبي ذر الغفاري أن النبي (صلى الله عليه وآله) قال: (يا أبا ذر إني أحبّ لك ما أحبّ لنفسي، إني أراك ضعيفاً فلا تأمّرنّ على اثنين ولا تولّينّ مال يتيم)[1] فإذا كان مثل أبي ذر الذي تشتاق له الجنة والذي قال فيه رسول الله (صلى الله عليه وآله): (ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء على ذي لهجة أصدق من أبي ذر) يشفق عليه رسول الله (صلى الله عليه وآله) ويدعوه إلى عدم الإمرة ولو على اثنين لأنه يعجز عن القيام بالأمر كما يجب فكيف بغيره؟ خصوصاً رؤساء العشائر الذين نعلم افتقاد أكثرهم لمؤهلات الإمرة وهي العلم بأحكام الدين والورع والحلم والحكمة والرحمة والشفقة على الناس.

على العشائر أن تكون زينا لا شينا:

فالذي نأمله من رؤساء العشائر وهم مسلمون موالون لأهل البيت (عليهم السلام) وأولى الناس باتباعهم أن يكونوا لهم زيناً كما قال إمامنا جعفر الصادق (عليه السلام) ولا يكونوا عليهم شيناً، ومن المقترحات التي نتبناها في هذا المجال أن ننظم لهم دورات دراسية في النجف الأشرف، مدة الدورة شهر واحد، نستضيفهم فيها ونعطيهم ما يحتاجونه في عملهم من دروس في الفقه والعقائد والأخلاق والعلاقات الإنسانية والإدارة ليكونوا مباركين دالين على الخير وآمرين بالمعروف

(١) بحار الأنوار: ٤/٧٥.

وناهين عن المنكر[1].

خطوات عملية في إصلاح النظام العشائري:

وندعوهم كما ندعو كل أبناء العشائر إلى اتخاذ خطوات عملية لتحويل مجتمعهم إلى أمة متحضرة متمدنة واعية منها:

١- المطالبة بإنشاء المدارس الأكاديمية في كل تجمع من الناس مهما كان نائياً ولو بأبسط صورها ـ كالمدارس المتنقلة ـ والقضاء على الأمية تماماً وإلزام الفئات العمرية جميعاً بالالتحاق بها.

٢- نشر المؤسسات الثقافية والإنسانية والصحية والاجتماعية والخيرية والدينية مما يعرف بمؤسسات المجتمع المدني في كل العشائر والقرى والأرياف والمدن في أنحاء البلاد لتؤدي كل منها دورها بحسب الغرض الذي أسست له.

٣- دعوة الخطباء والمبلغين إلى كل ناحية أو قرية أو عشيرة أو أي مكان ممكن لتعليم الأحكام وإرشاد الناس ووعظهم.

٤- انخراط أبناء العشائر في الوظائف وتحصيل الشهادات العلمية العالية وتشجيع من يتمكن منهم على السكن في المدن.

٥- وضع القوانين الرسمية الصارمة التي تحرّم بعض التقاليد العشائرية البالية وتعاقب عليها بحسب نوع الجناية أو الخطأ كالنهوة أو القتل لغسل العار في غير ما حددته الشريعة وسائر الأحكام الظالمة الأخرى.

---

(١) استجاب جمع من وجهاء العشائر لهذه الدورة ومكثوا في النجف أياماً تلقوا خلالها تلك الدروس، راجع تفصيل الخبر في الجزء السادس من كتاب خطاب المرحلة.

الخطر من الانفتاح على المفاسد الإخلاقية:

وهنا قد يقال بأن تحويل المجتمع العشائري إلى مجتمع مدني -كما لو فتحت فيه الجامعات والمؤسسات الحكومية- يعني الانفتاح على المفاسد الأخلاقية ونحوها.

والجواب:

١- إن حالات الفساد والانحراف في العشائر ليست قليلة كالقتل بلا ذنب والزنا والنهوة والنهيبة والظلم والبطش وامتهان المرأة وغيرها.

٢- إن الخلل المذكور ليس بسبب كون المجتمع مدنياً وإنما بسبب النفوس الأمارة بالسوء وقلة الواعظين والمتعظين فالجميع معرضون للفساد والانحراف إلا من عصم الله تعالى.

٣- إننا لو سلّمنا الإشكال فإن عملية الإصلاح في مجتمع متحضر ومثقف أسلس وأثبت مما في مجتمع عشائري متخلف ونحن نجد اليوم كيف انغمست العشائر أكثر من ذي قبل في الظلم وابتداع العادات والتقاليد المنكرة.

إن مما يؤسف له أن الكثير من القيادات الدينية والسياسية تعي حقيقة هذا الوضع البالي الذي يعيشه حوالي نصف المجتمع العراقي ولكنهم لا يتحركون لإصلاحه، بل قد يعملون على إبقائه ودعم رؤساء العشائر من أجل المحافظة على مواقعهم وسلطتهم كما يحصل قبيل الانتخابات، فيتحمل هؤلاء وزر هذا الوجود ودوامه وإذا كانوا لا يعون ذلك فالمصيبة أعظم.

وإزاء هذا كله لا يحل لنا أن نهمل الإشادة بدور بعض زعماء العشائر أو الأفخاذ الذين وعوا مسؤوليتهم أمام ربّهم وقادتهم المعصومين (عليهم السلام) فأصلحوا

أنفسهم وسعوا بحزم وشجاعة إلى إصلاح وضع عشائرهم فطوبى لهم، وضاعف الله تعالى لهم الحسنات بعدد من اهتدى بهم من الموجودين ومن الذين يأتون بعدهم والله ولي التوفيق.

الفهرس

القبس القرآني ٤٩ (قُلْ هَـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُـو إِلَـى اللّـهِ عَلَـى بَصِـيرَةٍ أَنَـاْوَمَن اتَّبَعَنِـي) [يوسف/١٠٨] البصيرة بوصلة السلوك الإنساني ٥

تطبيق للآية : ربيبة القرآن العقيلة زينب (عليها السلام) تعيد للأمة بصيرتها ١٢

القبس القرآني ٥٠(وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ) ١٩

ملحق: تعرضوا لنفحات ربكم ٢٨

القبس القرآني ٥١ (وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ) ٣٦

القبس القرآني ٥٢ (وَلَـوْلاَ دَفْـعُ اللّـهِ النَّـاسَ بَعْضَـــهُمْ بِبَعْضٍ) [الحـج : ٤٠] سـنة التدافع ٤٢

القبس القرآني ٥٣ (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْراً فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاء مَّعِينٍ).. ٥٣

القبس القرآني ٥٤ (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ) ٦٢

القبس القرآني ٥٥ تطبيق للآيـة: (كُونُـوا مَـعَ الصَّـادِقِينَ) [التوبـة : ١١٩] كـن فـي الصف الذي فيه علي بن أبي طالب (عليه السلام) ٧١

القبس القرآني ٥٦ (وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم) . ٨٠

القبس القرآني ٥٧ (وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُـمَّ لَـا يَكُونُـوا أَمْثَـالَكُمْ) سـنة الاستبدال ٩١

القبس القرآني ٥٨ (هُوَ أَنشَـأَكُم مِّـنَ الأرض وَاسْـتَعْمَرَكُمْ فِيهَـا) الإسـلام وإعمـار الحياة ٩٧

القبس القرآني ٥٩ (وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ) [الرعد: ٢١] ١٠٦

القبس القرآني ٦٠ عدم الثبات على الحق.....١١٦
القبس القرآني ٦١ (إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ) ١٢٣
القبس القرآني ٦٢ (الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا) ١٣٠
القبس القرآني ٦٣(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ) [إبراهيم : ٤٢] عاقبة الظلم ١٣٩
القبس القرآني ٦٤ (وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ) ١٤٧
القبس القرآني ٦٥ (لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا) ١٥١
القبس القرآني ٦٦ (ثُمَّ لَتُسأَلُنّ يَومَئِذٍ عَن النَعِيمِ) ١٥٧
القبس القرآني ٦٧ (لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ) ١٦٧
القبس القرآني ٦٨ (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا) الاستقامة ١٧٦
القبس القرآني ٦٩ (لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ) [الفتح : ٢] معنى استغفار المعصومين عليهم السلام من الذنوب ١٨٩
القبس القرآني ٧٠ (فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّين) [التوبة : ١٢٢]وجوب التحاق النخب بالحوزات العلمية.....٢٠٠
القبس القرآني ٧١ (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) ٢١٠
القبس القرآني ٧٢ (مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لاَ إِلَى هَـؤُلاء وَلاَ إِلَى هَـؤُلاء) [النساء : ١٤٣] التذبذب في المواقف.....٢١٥
القبس القرآني ٧٣ (وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا) ٢٢١
القبس القرآني ٧٤ (وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا) [الإسراء : ١٩].....٢٢٩

القبس القرآني ٧٥ (رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا) الذنوب: أصولها وكيفية الاحتراز منها وكفاراتها ٢٣٦
تطبيق: كيفية الاعتصام من الذنوب ٢٦٩
القبس القرآني ٧٦ (ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ) [غافر : ٦٠] الدعاء: فضله وظروف استجابته ٢٧٣
القبس القرآني ٧٧ (إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُون) [الزمر : ٣٠] دروس وعبر من وفاة رسول الله ﷺ ٢٨٥
القبس القرآني ٧٨ (إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ) مصاديق أداء الأمانة ٢٩٣
القبس القرآني ٧٩ (إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ) [التوبة : ١٨]
فضل إعمار المساجد ٣٠٦
القبس القرآني ٨٠ (يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ) [المائدة : ٥٤] الحب الإلهي ٣١٥
القبس القرآني ٨١ (فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ) [الضحى : ٩] رعاية الأيتام ٣٣١
القبس القرآني ٨٢ (لِيَبْلُوَكُمْ) [الملك : ٢] سنة الابتلاء ٣٤٤
القبس القرآني ٨٣ (وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ) [الأعراف : ١٥٦] موجبات الرحمة الإلهية ٣٥١
القبس القرآني ٨٤ (وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا) حقيقة السعادة ٣٦٠

القبس القرآني ٨٥ (وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا)تقييم الواقع العشائري...٣٧٦
الفهرس ٣٨٦